رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الدكتور سامي الدهان
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

درب الشوك

الباب السابع

دار صادر
بيروت

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

درب الشوك

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

جميع الحقوق محفوظة

١٩٦٩

كلمة

لست أدري لماذا آثر صديقي « درب الشّوك » على غيره ، فقد دخل في الحياة دروباً مختلفة ، ولكنّه ترك على هذا الدرب صوفاً كثيراً ، جمعته ، وغزلت منه هذه الخيوط .

فإلى زوجه المصونة أرسل باقة الشكر والثناء ، لأنها أعانته في صبر ، وشجعته في إيمان على سلوك الدرب .

وإليها أقدم هذه الصفحات

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأوّل

جنى النحل

فرنسة ــ بلجيكا ــ ألمانية ــ مصر

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أول الدرب

لم يكن صديقي من أسرة تعنى بالعلم أو تعمل للّغة . وإنّما كانت تسلك طريق التجارة ، فكان الطفل منذ صغره يضيق ذرعاً بالزيارات والولائم التي يقيمها أبواه للأقارب والضيوف . ولعلّ أذنيه ملتا هذا الضجيج من غير طحن ، وكرهتا هذا الحديث المتكرر في سخف غير مشين ، وفي إطالة غير نافعة ، فانصرف ، أو صرفه أبواه إلى شيء من اللهو مع أقاربه والعبث مع لداته .

ولكنّه وجد « الدرب » بعد ذلك ، فرأى أنّه درب غمره الشوك من أطرافه ، وتسلل إلى زواياه ، فكانت قدماه تدميان من غير أن يحسّ ، وكانت على ثيابه بقايا من « الشوك » ينزعها في أمل ، لعلّه يجد بعد الشوك ورداً ، ولعلّه يستريح إلى مجد قريب أو بعيد ، فقد سمع أنّ شيوخه بلغوا بآثارهم إلى آذان العلماء والأدباء في الشرق والغرب .

لذلك تعلّق بالشيوخ ، وسار على « الدرب » وراءهم ، فعشق الذي عشقوا ، وأمسك بالورق الأصفر والخطوط القديمة ، وسعى إلى الرفوف يضيفها واحداً بعد واحد ، ويملؤها بما يسقط إليه من كتب نادرة في أيدي باعة التركات ، فكان يألف التراب الذي يلفّها ، ويمسحه في تقديس ، ويكشف عن الصحائف بعينين مشوقتين إلى المجهول .

وساقته الصحائف الصفراء إلى ألفة غريبة ، أحب معها القدماء ، وسال لعابه في ترديد ما يقولون وما ينشئون ، فانفرد عن صحبه ، ودفعه الحياء إلى التزام الصمت فيما يحب وفيما يعشق . فلمّا أعلن المسؤولون عن « مسابقة »

إلى باريس ، سارع فيمن سارع ، وركب البحر هناك للدراسة . وكاد يغرق بين عباب التفكير ، فقد تصارع في رأسه الصغير ضربان من الموسيقى : موسيقى القديم الجميل المحبب من لغة قريش ، وموسيقى الجديد الحديث من فاليري وجيد . وتجاذبه تياران قويّان يشدّه أحدهما إلى شعراء بغداد ودمشق وحلب ، ويشدّه ثانيهما إلى شعراء باريس .

فدخل في جمعيات هذه الحاضرة المطبوعة على الحبّ آنذاك ، حبّ كل غريب . وسرى في الليل تحت أقبية « السين » يستمع إلى أنين الأحبة وشكوى الفقراء ، يشهد الحياة في ألوانها المتضادّة ، طموح بغير حدّ ، ويأس إلى غير حدّ ، سرى بينهما صديقي بغير حدود .

وهناك تسلّقت إلى فم هذا الفتى لفافات التبغ ، تحترق على شفتيه ، فلا يحسّ لنارها وقعاً . وكان صدره في أغلب الظن يعبّ الدخان ، ويرسم به أشباحاً لآماله ، ويخيّل إليه أنّه سيغدو كاتباً ، وأديباً ، وفناناً . فلذلك كان عليه أن يعود مع الأضواء الخافتة لأخريات اللّيل ، وغبار المكانس في الطرقات يطارد في منخريه وعينيه دخان التبغ ، وعيناه تبصران مع ذلك هذه الأشباح تتراكض أمامه ، وتصيح بأصوات تكاد تكون عربية حيناً إفرنجية حيناً آخر ، تناديه بأن يتابع الدرب « درب الشوك » ليكون كما أرادت الأشباح أن يكون .

والليل ما أنعم الليل ! هدوء يصرف ضجيج الحقد الذي كان يملّه ويكرهه ، وصفاء يبعد الكدر الذي كان يلوّث صمته ، ويهجم على أمنه ، خلال ساعات تجمعه بإخوته من العرب ، فكان يضيع بين حبّه لهم ، وبين يأسه من مستقبل كثير منهم .

ويحار في تفسير ما يرى ، ويدفعه ضياع بعض الزملاء إلى أن يلوذ بغرفته ، فقد كانت عامرة بأصحاب قدماء ، يتجاورون من كل عصر

ويصورون كل نزعة ، فينظر إليهم ، يقلّب صفحات كل منهم ، لا يكاد يقف عند واحد حتى يستهويه غيره ، فقد اختارهم ليقطع معهم الطريق ، وأحب أن يقرأ لهم جميعاً ، وأن يستنفد ما عندهم من خير ، لعلّه يفهم أسرار الثقافة الغربية ، ويدرك أسباب النهضة الأوروبية، ويظل كذلك حتى تلفّ رأسه مشاريع وخطط ، فيتحرّك للتأليف والكتابة ، يحبّ أن يقلّد وأن يبتكر ، فيمسك بالقلم ، ويشرع في التحبير ، حتى تضلّ عيناه ، وتكل يده ، ويميل رأسه المثقل بالآمال ، فيغفي ولا ينام ، ويقضي فكره دقائق في الظلام يقظان ، زاحفاً وراء المنى ، ليستأنف مع الصباح رحلته في طريق الفكر .

وقد ساقته رحلاته في الكتب ، إلى رحلات في العواصم والحواضر الغربية ، فتعلّق بلسان ولسان ، وأخذ من كلّ بطرف ، وجمع من ذلك كلّه زاداً كان يظن أنّه ينفع قومه ويرفع من بلده حين يعود .

لقد غادر بلاده الطيّبة ، وهي تئن تحت سياط القلق ، وقد فسدت فيها الحياة النضرة ، ولاذ المخلصون بالنضال ، وهال المبصرين العقلاء أن يتهالك المجتمع في أمراض خطيرة . فقد انصرف أكثر الشباب إلى العبث واللّهو ، والحسد ، وكثر البغض ، وماتت المشاريع ، وغابت الخطوات الجادة . يقضون ساعاتهم الحلوة في المقاهي على موائد النرد والورق ، يعبّون الشاي والقهوة ، ويستسلمون للمكرّر المعاد ، كأنّهم أشباه العامّة أو عجائز النساء .

غادر بلده على هذه الصورة ، وراح يوازن بين ما يريد لها ، وبين ما هي عليه . وكان يحزّ في نفسه أن أكثر الرجال الذين عرفهم يحاربون باللسان من غير جنان ، ويبارزون بالسيف من غير قوّة ، ويضحكون بالشفاه ، وقلوبهم تقطر أسى ، ويحسّون مع هذا أن القرون تزمجر فاغرة فمها لتبتلع هذا الميراث العريض ، فكأنّ الناس يقفون على الهاوية ، ويرقصون

على غناء شاحب بين الرعب والإقدام .

كان يمضي في « دروب الغرب » لكل سبيل ، يستنفد الصور ، ويشرب الألوان ، ويلتهم الساعات ، فإذا تعبت رجلاه ، أسلم رأسه إلى هؤلاء الكتّاب الغربيّين ساعات طويلة لعلّه يجد عندهم الدواء والشفاء ، فقد مرّت بلادهم بمثل هذه الأمراض والعاهات ، ولكنه كان يعود عنهم بعد ساعات ، ظامئاً لا يرتوي ، نهماً لا يشبع ، ففي نفسه قلق ، وفي قلبه حيرة ، وفي عقله طموح ، كلما سما إلى المعرفة .

حوله الغربيون يركبون غارب الجد والخطر ، فهم يمتطون الجو ويسخّرون العلم ويمتلكون الاختراع ، ويصافحون النجوم ، وكثير من قومه يتعلمون السير على الأرصفة ، والمشي في طرقات الجامعة وسلالمها ، تتزاحم المناكب في غير نظام ، وتتسابق الأجساد في غير تفكير ، فيعيش الخلل وينتعش الاضطراب .

لقد قرأ لكاتب غربيّ يصف بلاده فيقول إن أكثر الناس فيها يعيشون نصف عمرهم التائه في محاربة الآخرين يسدّدون السهام الطائشة في غير هدف ، ويقضون نصف عمرهم الآخر في الدفاع عن أنفسهم ، فكأنّهم يحاربون طواحين الهواء ، وكأن حياتهم هباء !

وتذكّر أن بعض الكتب والصحف تتكدّس سخيفة وعميقة ، لا يبالي قومه في التمييز بينها ، وتخرج على الناس ، وتباع مع ذلك فلا يتلفت نظر ثاقب إلى ما فيها ، وإنّما يقع النظر على العناوين ، ويصافح الأنهار والفصول والأبواب ، فيروج بذلك سخيف مبتذل ويسقط العميق الرفيع ، ويلبث على الرصيف يركبه الغبار ، وتدوسه الأرجل .

وحياة كثير من مواطنيه تشبه حياة كثير من الكتب ، فيروج السخيف ويعلو ، ويسقط الشريف ويفتقر ، فيتحكّم الحظ في رفعة متأدب لا يفقه

الأدب ، ومتشاعر لا يحسّ بالشعر ، وسياسي لا يفهم السياسة ، والألقاب تروج !

كذلك كان صديقي يقضي أكثر ساعاته في تفلسف معقّد ، يحسب أنّه سافر من أجل قومه ، ويجب أن يعود للعمل من أجلهم ، وأن يعمل في التقويم والإصلاح ، وما ينجيه من التفكير والقلق إلاّ إيمانه بأنه صاحب رسالة ، وأن مهمّته في التحذير والتنبيه ، وأن العمر القصير يجب أن ينفق في خير قومه وفي نفع وطنه .

والذين فهموا الحياة يعرفون أن الدنيا قطار يركبه المرء فإذا فتح عينيه رأى خير ما ترى العينان ، وإذا أصغى بأُذنيه سمع أحسن ما ينتشر من الألحان .

فليركب هذا القطار في عينين تبصران وأذنين تسمعان وليبدإ الرحلة ، رحلة الشباب .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رحلة الصيف

كان صديقي ينهل من الغرب في ظمأ ، ويتطلع إلى ما فيه على شوق وشغف ، كأنّه يريد أن يكتشف المجهول ، فقد قرأ عن الغرب وسمع ، وأحب أن يسير إليه ، فلمّا كتب له أن يعيش فيه كان يحسّ أن الحياة قصيرة ، وأن الأجل قريب ، وأن عليه أن يجري ويجري ، وكان في مطلع الشباب يحن إلى الجد والفهم والعمق ، فرأى أن الغرب مدرسة يجب أن يدخلها في كل أرجائها وزواياها ، لا يستصغر مقهى أو ملهى أو مسرحاً ، وإنّما يحب أن يفيد من ذلك كلّه .

لقد قرأ قبل أن يسير إلى الغرب كتاب زكي مبارك عن باريس ، وكتاب الصاوي عنها ، وفي كتاب الصاوي كل ما كتب الشرقيون والغربيون عن هذه الحاضرة ، ولكنّه لمح على أقلام أكثر هؤلاء روح الرومانطيقية ، لأنهم كتبوا بعد أن رحلوا عن هذه الحاضرة ، فأوحت إليهم الذكريات الغالية الغابرة ومضض الشيخوخة أن يكتبوا في حب وشوق وحنان ، كأنّهم يستعيدون أيام شبابهم في إطار ما يرسمون عن باريس، لذلك سحرته هذه المدينة ، وأخذت من لبه ، فقامت مقام المرأة من قلبه واحتلّت كلّ شيء في جوانحه وغدت عروس أحلامه .

فلمّا سكنها كان يصل ليلها ونهارها ببرامج يخطّطها ، فكان يشتري مجلة « السياحة » ، ويرى مشاهد البلد التي تعدّدها المجلة أو تعلن عنها أو تصفها ، فيصرّ على أن يضرب فيها بقدميه سائراً على جسورها ، ماشياً تحت القناطر ، يحاذي نهر السين من حيّ إلى حيّ ، يستقرىء التاريخ في كل مكان ،

ويعايش أشباح العصور الفرنسية في كل ركن وقصر وحديقة ، حتى لقد حفظ عن هذه العاصمة ما لم يحفظه كثير من سكانها ، لأنّهم ينظرون إلى أعمال ينهضون بها في سبيل العيش ، وكان هو موفور العيش ، فما يفكر في العمل ، إنّما يفكر في اصطياد وقت يتسع لهذه المشاهد جميعاً .

فالمسرحيات الليلية كانت تحتل كل لياليه ، والأغاني الشعبية تصرخ في أذنيه ، ولغة المغنين كانت تدخل إلى قلبه عن سبيل معاجم اشتراها لذلك ، كما اشترى المسرحيات والقصص ، فكأنّه قدم إلى العاصمة لدراسة تاريخها وأدبها ، فحسب !

ولقد اقتنى مكتبة كبيرة من أطراف السين والعربات المتنقلة والمكتبات العامة في أحياء الطلبة . وما يزال على كل كتاب تاريخ شرائه يذكّره بالظرف الذي اشتراه فيه ، وعبارة التلخيص والنقد في كراريسه تشهد على أحكامه التي كان يرسلها في صدد هذه الكتب .

شهد هذا كلّه من باريس ، وعاد إلى كتاب الصاوي ليوازن بين الآراء التي احتشدت في دماغه الصغير ، وبين الآراء التي أرسلها هؤلاء الكتّاب الكبار الذين كانوا مُثُلاً عليا في النقد والتعبير . واقتنع بأنّه استنفد أكثر ما كان يتمنّى في الرحلة خلال أحياء « مونمارتر » و « مونبارناس » و « الشانزليزه » ، وغيرها من أحياء باريس !

وقامت في نفسه بعد ذلك دوافع الرحلة خارج العاصمة ، ولقد أثارها إعلان عن جمعية سياحية روسية بيضاء ، كانت تعدّ لمخيّم على شاطىء « الرفييرا » بين مدينتي « كانّ ونيس » ، فاشترك في الرحلة وركب القطار إلى مرسيليا . وانتقل منه إلى قطار صغير يحمله إلى المصايف ، وقد اشترى ثياب البحر ، واتخذ عدّته للسباحة ، ولكن المسافرين حوله في القطار كانوا يخلعون ثيابهم داخل العربات رجالاً ونساء ، وهو هو وحده شرقي عربيّ ، كان

يحملق فيما يجري حوله ، وينتقل من مركبة إلى مركبة ، فيرى القوم وقد استبقوا الزمان . فسارع إلى خلع معطفه ، ولم يعرف كيف يخلع ثيابه ، وحار في الإجابة على عيون زملائه وزميلاته . وأخيراً ، انصاع إلى أمر عجيب يطلّق به شرقيته إلى الأبد ، وكان بعد أيام في طليعة الرياضيين ، سباقاً في ممارسة أساليبهم العجيبة !

نام تحت الخيام ، بعد أن تعوّد السكوت على كل ما يرى ويسمع ، واختلفت على سمعه تحت الخيام ، وفي المياه ، وعلى الرمال ، ألفاظ العيش الجديد ، فما أنكر نفسه ، وما كفر بقلبه ، وإنّما آمن بأنّ الناس يحيون لأنفسهم ، ولا يسألون عن جيرانهم ، وعمّا يقول الناس في هذه البلاد العجيبة !

وعاش على أطراف البحر ، فألف المياه ، والصخور المبلولة ، والأعشاب السابحة ، والأشعّة المتقلّبة على ساعات النهار ، فكأنّه سمك بشري ، وكل زاده الفكريّ يأخذه في العطلة عن جرائد ومجلات يقرؤها ويلقيها !

وانتقل بعد البحار إلى الجبال العالية في الألب ، يمضي ويمضي حتى دخل مدينة « أنسي » وبحيرتها ، يسافر منها كل أسبوع إلى بحيرة « بورجيه » فيعيش مع اللّحن الموسيقي لأمواج البحيرة ، وهدير الشعر يدغدغ أذنيه في وصف هذه المشاهد الساحرة ، فيظن أنّه غدا شاعراً ، ويمسك القلم لينظم ويكتب ويصف .

وصعد به هؤلاء الزملاء إلى أعلى قمّة تفصل بين سويسرة وفرنسة ، فإذا هو أمام « بحر الجليد » يمسك عصاه المدبّبة ليسير عليه مسافات طويلة ، يقطع بها في رياضة واسعة هذه الأرض المغطّاة بملاءة بيضاء متجمدة ، وهي أشبه ما تكون بالفرو الأبيض ، أو بأراضي سيبريا خلال الشتاء .

وفي عرس الطبيعة ، كان صديقي يختال فرحاً بالأهازيج حوله ، فيغنّي قلبه ولسانه ، ويمتزج بالقوم ، وينسى أنّه شرقيّ ؛ حتى لقد دخل سويسرة مع الداخلين ، وهو لا يحمل جواز سفر ، فلمّا فطن إلى ذلك صمّم أن يعود إلى هذا الجانب من « بحيرة ليمان » ، وأن يزور قصر « جمعية الأمم » . وإلى هذا القصر الفخم كان يختلف ممثلو الأمم والأعراق والأوطان ، فاستيقظ بعد سكرة ، وصحا بعد نشوة ، وعلم أن في هذه الأمم من يتصيّد الشرّ لقومه ، فحمد الله أن الصّيف قد انقضى ، وأن الجدّ قد عاد ، وأن النّحل الدؤوب يجب أن يخرج العسل ، وأن يهيّىء « الجنى » ، وصديقي يجد في النحل صورة لجدّ الحياة ، ويرى في « الجَنى » ثمرة للحياة .

فلمّا أقبل الخريف عاد إلى الجامعة !

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من خلال المؤتمر

بين هذه الصور الكثيرة المختلفة للأنهار ، والبحيرات ، والجبال ، والحدائق ، كنت ألمح عند صديقي صوراً حبيبة ، يقف عندها في تقديس ، كأنّه يمسح عليها بيديه أو كأنّه يريد أن يدفع عنها غبار الزمان ، ويتمنى أن لايصيبها شر أو مكروه .

تلك صور أصدقائه يحدّق بها ساعات وساعات ، ثم يطويها ، فأعجب لرفيق الخالدين كيف يتّصل بالمعاصرين كذلك . إنّي لأعرف أن أصدقاءه قضوا منذ مئات السنين ، وليست لهم صور ثابتة موروثة ، فما لهؤلاء يحتلّون مكانهم من دفاتره ومجموعات صوره ، ذلك ما آثرته في الحديث عنهم ، وما كان من العسير أن يضطرم خياله ، ويعود بالذكرى في حديثه إلى سنين وسنين .

فقد تعلّق برجال « السوربون » من أساتذته ، وأعجب بهم إعجاباً لا يوازن بإعجاب ، وأحبّ أن يقلّدهم بعد ذلك ، فاكتسب منهم هذا الداء الذي استفحل عنده ، فراح يجمع القدماء ويُعنى بهم ، ويتسقّط عيشهم سنة بعد سنة ، كما يفعل أساتذته بأعلام أدبهم سواء بسواء . وأساتذته كانوا يعملون متشاركين يقرأ بعضهم نتاج بعض ، ويتبع بعضهم اكتشاف بعض ، فتتكامل الصفحات في دراسة الشاعر ، وإنتاج الناثر ، ويفيد الأديب من هذه المشاركة العلمية الجامعيّة ، كما يفيد المستنير بأسلاك الكهرباء تتجمّع وتتلاقى ، لتخرج للناس هذا النور .

لذلك جعل ذكرى هؤلاء المستشرقين من أصدقائه وأساتذته في صدر

دفاتره ، فقد لقيهم في أول مؤتمر حضره للمستشرقين في « بروكسل » ، وسمع منهم أحاديثهم عن لغتنا وآدابنا وتاريخنا ، ووقف على ما لم يكن يعرف في دقة وتفصيل ، فقد كان هؤلاء المستشرقون يتعمقون في الأشياء الدقيقة والوقائع البعيدة ، ويتلمسون الطريق إلى فهم الإنسانية في كل بقاعها وعلى اختلاف أزمانها .

لقد كان يسمع عن هؤلاء المستشرقين ، ويقرأ لهم ، فيفهمهم حيناً ، ويستعصى عليه فهم ما يقولون أحياناً ، لأنّهم ينظرون من زاوية غربية ، وتعوّد صديقي أن ينظر من زاوية شرقية ، ويا بعد ما بين الزاويتين ! لذلك كان يحنّ ويشتاق إلى التعرف بهم والاجتماع معهم والاستماع إليهم ، فقد كان مشوقاً إلى المعرفة العميقة ، وكان يخاف أن يتّهم بالسطحيّة ما عاش ، فتلك كانت من عقد حياته .

لذلك هرع إلى « بروكسل » وهو ما يزال في السنة الثانية من حياته الجامعية ، شاباً ناشئاً ، يخاف أن يقدّم نفسه كطالب فيستخفّ به ذلك العالم العملاق ، ويخاف أن يعود إلى بلاده من غير أن يتعرّف إلى هؤلاء الذين كتبوا في تاريخ العرب وفي أدب العرب وفي دين العرب ، وفي مقوّمات العرب ! .

فلمّا حضر « مؤتمر المستشرقين » ، سار في الأروقة يتعرف إلى هؤلاء الأعلام ، كما يتعرّف المشوق إلى صانعي لوحات اللوفر ولندن وغيرهما من متاحف ، بعد أن عرف الألوان والأصباغ والظلال ، بل كما يسعى الفنان إلى رؤية الألواح لحماً ودماً ، بعد أن سمع عنها منذ زمن بعيد . فيا لفرحة العمر !

كذلك كان من أمر صديقي حين وقف يتعرّف إلى « كارل بروكلمان » مؤرخ الأدب العربي بالألمانية ، فلمح في عينيه هذه المئات من الصفحات

كتبها عن أدب العرب وتاريخهم ودولهم ، وعن أدب الأمم السامية ولغاتها . ورأى فيه بساطة العلماء، وحذر العقلاء من أن تشمخ بهم أنوفهم إلى التعالي . وطلب من بروكلمان وزوجه أن تكون لهم صورة تذكارية في جانب من أروقة المؤتمر ، فما أسرع ما كانت التلبية من رجل قرأ للعرب وأحصى أدبهم ورجالاتهم ، ولم يزر ربوعهم كل عمره .

فلمّا عرض صديقي عليّ الصورة ، دفعها مزهوّاً بها كأنها مخطوطة نفيسة ، ثم أرفقها بمقدمة للرجل بالألمانية عن « رسالة » صديقي في الدكتوراة ، وطوى الصفحتين في رفق ، كأنّه يحتفظ في نشرهما لأيام قادمة ، حين يرضى صديقي عن نفسه كما رضي عنه المستشرق .

وقلّب أمامي صورة أخرى للمستشرق « أنو ليتمان » وكان أستاذاً بالجامعة المصرية ، عدداً من السنين ، وثالثة للمستشرق « جيب » ورابعة « لكرنكو » ناشر دواوين العرب .

ثم وقف هنا هنيهة أمام صور شرقية ، لرجال سمر ، بدا أنّه يتمسك بها ، ويعتزّ بمكانها ، فقد صوّرها كذلك خلال المؤتمر .

لقد كان هؤلاء السّمر من صانعي العربية في مصر ، قرأ لهم صديقي منذ نعومة أظفاره ، وتعلّق بأساليبهم جميعاً ، فكان يكتب الصفحة على أسلوب طه حسين ، ويكتب الأخرى على أسلوب أحمد أمين ، وثالثة على أسلوب عبد الوهاب عزّام . فقد قرأ كتبهم حتى حفظها ، وعرف بحوثهم واستساغها ، ونقلها إلى إنشائه فاندمجت في أجزاء كتابته ، واختلط الأمر فغدا مقلّداً راوية ، وكذلك يبدأ المتأدب ، أول الدرب ، يقلّد ويقلّد حتى يتاح له مرّة أن يبتكر .

لقد كان صديقي يعرفهم قبل أن يراهم ، ذلك لأن صورهم التي تنقلها المجلات المصرية أبداً في تلافيف مقالاتهم كانت تغمر غرفته ، وكانت هذه

المجلات المصرية تستنفد ما في جيبه الصغير ، ينفق كل ما يملك في سبيلها وكانت هذه الصحف واسطة الثقافة لأيامه ، تكوّن الفصول كأنّها جامعة يدخلها القراء المثابرون ، ويخرجون منها ، وهم أشدّ ما يكونون غنىً في آداب القوم وفي كتبهم .

فلمّا رأى صديقي هؤلاء الأعلام من مصر هجم عليهم ، يتعرّف إليهم ، ويصطاد صورهم واحداً بعد واحد بآلته المصوّرة ، يرتجف ويرتجف لأنّها المناسبة الفذّة خلال أسبوع المؤتمر ، فإذا خلا الأسبوع طارت الذكرى . وكان يشهد جلسات المؤتمر ، ويستمع إلى آراء الشرقيين والمستشرقين ، ويفيد من هذه الآراء كفائدته من الكتب والبحوث المنشورة سواء بسواء يعبّ من هؤلاء وهؤلاء ، ليجمع مادة ثقافته ومعرفته ، وليوازن بين التفكير الغربي والتفكير العربي في النظر إلى تراثنا . وكان يسعى وراء ذلك في نهم وفي شغف ، فما يخرج بحث جديد إلاّ سارع إليه لأنّه يعرف صاحبه ، فالمؤتمر قرّب الصور البعيدة في ذهنه ، وأتاح له أن يفهم هؤلاء الباحثين وأن يتابع آراءهم . وذلك أثر المؤتمر في قلبه ونفسه .

لذلك ما فاته مؤتمر لهؤلاء المستشرقين بعدها في باريس ، واستانبول ، وميونيخ وأكسفورد ، وغيرها ، من عواصم الدنيا ، فكأنّ هذه الحواضر حجرات يستمع فيها إلى دروس جديدة ، فهو طالب أبداً ، ماعاش ! . . .

فتيات هتلر

عجبت لصديقي كيف يضع صورة هذه الفتاة بين دفاتر الرحلة ، فلعل موقعها أحق « بذكريات باريس » ، وهي في دفاتر ورسائل ترجم بعضها إلى العربية . وعهدي به أنّه يخفي هذا الدفتر ويحرص عليه ، ويسميه سجل « أيام الجاهلية » وقد عفى الإسلام عليها ، فلم يبق من ذكراها إلاّ القصّة والنكتة ، والرائحة الأدبية والوصف الاجتماعي ، وعطر الشباب ، كما عفى الإسلام على أكثر أشعار المخضرمين ، فلم يبق منها إلاّ ما يشع منه الإيمان والتقى والهداية .

ولكن لماذا تقف الفتاة بين صور الألب ، وبحر الجليد ، وقصر جمعية الأمم ، وبحيرة أنسى ، وبحيرة لوغانو . ولماذا توضع هذه الشقراء قبالة سواحل بلجيكا ورمال هولندة ، كأنّها حبيبة موسّة أو كأنّها غرازيللا ؟ بل لماذا تقف وجهاً لوجه أمام ساحات نورنبرغ الفسيحة ، وقصور التماثيل في برلين ؛ فلا بد لها من قصة تحتل مكاناً في عقل صديقي ، ولعل لهذه القصة صلة بهذه الكراسة الخاصة برحلاته عبر ألمانية وبلجيكا وهولندة وسويسرة ، وقد طافها خلال شهور متتابعة ، وهو يلهث وراء مخطوطات شاعره الحبيب أبي فراس الحمداني .

فلما تحدث صديقي عن هذه الفتاة أطلت من عينيه شرارة تخيفني أبداً ، فقد استصغر دقّتي في الملاحظة ، وسألني إذا كنت قد رأيت على قميصها ربطة العنق المعقودة ؟ وهل تضع فتاة ربطة العنق الكشفية للإغراء ، وتحتل مكانها بين الورد في جنات الشباب ؟

وجمت حين انهال صديقي عليّ بهذه الأجوبة ، فكأنّه لم ينظر إلى جمال هذه الفتاة الساحر ، ولم يذكر أنّه كان في مطلع الشباب فهي تمت إلى عهد زيارته الأولى لبرلين قبيل الحرب الثانية ، تمثل هذا الجيل من الفتيات اللواتي رآهن صديقي في كل مكان خلال الرحلة ، أمام المحطات ، وعند المنعطفات ، وفي مكاتب السياحة ، وقد ربطن حول عنقهن ربطة العنق وسمين أنفسهن « فتيات هتلر » .

أما القصة فهي شيّقة لطيفة ، أذهلت صديقي عن نفسه آنذاك ، فقد بلغ إلى برلين أول مرّة ، ونزل من القطار في المحطة الرئيسية ، يحمل حقائبه المتعدّدة ، ووقف ينتظر على الرصيف ، ليتدبر أمر نقلها ، فتقدمت إليه هذه الفتاة تسأله في لطف وإيناس : أين يقصد ؟ فخجل أول الأمر ، ولكنه أفضى إليها بأنّه يفتش عن « حمّال » . فما كان منها إلاّ أن حملت حقيبتين إلى المكتب القريب ، وحمل هو سائر الحقائب ، وأعانته بعد ذلك على إيجاد الغرفة ، وزودته بما يريد ، وصحبته إلى بيته الجديد ، ودخلته واثقة وخرجت منه واثقة .

وقد عهد القوم إليها بصحبته ، فلمّا دخلا ملهى « فمينا » وهو من الملاهي التي يختلف إليها الشباب ، رأى على كل طاولة هاتفاً ، وعلى كل هاتف نور يلمع ، إذا أظلمت الصالة للرقص ، فيدير كل راغب قرص الهاتف على الرقم الذي يريد أن يراقص حسناءه ، فتجيبه الجالسة بالقبول أو بالرفض ، ويقبل عليها منحنياً ، وتلتقط قدماه أنفاس الموسيقى ، فيتبعها في أدب متكلّف ، فرضته الأوامر التي غطت جدران الملهى ، فالأدب واجب ، والرقص الخليع ممنوع ، وعليه أن يرقص من غير شطط . بل عليه أن ينسى باريس وليالي باريس ، فإذا انقضى الرقص ، انحنى مودعاً شاكراً في حركات كأنّها عسكرية ضحك لها صديقي أول الأمر ، ثم راح

يطيعها آخر الأمر ، فقد رأى مظاهر « الرقابة » في كل شيء ، في المجلات حيث يبدو البعد عن مظاهر الإثارة والإغراء ، وتظهر الرياضة النقيّة بارزة في كل صفحة ، فكأنّ القوم أرادوا أن يقلدوا الأسبارطيين ، وأن يبتعدوا أشد البعد عن أخلاق الآثينيين .

ولقد اجتمع إخوانه الطلاب ذات يوم ، ودعوه إلى غداء ، وتوجهوا به إلى أفخم مطعم في برلين آنذاك ، فعجب كيف يغصّ المطعم بالطلاب وهو من ارتفاع الأسعار بحيث لا يدخله إلاّ الأغنياء . فلمّا طلب ما في قائمة الأكل قيل له إن الوجبة موحّدة ، وأنّه لا يستطيع أن يأكل إلاّ لوناً واحداً وهو « الحساء » ، وفي الحساء عند الألمان يجتمع اللحم إلى الخضار وغيرها . فابتلع صديقي الحساء وسرّ به ، ولكن رفاقه نهضوا بعده ليدفعوا أجر وجبة كاملة ، وفي أيديهم « إيصال » بأنهم تبرعوا ليوم الشتاء . فالمال يصرف لهؤلاء الذين حرموا من وجبات الطعام الدافئة المريئة ، يأكلون مرة في الموسم على الأقل ، كما يأكل المترفون ، ويلبسون للشتاء أو للصيف ما يشبه لباس النعمة أو الرّفاهية .

وسمع صديقي أقاصيص عجيبة عن حال الشباب خلال هذه الفترة القصيرة من مقامه ، قرّبته إلى عيشهم وإلى حالهم ، فكيف يوازن ذلك بما سمع من أقاصيص كانت تروى عن الألمان !

لقد ضرب بما سمع من هؤلاء وهؤلاء عرض الحائط ، فهو لم يدخل يوماً في نزاع سياسي ، ولم يتعمق في الحياة السياسية ، ولم يذهب مع اليمين أو مع اليسار في مذاهب الرأي ، لأنّه لم يخلق للسياسة ، ولأن الأحكام السريعة خطرة أشد الخطر ، والحكم على شعب أو على بلد لا يكون في شهور ، ولا يكون في خلال الحديث العابر أو الحوار السريع ، وإنّما يأتي عن طريق الدراسة العميقة المتخصصة لتاريخ ذلك البلد وتطوره وخدمته

للإنسانية وحرية الإنسان فيه ، ورقي البشرية من وراء وجوده .

لذلك كان ينصرف عن هذه الأقاصيص تنطلق من كل فجّ ، إلى ما جاء له من جمع مخطوطات الشاعر الحمداني ، وقد توزعت في حواضر ألمانية ، فلمّا بلغت نذر الحرب من أجل « السوديت » مبلغاً أصبح يخيفه ويزعج مقامه .

فكر في الرجوع إلى « باريس » لأنّه سئم إطفاء الأنوار والاستلقاء على الأرض لإنذار الغارات ، فالألمان كانوا يعدون لحرب صاعقة ، ويعرضون عضلاتهم كل يوم ، فيقطعون عليه سبيل العودة من المكتبة إلى داره ، بمظاهرات وحركات ما كان يراها في فرنسة . فآثر أن يعود إليها ، وفي طريق عودته ، مرّ بمدينة استراسبورغ ، فلمّا دخلها رأى الشباب الفرنسي قد استسلم لحياته الحرة على أنغام الرقص الهادىء ، وشراب النبيذ في كلّ كأس ، ونغمة الحب على كل شفة ، وكأن الناس يعيشون ليومهم فحسب ، لا يفكرون بالغد ، والغد شبح رهيب ، شهده صديقي بعينيه ، واكتوى بناره ، وما زال يذكر آثار هذه النار في قلبه وجسده من ويلات الحرب .

دفن الموتى

عاد صديقي إلى باريس ، وشهد أعياد ١٤ تموز (يولية) ، وكانت أعياد غريبة عجيبة ، بالغ بها الفرنسيون في تهيئة العرض العسكري ، وأعدّوا له ، وساعدت الظروف القلقة والغيوم الكثيفة على أن يتخيّل الناس أنهم على أبواب شيء ما . فقد سالت خيول السباهية المغربية في ذلك اليوم على عرض « الشانزليزه » — شارع العرض العسكري — وراحت تدك الأرض بالنعال والحوافر ، وانحدرت القوى الآلية مزمجرة كأنها تُسمع العيون والجواسيس أن الحلفاء على استعداد .

وكان صديقي يتحسس في الفينة بعد الفينة هويته السورية ، ويضيع في زحمة التفكير بالغد والحرب ، وينسى الاحتفال ، فالعيد ليس عيداً له ولا لقومه العرب . وكان يغيب في ضجة التهليل والتصفيق يشقان عنان السماء ، ويخترقان ظلمات الحرب ونذرها ، ويخفيان صيحات الويل والتهديد .

ولقد قرأ قبل يومين من حلول العيد أن عاهلي انكلترة يزوران فرنسة ليشاركا في فرحة هذا الشعب ونصرة الديمقراطية ، والوقوف في وجه الدكتاتورية فأرسلا الطائرات والدبابات والأسلحة إلى العرض العسكري ، ولعلّها تتخلف فتبقى لتحارب مع الأسلحة الحليفة ضد العدوّ المشترك .

وكان مقال الكاتبة الفرنسية « جنفياف تابوي » في جريدة « الأوفر » يتكهّن كذلك أن اشتراك انكلترة واقع ، وأن الحرب واقعة لا شك فيها هذه المرة ، فلن تصبر أوربة على هذا التهديد الجديد أكثر ممّا صبرت ! ..

وكتب صديقي إلى مجلة تصدر في بلده يصف الحال والسفر ، ويتنبأ كذلك بالحرب ، ويراها قريبة منه ، فكان أسرع زملائه في النزوح عن باريس ،

وكان أشدهم خوفاً منها لأنه رأى في زيارته لبلاد « الراين » أكثر من عرض عسكري ، وعرف الاستعداد للحرب الجهنمية .

لذلك رحل ذات صباح غاضب عن باريس مع صديق له ، وكانت القطارات مجانية ذلك اليوم ، لأنها لا تستطيع أن تطلب أجراً من شعب طار صوابه ، ووقف فجأة أمام الكارثة ، فهو بين عشية وضحاها أمام هجوم الألمان على أوربة . وحكومة فرنسة تخطب وتكتب ، فكان السخط ظاهراً في تحركات الشعب ، وفي نفوره من بلدانه إلى أماكن أشد أمناً ، فزحف سكان الشرق بفرنسة إلى غربيّها ، يبحثون عن مأمن يقيهم خطر الحرب .

ونزح صديقي مع النازحين حتى بلغ مدينة « رمال أولون » على شاطىء الأطلنتي ، وهي قصبة صغيرة هادئة رائعة ، لكن أصحاب الفنادق فيها لا يستقبلون ضيوفاً من الشباب في سن الجندية ، يتحدثون الفرنسية ، ولا يخدمون فرنسة ، بل إنهم لا يقبلون الفرنسيين النازحين من الشرق في سهولة ويسر ، بعد أن حسبوا أن نظام العيش يصبح قاسياً إذا كثر الغرباء في بلدهم ، فبدأوا ينفرون من الوافدين وينظرون إليهم في شزر ، فاضطر صديقي إلى العزلة ، ومعاشرة البحر .

وحدث ما لم يكن في الحسبان ، فصديقي كان يصاحب التصوير ، ويتصيّد مشرق الشمس ومغربها ، وصراع الرمال وثورة الأمواج ، ويرسم الأجساد السابحة في صمت ، والوجوه المستقبلة للشمس في الخريف مع كآبة ظاهرة وقلق باد . ويتسلّى بالصُّور ، ويحسب أنها كفيلة بأن تنعش أيامه المقبلة في الشيخوخة ، وأن تعيد إلى نفسه المتثائبة بعض خيوط النور والنشاط والحياة كلما عنّ له أن يعود إليها وأن يقلّبها بين يديه .

وفيما كان يعبث بآلة التصوير ، وقف فرنسي طويل القامة فجأة ، وطلب إليه أن يصحبه إلى مركز الشرطة ، وما من نقاش في ظروف الحرب ، فأطاع ،

وبلغ به إلى المسؤولين ، ليتّهمه بأن الشاطىء عسكريّ ، وأنه يصوّر أهدافاً عسكرية تخدم العدو معرفتها ، فما كان من صديقي إلاّ أن طلب بعد ساعات من التحقيق والتوقيف ، أن يسعى إلى مصوّر ، يظهر دفين الصور بالتحميض ، فقبل الحاكم ، وانصرف صديقي فوراً إلى تحطيم الصور وإحراق الشريط كله بالنور ، وما ذاك عن ذكاء منه ، وإنما كان المصور الفرنسي هو الذي دل صديقي على الخلاص حين آمن بسذاجته وبراءته من هذه التهمة ، وكرهه لهذه الأساليب ! . .

وتكررت الأحداث ، وسئم صديقي المقام في الظلام بين هؤلاء المتجسسين الذين كانوا يحسبون في كل خطوة يخطوها فكرة عسكرية تنقل إلى العدو ، وخريطة توضع في خدمته . فتحمل إلى باريس ، وهي خاوية خالية إلاّ من هؤلاء الذين وطنوا نفوسهم على كتم الأنوار بالأوراق الزرقاء ، وحجب الزجاج بالستائر الداكنة ، والهبوط إلى الملاجىء كلما قرع بوق الإنذار ، وشد الحزام على المآكل ، واللجوء إلى مظاهر الحزن والتفجع ، لأن باريس في محنة ، ولأن الفرنسيين في كربة ، ولأن هذه الحرب غير الحروب فلا لهو ، ولا عبث ، وعلى الطلاب الأجانب أن يضعوا أنفسهم في خدمة فرنسة ، والمثول أمام دوائر الأمن ، لتختار لهم وظيفتهم الجديدة في الحرب .

ووقف صديقي يحمل الجهاز الواقي من الغاز ، وانتظر الموظف الذي يحدّد له عمله المقبل ، وكان عمله مفرحاً أشد الفرح ! فقد عهد إليه بحمل الموتى والقتلى من الشوارع حين الغارات ونقلهم إلى أقرب سيارة إسعاف . وصديقي يرتجف لذكر الموت ، ورؤية الأموات ، فعزم من يومه على الهرب إلى بلاده ، وهكذا ركب آخر باخرة تمخر البحر إلى الشرق ؛ ووقّع قبل ركوبه ورقة تعهّد فيها بأن يتنازل عن كل تعويض فيما إذا فقدت السفينة أو احترقت ، خلال الغارات المنتظرة .

ومضت السفينة في البحر ، ولكنها وقفت فجأة ، لأن أحد محركيها قد أصيب ، ثم استأنفت جنوحها إلى الشاطىء ، ونزل منها كثير أنفوا متابعة السفر ، لكن صديقي مضى في رحلة القدر وهو منقبض الصدر ، يلفّه الوجل والفزع ، وأفكاره تتأرجح بين ماضيه في الباخرة التي حملته إلى فرنسة في أيام قليلة منذ أربع سنوات ، وبين الباخرة التي تنقله إلى أهله ، في أيام طويلة مخيفة رهيبة . ولكنه بلغ بيروت مع ذلك كله .

فنزل الشاطىء اللبناني وفي جعبته « رفيق الدرب » يحتفظ به كجوهرة يعود بها من الغرب ، فهو أثمن شهاداته كلها ، إنه صديقه الشاعر أنقذ ديوانه من غبار الرفوف ، وسيخرجه بعد حين ليتخذ مكانه بين الأعلام في الدراسات الأدبية .

وأغرب ما فعل صديقي أنه ما كاد يبلغ بيروت حتى أودع فيها محافظه وحقائبه ، التي رافقت شبابه خلال الدراسة ، وفيها كتبه التي حملها معه من الغرب تتحدث باللغات جميعاً .

لقد سافر من بيروت إلى حيفا بالقطار ، وكانت فلسطين كلها بيد أبنائها العرب ، فعاش أقدس أيام حياته في سورية الجنوبية على ما كان يحسّ من آلام ويختلف إلى ذهنه من أشباح ، وخاف على هذه البقية من سيوف العرب .

وسافر بعدها إلى القاهرة عن طريق القنطرة ، فحقق حلماً كان يراوده من قديم بأن يجوس خلال دياره كما جاس في الغرب ، وأضاف إلى ذلك فرحة كبيرة بلقاء صانعي العربية في مصر .

أحلام المستقبل

جلس إليّ صديقي يحدثني :

« أتذكر هذه القصة السينمائية التي استمتعنا بها معاً منذ زمن يسير ، ربع قرن تقريباً ، وكانت الأفلام صامتة ، لكن صمتها كان بليغاً جداً ، يتحدّث في عمق عن أشدّ المشاكل النفسية والإنسانية تعقيداً ، لذلك كان يغشاها الكبار في السنّ أبداً ، وما يدخلها الصغار إلاّ ليخرجوا نادمين ، لفرط « برودتها » وبعدها عن القتل والضرب ! فقد تعوّدنا أن نرى الشجاع يهوي من أعلى الجبل فيتحطّم فرسه ، وينهض وحده لينفض عنه بعض الغبار إن كان قد تلوّث بالغبار ، وتعوّدنا أن نرى القتلى على طول العرض ، فإذا سكن الرصاص أخلدنا إلى الملل والنوم .

أتذكر كيف دلفتَ إلى دار السينما وتبعتُك ، فأنت أشد جرأة مني في غشيان دور المجتمع . وجلسنا على المقاعد الخشبية ، ننظر إلى من فوقنا نظرة طموح ، فهم أعلى أبداً . . . وأطفىء النور ، وبدأت القصة ، فما أحسستُ بوجودك ، ولا أحسستَ بوجودي ، حتى خلتُ أنكَ هربتَ مللاً ، وتصورتَ أنتَ أني خلصتُ نجياً ، ولكنّنا كنا مأخوذين بهذا الشريط ، وفيه الحوار أبداً، ناعماً لذيذاً يشبه الهمس ، يختلف عن حوار المسدسات ، وحديث الرصاص ، وقعقعة السلاح ، فيه النعومة والموسيقى الخافتة ، والأنوار المطفأة ، لا يكاد يخرج من الغرف ، والأبهاء والصالونات ، أشخاص قليلون ، تعرفهم حالاً ولا تنساهم ، ولا يختلط عليك أمر الحبيب والمعشوقة ، لأن الشريط بطيء الحوادث ، لا يحفل بالأحداث الجسام .

كان قصة فتاة بلغت الثامنة عشرة من عمرها ، صحبها أهلها وهم من الفئة البورجوازية إلى مرقص في الحي اللاتيني ، وفيه يجتمع طلبة الجامعة وطالباتها ، تدور في رؤوسهم آمال ، وتلفّ أذهانهم أحلام ، ويعيشون في أفق بعيد ، شديد البعد عن الحاضر ، بل يبلغون المستقبل ، ويدخلون هيكل المجهول فيرسمون على جدرانه سيرة حياتهم المقبلة كما يريدون لا كما يريد القدر . ويلبسون لهذه الليلة لباس العام ، كأنها عرس الدهر وفرحة العمر ، حين تنجلي الحياة أمامهم ، وتفتح مصراعيها الغامضيْن لهم . فقد يسوق القدر فتاة تكون « رفيقة الدرب » ما طال الدرب ، وقد تكون صديقة الأسرة إذا اتصل الحديث وعاشت المحاورة ، وتقابلت الأذواق . والفتاة بدورها قد تجد رجلها ، « رجل الحياة » ، قامةً وذوقاً ، وثقافة ، وهدفاً . والرجل يتسلّح بلسانه ، وحديثه ، وجملة معرفته ، وموهبته ، ليخدع عن نفسه ، أو لينتصر أمام « الفارسة » فيبدو بطل المعركة ، والفتاة تتسلّح بدفتر صغير تسميه « كراسة المرقص » يخطّ اسمه فيه كلّ من يطلب إليها الرقص ليحتجز دوره .

ودار الرقص أمام أعيننا طوال نصف ساعة ، والفتاة تنقلب من فتًى إلى فتًى ، وعلى كراستها توقيعه ، وفي ذهنها حديثه وآماله . فتًى يريد أن يكون طبيباً لأنه في السنة الأولى للطبّ ، وآخر يود أن يكون قاضياً ، وثالث يحبّ أن يكون ضابطاً . وانتهت ليلة الرقص ، وزفّت الفتاة إلى قريب لها ، ومات قبل أن يرى ثمرة العيش والجدّ ، ودخلت في حزن طويل . ثمّ حاولت أن تتعرّف إلى ما كان من أمر زملائها بعد هذا الزمن ، هؤلاء الزملاء الذين تركوا على كراستها أسماءهم وعناوينهم ، والمهن التي يمارسونها بعد الجامعة .

وطافت أرجاء البلد ، وخرجت منه تبحث عن هؤلاء ، فالطبيب غدا في مهنة لا يحسد عليها ، والمحامي أصبح رئيس عصابة ، والضابط أمسى راهباً والفنان ركن إلى حانة فقيرة يعزف ليله على رؤوس العشّاق الموقّتين ، وسمّار

الليالي العابرين . . . »

استمعتُ إلى صديقي ، وقد سبحتُ مع الماضي ، وغرقتُ في أيام الشباب ، وعدتُ القهقرى أتلمس قميصي الملوّن ، وحذائي الرياضي ، وبنطالي القصير ، وأتحسس الدريهمات التي كانت ترنّ في جيبي ، ثمن الرجوع إلى البيت ، قبل أن ينتهي الشريط لئلاّ أثير في نفس أبويّ عاطفة الشكّ فيما أقدمت عليه من دخول « صالة الكبار » آنذاك ، ومشاهدة مناظر الحب ، فقد كانت البراءة تحفّنا ، والعصمة تواكبنا ، والبعد عن المرأة كان كلّ سلاحنا ، لئلاّ نقع ، ولئلاّ نسقط ، فنخسر الدراسة ، فاليوم درس ، وغداً يفعل الله ما يشاء .

وقطع عليّ صديقي سبيل التفكير البعيد ، وقال : لعلّك تذكر هذه القصة التي أعجبتك صامتة ، وأعجبتك متكلّمة ، فهُرعت إليها ثانية في باريس ، وأمسكت بيدي لنذهب إليها ، فنعيد الشباب ونستعيد سني الحداثة . وخرجنا كأننا درجنا سنوات في الماضي ، وجلسنا إلى مقهى في عرض الشارع ، تعزف فيه جوقة كلها من شقراوات النساء قطعاً كلاسيكية ، تشبه الموسيقى التي واكبت القصة . وتحمستَ للموضوع أشدّ التحمس ، وأمسكتَ بالقلم لترسم خطة قصة أخرى .

* * *

أتذكر أنك وعدتَ بأن تحصي على رفاقنا سطور مستقبلهم الذي يريدون، وأن تسجّل بعد ذلك ، بعد سنين ، ما آلت إليه حالهم وما انتظموا فيه من سلك الحياة .

لست أدري كيف أثارت هذه الجلسة في نفسي شعوراً غريباً فقد كنّا نتحلّق في المقهى ، ونبسط صور المستقبل ونلحّ على تحقيقها وتصديقها . ولكنني كنت أضحك ملء شدقيّ لهذا « الطموح » وأحسبه تبجّحاً عجيباً . مع أني كنت أقرّ عيناً وأفرح لهذا الذي يرتضي العلم ديدناً ، والكتب مرجعاً ،

والمكتبة مثابة والمخطوطات رفاقاً .

ما أزال أذكر هذا الزميل الذي كان يتحمّس للدكتاتورية ويرى في « دكتاتور » ألمانية آنذاك رجلاً جديراً بالاحترام ويرى فيه آملاً من آمال العرب ، لأننا كنا في حرب ضد الاستعمار يملأ علينا بيوتنا وأروقة الحكم عندنا ، والرؤوس الكبيرة عندنا كانت تنحني أمام ترجمانه ، وتتصاغر أمام صولجانه . فكنّا نظن ، أو كنتُ مع صديقي أظنُّ أن « حاكم » سورية سيكون زميلي هذا ، فلقد دخل المدرسة الحربية ، ولبس اللباس العسكري ، وتزيّا به أيام الآحاد ، وكنا ننظر إليه كما ينظر الصغار في العيد إلى ألبسة موشّاة جميلة ! ..

وما أزال أذكر الزميل الآخر في كلية الآداب ، وكان يختلف إلى الجامعة في جدّ وسعي ، فإذا جلسنا إلى البحيرة الهادئة ، نشمّ النسيم الصافي بعيداً عن الشوارع ، ألقى إلينا بجملة أهدافه ، وكان هدفه أن يصبح وزيراً فحسب ، وأن يدبّر أمور البلاد ، وأن يدخل في السياسة .

وتلفّت بعد هذين إلى صديقي ، صديقي الذي كان يطوّف ويطوّف في سبيل المعرفة ، فرأيته يحسد أستاذه في الجامعة على بلاغته وبيانه ويطمح إلى مثل أخلاقه ، فهو يعيد على مسمعي دائماً قصّة سمعها من أستاذه . فقد دخل أستاذه ذات مرّة لتدريس القرن السابع عشر ، فضج الطلاّب وأوغلوا في الفوضى ، ينبّهون الأستاذ إلى أنّه مخطىء في القاعة ، فهو يدرّس القرن السادس عشر ، وأن درسه سيكون لمن بعدهم في الساعة التالية ، ولكنّ الأستاذ الكبير صبرَ وسكتَ ، حتى سكنت الضجة فقال :

« يؤسفني أيها الأصدقاء أن أنبئكم بما حدث لزميلي ، فقد انتقل في الليلة الماضية إلى ربّه ، ومن واجب الجامعة أن لا يشغر مكانه موقتاً ، فكلّفتني بدروسه نيابة عنه ، وهو زميلي خلال سنين طويلة ، أعرف خطته وكتبه وآثاره ، وأحفظ عن القرن السابع عشر شيئاً يرضي الجامعيين مؤقتاً حتى

تنتهي الجامعة إلى استقدام أستاذ للمادة . »

وساد القاعة سكون حزين ، ونظر بعض الطلاب إلى بعض إشفاقاً على الأستاذ الجديد ، واحتراماً للراحل العالم ، وصبروا على مضض أول الأمر حتى درج الرجل إلى الكلام في الموضوع ، وراحَ يخطّ على اللوح بعضَ المصادر التي يوصي بالرجوع إليها ، وكان يكتب أسماء المؤلفين لهذه المصادر ، فرأى الطلاب أن اسم الأستاذ الجديد يتكرر في التأليف عن القرن السابع عشر ، حتى عدّوا له ستّة كتب باسمه ، فانتظموا في جلستهم وأصغوا بكلّ جوارحهم ، وأقبلوا إليه يستمعون بكلّ حواسّهم ، حتى لقد كاد ينسيهم عظمَ المصاب بزميله ، وكاد يجرحهم ندماً على ما فرط منهم في حقه وفي الاستخفاف به ، فَظَهر أن الرجل لم يقدم على الكلام في موضوعه إلاّ حين عرف أنّه ألّف ستّة كتب في العصر نفسه ، وموضوعها يختلف عن عصره الذي وقف له حياته . فلمّا خرج لحق كثير من الطلاب به يتعلّقون بأذياله أن يغفر لهم طفولة التفكير والحكم ، ولكنّه قال : إن زميلي الذي استقدمته الجامعة لم يجعل هذا العصر بعض همّه ، وإنّما جعله كل همّه ، فله حقّ الصدارة والتقديم ، وليس في العلم سنّ ، وإنّما التخصّص والإلمام هو كل ما يجب في النجاح .

ونظرتُ إلى وجه صديقي فرأيتهُ قد علته صفرة تشبه الحزنَ والأسى ، فقد أذكرته ساعةً غيرت مجرى حياته ، وزرعت في قلبه الإيمانَ العميقَ بالعلم ، بالعلم الصحيح ، والأستاذ الصحيح . فما رضيَ عن نفسه بعد ذلك ، وعاش قلقاً ، فهو في خوف أبداً ممّا صنع ، وفي أمل كبير ممّا قد يصنع ، لعلّه يبلغ إلى الصورة التي رآها عند أستاذه بالجامعة ، في لحية طويلة ، وقامة تنحني لثقل ما حملت من كتب ، وما قرأتْ من مصادر ، ولسان يتلجلج بالشك خوفاً ممّا تعلّم ، والشوق البعيد العميق إلى ما يريد أن يتعلّم .

والشاطىء بعيد ، والمرسى بعيد ، فمتى يلقي صديقي مرساه عند شاطىء ؟ لقد ضلّ فيما أرى « درب الحياة » الواقعيّة ، وعاش صريع الحلم ، الحلم بالمستقبل الغريب هذا المستقبل الذي يعيش له كهّان العلم ، ورهبان المعرفة ، في جوّ غريب كذلك . فهو في أمّة ناشئة تختصر المراحل ، سريعة ، في عدو كبير ، وفي وثبات متتابعة ، لعلها تبلغ إلى أن تنشىء رجالاً وعلماء وأدباء في وقت قريب سريع ، وحسبت أن صديقي بدأ يفتش عن رفاق الدرب .

ونظرتُ إليه ، فرأيته غارقاً في حلمه ، لا يكاد ينطق ، كأنّه ينتظر الحكم ، وقد عودته أن ألومه أبداً لتقصيره في السّير على سنن الواقعية ، ولسيره في طرق الخيال ، فقد كان ينظر إلى أحسن شوارع الغرب ، فيرى أنّنا أحقّ بها من غيرنا ، يمضي فيها الناس على نظام وسعة وترتيب . وينظر إلى أوسع حدائق الدنيا فيرى أنّنا يجب أن نصنع في بلدنا رئة يتنفس بها الكبار والصغار أيام العطل والراحة .

وينظر إلى دور الكتب العامرة ، يختلف إليها المراجعون في حرية فيقضون ساعات تشبه اللهو العلمي العميق ، والعبث العلمي الصافي ، ويخرجون منها وقد امتلأت أدمغتهم بكثير وكثير ، فيرجو أن يكون لبلدنا مثل هذه الدور . وكان يغشى مجالس الأدباء في جمعياتهم فيستمع إلى «كلوديل » و « بول فاليري » و « موروا » يحاضرون في القصور الفخمة ، وحولهم أصدقاؤهم الأدباء يجرعون من كؤوس أفكارهم وآرائهم في حبّ وتقدير ، وينفتلون إلينا ، نحن الأجانب ، ليقولوا لنا في شيء يشبه الغرور هؤلاء أصدقاؤنا ، كتّاب العالم ، نفخر بوجودهم ، لأنه ذخر لقومنا وشعار لتقدمنا وغنانا . فنحسب أن الحسد ما داخل هذه القلوب ، والغيرة ما اختلفت إلى هذه النفوس ، وصديقي منذ عاش يطمح إلى مثل هؤلاء الأدباء ، يجتمعون فيستمعون إلى أصدقائهم يتحدّثون ، وينفتلون إلينا نحن الأصدقاء في إكبار وإعجاب بما سمعوا .

صديقي يطمح كأنه يعيش – وا أسفاه – في زمان غير زمانه ، فهو يحلم بمستقبل رأى مثله في ماضي غيره من الأمم ، ويودّ لو استطاع أن ينقل ماضي الأمم إلى أمته . لذلك انصرف في الحديث عن رفاق دراسته إلى رفاق بعيدين ، وسكت عن تقليد القصة السينمائية ، فلم يكتب في آمال الرفاق ، ووقف عند واحد منهم أو اثنين ، لأنه لم يرَ في آمال رفاقه ما ينفع في خدمة كتاب أو نفع فن ، وإنما حسب إنهم يطمحون إلى شيء غريب ، لم يتلفت إليه أبداً ، لهذا طمح إلى شيء آخر ، ورسم طريقه ، وخطط لحياته ، فانصرف عن رفاق الدراسة المعاصرين إلى القدماء يتخذهم « رفاق الدرب » .

رفاق الدرب

لم يرض عني صديقي كل الرضا ، فقد رأى أن أسلوبي في التعبير عمّا تحدّث به إليّ قد أخفق في الأداء والتعبير ، فما كانت جملي تُصوّره على الحال التي يحبّها ، وإنما كانت متكلّفة مشدودةً بالبيان ، فهو يتمنّى أن يسمّي نفسه ساذجاً ، ويرجو أن يفهمه أصدقاؤه على سذاجته . وعبثاً حاولتُ أن أسرّيَ عن غضبه عليّ ، وكرهه لأسلوبي في الأدب ، لأنه يفتش عن أسلوب يرسم النبضاتِ والرعشاتِ واللّمساتِ الروحيةَ رسماً حياً ، وأنا بعيد عن الإجادة في هذا الرسم وفي هذا التصوير . وصديقي سريع الغضب سريع الرضا، يخاصم بلسانه ؛ ووراء فكيه ابتسامة لجملة يسمعها أو إشارة رضيّة يلمحها . فالعبارة عنده لها تأثير السحر ، وأظن أنه يؤثر أن يسمع الكلام الطيّب ولو كان بعيداً عن الصّدق ، ويتمنّى أن يرى الإشارة الجميلة ولو كانت منطلقة عن تمثيل كاذب . ويعشقُ الجمال الحلوَ ولو كان صاحبه خالياً من معاني العمق . وهنا سرّ السذاجة عند صديقي . يصدّق ما يسمع وما يرى ، ويؤمن في سرعة مُذهلة ليكفر بهذا كله في سرعة مذهلة كذلك .

وقد جنتْ عليه سذاجته ، وجرّت عليه مشاكلَ كثيرة ، منذ حداثة سنه ، فآمن بالأشباح الحلوة تهبط عليه في أحلامه نائماً ومستيقظاً ، وعشقها في حنايا ضلوعه ، واحتفظ بها وروى عنها ، حتى كأنها تعيش معه ، وصدّقه أناس لذلك وكذّبه آخرون . ولكن هذا لا يمنع أن يكون صدره صندوق صور شتى يخرجها فيعبث بها ، و يعيدها لتستقرَّ أبداً . وكم اختلط واقعه بأحلامه وامتزج ما رآه حقاً بما حلم به فعلاً . وزال عنه شعور جميل هو شعور الدهشة ،

فأصبح يظن أن الذي يراه الآن قد حلم به من قبل أو مرَّ به طيفه منذ زمان بعيد.

وهذه السذاجة ساقته إلى أن يألف كلَّ شيء يراه منذ المرة الأولى إن كانت صورته قريبة إلى قلبه ، ويكره كل شيء يراه منذ المرة الأولى إن كانت صورته كريهة إلى قلبه . ولذلك ألف للمرة الأولى ، ونَفَر كذلك للمرة الأولى ! وهو لا يدري سبباً لما يألف ولما يكره . وكان ذلك يسبّب له عنتاً ، ويبعث عليه النقد حين يُسأل عن ذلك فلا يجيب ، لأنه لا يجد جواباً منطقياً ، وإنما يردّه إلى البداهة في نظرته ، يحبّ من غير سبب ظاهر معلّل ، ويكره من غير سبب ظاهر معلّل ، ويجرّ عليه ذلك عداوة الناس ونقد الأصدقاء وكثيراً ما تعلّق بالحديث المأثور : « الأرواح جنود مجنّدة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف . . . » وما صدّقتُه مرة واحدة ، لهذه الحيرة في الأحكام ، لأنه كان ينقلب صديقاً بعد قليل لمن كان يكره ، وينقلب عدوّاً بعد قليل لمن كان يحبّ ، وكنتُ أرميه دائماً بالتسرّع في أحكامه . .

كان ذلك شأنه مع من يلقى رجالاً ونساء ، يفتح صدره الواسع لآماله ، وينفض هذه الآمال لمن يلقى ، ويرسم أمانيه لمن يظنُّ به الصداقةَ والحبّ : فلا يتروّى ، ولا يحسبُ حساباً لشكّ وريبة ، لأنه ما كان يعرف الشكَّ والريبة وإنما كان حسابُ حبّه في دقائق يسيرةٍ حساباً سهلاً صافياً ، لا تقييد فيه ، لا يطلب إلى غيره تضحية أو جهداً أو عملاً أو يداً ، وإنما يطلب وفاء على الزمان ، كأنّه يفتّش عن « رفاق الدرب » يقطع معهم الحياة ، في ابتسام من غير كدر ، لا يشغله مال ، ولا تكدره حاجة ، فلم يكن في أول دهره يسأل عن مال أو حاجة ، لأنه كان قانعاً باليسير ، يرتوي بالقليل من الماء إذا كان صافياً ، والنزر الضئيل من الغذاء إذا كان شهياً ، وكان يحسب أن الحياة تصفو بالحب والصداقة والوفاء ، ولكنَّ أمره كان يحيّرني أبداً .

كنتُ أراه يسير أول الدرب مع صديق فألمحُ في عينيه أنوارَ السرور

تضيء كل وجهه ، وأشعر كأن السعادة فُتِحت له ولن تُغلَق ، فإذا مضى الزمن شعرتُ بأن الأنوار أطفئت وأن وجهه تجهّم ، فأفهم بأنه طلّق « رفيق الدرب » ، وظلّ وحده في الطريق وحيداً ، فأتألّم للصديق ، وأرى أنه خُدع مرة ومرة ، وأنّه لن يحسن الاختيار مرّة . وكان هذا هيّناً سهلاً بالنسبة لأصدقائه من الرجال ، أما أصدقاؤه من الجنس الآخر فقد كان عسيراً كلّ العسر ، وكنا ، من بعيد ، نرميه بالتقلّب في معاشرتهن ، وكثيرات منهن على جانب من الجمال يغيظ حسّاده . وقد حكمنا عليه أحكاماً سرت بيننا ما كان يستمع إليها إلاّ بأذن واحدة ، لأنه لا يجد تفسيراً لمواقفه ، ولا نجد جواباً عنده يشرح الصّدر . وعُرف بيننا بأنّه يألف في سرعة ، فلا ضمان ولا أمان . وكنّا نحسب أنه يجري مع الخيال في هذا وهذا ، ويمضي وراء الإلهام ليكون أديباً في يوم من الأيام ، يقلّد أدباء الغرب الذين كان يقرأ لهم حقاً ، ويتذوّق بعض ما يقرأ حقاً . . .

ولقد حسبنا أنه لن يقف عند صديق ولن يتمسك برفيق أبداً في « درب الحياة » ، وكان يحيّرنا في أمره ، فندعو له أن يشفى من دائه .

وإني لأذكر ، أنه هرب فجأة من باريس ، فترك الحي اللاتيني الذي كان يعشقه ، وهجر بحيرة اللوكسمبورغ التي كان يسكن إليها في الظهيرة ، وترك مسارح باريس التي كان يرودها في أكثر أماسيه . وظل خبره مكتوماً حتى فضحته بطاقات أرسلها إلى بعضنا مبتسرة ، موجزة ، يخبر فيها أنه يتنقل من حاضرة إلى حاضرة ، وأنه فرح بما يصطاد ! . .

ولم نكن ندري أنه خرج عن صحبة الناس إلى صحبة الكتاب ، وتعلّق بالمخطوطات ، فقد أفسده « مؤتمر المستشرقين » فيما كنا نرى ، وأرسل هؤلاء الغربيون في ذهنه أن العالم العربي فقير بما يملك من مطبوعات ، وأنه لم يقف بعد على أهم ما في « تراث العرب » ، فإذا وقف عليه ازداد به إعجاباً

وكلفاً ، وتعلّق به وحده ، فما يتلفّت إلى تأليف لأن القدماء كتبوا في كل شيء ، وما يتلفّت إلى ترجمة عن الآداب الغربية ، لأن من واجب هذه الآداب نفسها أن تترجم عن العربية روائعها وعيونها .

وأصبحنا نحسب أن الصديق ابتلى بداء جديد ، وأنه راح يقلّد المستشرقين تقليداً أعمى ، فلن يكتب قصة ، ولن ينظم شعراً ، ولن يؤلف دراسة ، وإنما يختار عيشه المقبل بين المخطوطات . وأنه سيجعل منها « رفاق الدرب » حقاً ، وربما قضى العمر كلّه وهو لم ينل من رضاها إلاّ كما نال القدماء من معاصريهم.

ورحنا نتهامس عنه في إشفاق عميق ، ونتساءل عن رفاق دربه ، ونتسقّط أخباره مع مخطوطاته ، فقد طاف من أجلها ألمانية وهولندة حين كنا في باريس نستمتع بالأنوار والظلال ، وهو يرسل البطاقات فرحاً باصطياد النسخ الباقية لشاعره الذي سماه « رفيق الدرب » حقاً ، وظللنا نضحك لانتصاراته ، ونقول إنّه يكنّي عن المخطوطات « بالأشباح » التي يحبّها ، ويألفها في « درب الشوك » . وما نصدّق أن صاحبنا الذي أولع بالصخر قديماً فعاد له صديقاً ، وما نؤمن أنه وقد ألِف التصوير فما تفلت منه زاوية لبحيرة ، أو ركن لحديقة ، أو تمثال لجبّار أو فنّان إلاّ اصطاده ، قد اختار السّفر والرحيل في سبيل « رفاق الدرب » الأموات ! . .

وبعد أن طوّف حواضر صغيرة وكبيرة ظننتُ أن صديقي قد غيّر له ، واكتفى من رحلته ، وشبع من تجربته ، وغدا أبعدَ ما يكون عن الخيال و « الأشباح » . ولكنّه أمسك بي ليلة كاملة ليريني الصور ، صور النسخ الجميلة ، صور الأشباح التي رأى ، والتماثيل التي أحبّ ، والزوايا التي ألف ، وهو يحفظها حفظاً ، ويشرح كل زاوية عنها ويفسّر كل ركن ، كما كان يحفظ بعض المعلقات العشر وقصائد القدماء ، وتعليل إنشادها ، وسبب نظمها ، فكأنه تلميذ الزوزني والتبريزي والشنقيطي ، يعلّق ، ويقول فما ينتهي من

حبّ ما يقول ، ومن عشق ما يشرح . ووضع أمامي جملةً من النسخ كتبها بخطه عن شاعره ، ووضع على الغلاف العربي بخطّه الفارسي الذي يحبّه حبّاً جمّاً بيتين من الشعر :

شريتُك من دَهري بذي الناس كلّهم فلا أنا مبخوسٌ ولا الدهرُ باخسُ
وملكتكَ النفسَ النّفيسةَ طـــائعاً وتوهَبُ للمَولى النّفوسُ النفائسُ

ونظر إليّ ، فرأى أني مشدوه لا أكاد أصدّق أن رفيقي استطاع أن يجد « رفيق الدرب » في الأوراق القديمة وأنه أحبها من غير حدود ، وتعلّق بشاعر وهبَه كلّ ما عنده ، واختاره دون سواه .

ومع ذلك فرحتُ فرحاً عظيماً ، فقد استقرّ صديقي على حبّ ، وآمن بشخص واحد ، فما يبدّله ولا يغيّره ؛ وظننتُ أن حياته إلى استقرار بعد هذا ، وأنه وجد ضالته في رجل مات منذ ألف عام . فقد وجد في الأشباح البعيدة البعيدة شبحاً يحب فما يلمح عنده شكاً ولا ريبة ، يزجيه الحب ولا ينتظر منه الأجر ، وهذا يقنعه ويرضيه ، لأنه ما طلب أجر الحب والوفاء عند الأحياء ، فانصرف إلى الأموات . وهذا ديدنه فهو خياليّ ، لا ينفع فيه نصح.

وأسفت لأن صديقي راح يعيش في كهف بعيد ، فأصبح يكتفي بهمسات الذين ماتوا ، وتأملات الأفكار القديمة يصبح ويمسي مع صديقه « رفيق الدرب » فهو لن ينفك عنه . وبقي صديقي في جوه بعيداً ، كأنّه دخل جوّ السّحر ، فلا يرى ولا يُرى ، ولا يعاشر ولا يجتمع ، مكتفياً بصديقه الألفي ، لأنه لم يعد يؤمن « برفاق الدرب » الأحياء ، فكلّ منهم في رأيه يغرف من ينبوع ، أو ينحت في عمارة ، أو يأمل في لقب ، أو يمضي وراء رتبة ، وهو وحده ينظر فلا يشتهي أمراً ، لأنه في شغل شاغل برفيق الدرب . ولقد سمعت أنه انقلب من رفيقه القديم ليعلق برفيق قديم آخر . وهكذا ألف العيش بعد ذلك

بين الأموات ، يُسرُّ إليهم ، ويفي لحياتهم ، ويخلص لذكرياتهم ، يحصيها ويجمعها ، كما يجمعُ الزهرُ أنفاس العشّاق ، يفخرُ بأن الذين مرّوا به ، ووقفوا عنده ، كانت نفوسهم تحترق وقلوبهم تكتوي ، والزهر حيالهم ساهر ، يكتفي بثمن العيش « حباً » يجري بقربه ، و « نجوى » تتعلّق بأذنيه فيسكر بالهوى ، وينتشي بالنجوى .

* * *

وهكذا أصبح صديقي بعد عودته يختار « رفاق الدرب » من هؤلاء الأموات يحقق آثارهم وينشر أخبارهم ويطبعهم كأنهم معاصرون حتى جعل منهم رفاً واحداً ، يلمسه صباحاً ويلمسه مساء ، ويضحك لهم إذا تكشّر الزمان ، ويأنس بهم إذا ادلهمّ وجهُ الدهر ، فقد باع حياته من أجل حياتهم ، حياة هؤلاء « الرفاق » . وعرف أنه لن يستطيع العيش مع الأحياء يبدّلون في كل ساعة ثوباً ، وفي كل يوم وجهاً ، ومن كل غرض يصوغون ما يصوغون ، يحيون لأن العيش كتب على كثير منهم ، من غير أن يدركوا سرّ العيش ، ويمضون لأن الحياة تدفعهم إلى أي طريق لا يختارونها قد تزري وقد ترفع ، وقد تحيي وقد تميت ، ولكنّها طريقهم طريق « الأحياء » ، أما هو فاختار طريق الأموات الخالدين .

ولعلّي فهمت بعد هذا ، لماذا اختار صديقي هذا « الدرب » لنفسه ، وآثره لعيشه وحياته ، إنه يمضي كلّ حياته مع هؤلاء « الأشباح » لأنهم مضوا أوفياء له ، لم يؤذوه في عيشه ، ولم يطلقوا ألسنتهم في ذمّه ، ولم يرموه بتقصير أو عقوق ، يرضون بما يصنع بهم ، يقلّبهم في رفق ، ويقرأهم في عشق ، ويلتهم أنباء صحتهم في كل ساعة ، حتى يأذن الله إلى آخر ساعة ! . .

إنهم « رفاق الدرب » درب حياته كلها .

أدباء القاهرة

دخل القاهرة ، وفي رأسه ذكريات قديمة جمعها من قراءاته الملحّة في مجلات المصوّر ، والاثنين ، والفكاهة ، والنيل ، والأسبوع ، والسياسة الأسبوعية ، والفتح . فقد كان يترصد وصولها إلى بلده ، ويرى فيها ينابيع معرفته الفتية ، يأخذ عنها كل فنّ ويتابع كلّ مجال ، حتى لكأنه يعيش في القاهرة ، مع أدبائها ، وفنانيها ، ورجال السياسة فيها ، ودفعته هذه الصحف إلى أن يحترف الصحافة منذ نشأته ، فأصبح يراسل جريدة « السياسة » ومحمد حسين هيكل ، ويعتز بأنها نشرت له مقالاته وهو فتى .

فلما حلّ في « العتبة الخضراء » لقي أول ما لقي صديقه الأستاذ محمود تيمور ، وكان يتصل به ويكاتبه ، ويتلقّى قصصه ، وأخباره ، وصوره . فلم يحس أنه غريب عن مصر ، ولم يشعر أن البلاد جديدة عليه ، وأضحى وكأنه يعرف كل هؤلاء الأدباء . وكان الأدباء يعجبون لوقوفه على كل دقيقة من أخبارهم وآثارهم ومقالاتهم ، ويعتزون بلقائه ، ويرون فيه دماً جديداً في الأدب العربي ، فقد كانوا يكبرون « السوربون » وطلاب السوربون ، ويقيسون هؤلاء على ما وجدوا عند الدكتور طه حسين .

وكان كل فريق منهم يجتذبه ويكرمه ويقرّبه ، فما يزور فريقاً حتى ينقلب إلى زيارة فريق آخر ، ودليله إلى هذه الطوائف الأدبية الأديب محمد أمين حسونة . فقد كان يدلّه على ما بين الأدباء من تنافس وتزاحم بين اللاتين والسكسونيين وما يقع بينهم من وشائج وروابط ، أو تخاصم وتقاطع . وكان صديقي يعرف أن هذا دليل النشاط في القاهرة ، يشبه ما رأى في باريس خلال سنين .

وكان يقف على أسرار هذا النشاط ، ويعرف أسباب التأليف والكتابة ، وقصّة المقالات والمؤلفات التي تصدر في القاهرة ، وما كانت قليلة ولا كانت هيّنة ، وإنما كان أصحابها يعرفون أن الدنيا العربية كلّها تنتظر ما يكتبون في المجلات ، وما ينشرون من كتب . فقد كانت هذه الدنيا العربية ضئيلة الإنتاج ، قليلة التأليف ، تشارك في قليل ، وتسعى إلى التقليد غالباً ، وهي محرومة من دور النشر ، تفتقر إلى المطابع المتمرسة والأسواق الرائجة .

كان صديقي يجد في القاهرة سوقاً للكتاب العربي ، ومعرضاً للفكر ، وصورة للتيارات المختلفة والمدارس المتعددة ، وكان يعيش سحابة يومه مع هذه التيارات والمدارس ، في الصباح وفي المساء ، وفي المقاهي والمنازل ، فيشهد المجالس والمحاورات ، ويستوحي ويستلهم ، ويفهم ، فكأنه في محاضرات دائمة ، يستمع إليها بأذنيه ويغرف منها بعينيه ، وكأنه في باريس من جديد عاد طالباً ، يتحفّز لجمع المصادر ثمّ التأليف ، يرى « المصنع » وهو يعمل ، فيتعلّم كيف ينشىء مصنعاً ، وكيف يكتب وكيف يؤلف ! . .

إن صديقي مدين لهذه الزيارات والمجتمعات التي لم يملّ منها ، لأنها أصبحت كل شيء ، فقد كان يغدو مع الصباح إلى الجامعة ، ويستمع إلى محاضرات أعلام الأدب ، فيصغي إلى دروس الدكتور طه حسين في النقائض ، وصفحات الحياة العقلية عند أحمد أمين ، ودراسة الأدب الفارسي عند عبد الوهاب عزام .

وكان لكل من هؤلاء الأساتذة مجالس ومريدون ، فمجالس الدكتور طه حسين في منزله بالزمالك ، تجتمع إليها فئة مترفة وأخرى يوجهها بآرائه وتوجيهاته ، يتحدث فيها عن الطرق والأساليب ، ويخرج الشباب وقد فطن إلى الخير في التجديد ، والبعد عن التقليد وكان الدكتور طه عدوّاً لمذهب دار العلوم ، لا يرى عنده الخير ، ولا في أصحابه تفوّقاً في ابتكاره ، أو نجاحاً في معالجة

موضوع ، وقد صارح بذلك في مقدمته للشعر الجاهلي ، وما تزال القاهرة خلال الحرب تعيش على أصداء هذا النضال الأدبي بين المذهبين ، مذهب الجامعة المصرية ، ومذهب دار العلوم .

ولذلك كان جماعة دار العلوم يغضبون من هذا الناقد الجديد ، ومن طلابه الثائرين ، ويرون في حملاته عليهم بعد حملاته على الأزهر ظلماً لا يقبلون به ، فهم أقوى صياغة في العبارة ، وأشد فهماً لفقه اللّغة ، وأبعد في التمكن من ذوق البيان العربي . ولا يعترفون بحال من الأحوال أن المنهج ينقصهم وأن الخطة مفقودة في كتابتهم ، وأنهم يعيشون على هامش كتب الأدب القديمة يشرحونها من جديد ويسهلون قراءتها للشباب . وكان صديقي يعيش في كل صباح ساعات مع جماعة من دار العلوم ، فيهم الأستاذ عبد السلام هارون ، ومصطفى السقا ، وإبراهيم الابياري ، لأنهم يعملون بدار الكتب المصرية في باب الخلق ، لنشر آثار أبي العلاء المعري ، وفاق توجيه الدكتور طه حسين ، وهذا من أعجب ما رآه صديقي عند هؤلاء الذين يضعون كل جهودهم في خدمة الطريقة التي تريدها الجامعة المصرية .

وكانت دراسات الأساتذة من دار العلوم لا تخرج في نظر الجامعيين الجدد عن تكرار لمصادر القدماء ، وإعادة لما قالوا في أسلوب جديد من غير ابتكار واستنتاج أو خطة غربية .

ولم يكن صديقي يفارق هذه التيارات المتضاربة بين رواد الجامعة المصرية وأساتذة دار العلوم ، حتى يهبّ مع صديقه « حسونة » إلى دار الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، فيجد الدار الصغيرة بمصر الجديدة قد اكتظت بالشباب المتفتح على النور والمعرفة والتساؤل . وكل من هؤلاء الشباب كان يطرح مشكلته الأدبية والسياسية والفكرية على بساط البحث ، والعملاق الكبير يجد لها الحل بواسع ثقافته ، وعميق معرفته ، وكثرة قراءاته ، فتردّد جدران الدار

أسماء أجنبية ، وعناوين أجنبية ، فكأن العقاد افتتح جامعة راقية للنقد ، تتحلى بالحرية ، وتتسلّح بالتشكّك في النقد ، وتؤمن بالتطور والتجديد . وكان صوت العقاد الجهوري يقطع النقاش ، وابتسامته الحلوة ، وهو في مباذله ، والقبعة على رأسه لا يتكلّف في ثيابه ، ولا يتعمّل في آرائه . فقد كان دليلاً ، ومشعلاً ، وكنزاً ، وكان جيلاً من الكبرياء والإباء ، بل كان أمة وحده في الشموخ والسموّ ، لا ينحني أمام العاصفة ؛ ولا يداجي في سبيل كسب ، فهو أفقر من أن يملك بيتاً مترفاً ، وأبعد من أن يتزوّج أو يتقيّد بامرأة ، لأنه لا يحب القيود ولا السّدود ، فكان أدبه صورة لحياته ، بل كان صورة لأمة تتحرّر ، لو كانت كلّها تتّبع زعيم الفكر العربي في القرن العشرين .

وإذا كان صديقي يسرّ بمجالس الدكتور طه حسين الناعمة ، وجلسائه الذين يستمعون غالباً ، ويحسّ أن الرجل يصدر عن ترف في النقد ، وحبّ لتقليد الغرب ، وشعور بتقليب وجوه الرأي ، فقد كان يعجب بمجالس العقاد ، وصراحته ، وصرامته ، وعنفوانه . وكان يرى أن القاهرة والعالم العربي تحتاج إلى اللاتينيين والسكسونيين معاً ، وأن الأدب العربي يجب أن يخلق من طريقتيهما طريقاً وسطاً يسلكه في الدراسة والكتابة .

والعجيب أن صديقي دخل في هذا العراك ، فقد صدر للدكتور طه حسين كتاب « عليّ وبنوه » وظهر للعقاد كتاب عن « الإمام عليّ » ووقف جمهور الكتّاب بينهما ، فريق يفضل كتاب طه ، وفريق يؤثر كتاب العقاد . وأخذ صديقي بمجالس الدكتور طه ، وحديثه وكتابه ، فصبّ إعجابه في جريدة « البورص » وكانت رائجة . ولم يعرف أنّه سيكون في المستقبل صديقاً للعقاد ، وأنّه سيتلقى من هذا العملاق « مذكراته » الشخصية ، ومقالات عن حياته خاصة به ، وحسب أن الناس كتموا خبر المقالة الفرنسية التي كتبها في تفضيل طه حسين ، فإن لم يكن كذلك ، فالعقاد يتفرّد في الكتّاب العرب

بهذه الأخلاق المثالية ، فلا يعاتب ولا ينقد ولا يذكّر ، ولا يحقد ، كما يفعل غيره ، على كثرة اللقاءات في المجمع وفي المجلس الأعلى وفي الرسائل .

وكان صديقي يتّصل بالأستاذ توفيق الحكيم طول إقامته في القاهرة ، فيجلس إليه قرب « البنك الأهلي » ، ومسافة المقهى لا تزيد على موضع لجلوس ثلاثة ، والناس يمرّون ، و « الحكيم » يحدّق ويشرد ، ويضيع ويعود ، ويكاد لا ينطق إلاّ بقليل ، فكأنّه يعدّ في صدره لرواية أو قصّة أو مسرحية ، ويجعل من المارّة شخوصاً يحشرها وهياكل يرسلها في كتبه التي أربت على كلّ عدد ، حتى ما يحصيها الدارسون . وهو يبتسم لكل ناقد ، ولا يبالي بما يقال ، بل لا يكاد يرسل رأياً في النقد الأدبي ، لأنّه وحده في أسلوبه القصصي الجديد ، ولا يشاركه حينذاك في فن القصة والتأليف فيها إلاّ الأستاذ محمود تيمور .

وأمّا « محمود تيمور » فكان يدعو صديقي ، مرّة في كل فترة ، ويولم لهذه المرّة ويجمع ويحشد ، ويجعل من « مطعم الشيمي » مائدة لضيوفه من الأصدقاء والمريدين والمعجبين ، يتحدّث في رقة ، ويستمع في تهذيب ، ويكاد لا ينقد كذلك ، ويبتسم ، بل ويضحك ملء رئتيه للنكتة ، وينظر إلى الأشياء والأشخاص ، نظرة الذين فهموا الأدباء والمتأدبين . وهو يعجب بالأدباء جميعاً ، فلا يغضب أديباً ناشئاً ، أو كاتباً متعالياً ، ويهدي كتبه وساعات فراغه ، وصوره ، لكلّ من يعرض عليه ودّه وصداقته ، فهو سهل الحياة والعيش ، مترف حتى في أدبه وفي الشخوص التي يرسمها في قصصه .

وكان محمود تيمور يصحب صديقي إلى الأدباء والشعراء ، فقد جمعه بالشاعر الدكتور إبراهيم ناجي ، وسار به إلى عيادته في « سكة الحديد » بباب الحديد ، وهو عاكف على أمراض الموظفين وأسرهم ، ولكنّه كان يعنى

بالقوافي السليمة ، والمعاني الرفيعة ، يقرض الشعر على أحدث أسلوب ، فيجدّد في اللفظة والفكرة ، وديوانه غاصّ بالأفكار العالية ، التي ترفعه إلى مصاف الشعراء المجيدين . وقد أعجب بصديقي ، فأهداه صورته كبيرة ملونة وقال فيها :

« هادى » تـذكرني إذا ما اشتقت عن بعد لِيا
ناجاك رسمي كلّما أطرقت تذكر « ناجيا »

وجعلها عربون ودّ وزيارات في عيادته وفي بيته على تخوم الصحراء .

وسار صديقي مع « تيمور » إلى سلامة موسى في نادي الشبان المسيحيين ، وسمع منه ، وأعجب به وبعقله وتفكيره . كما سار إلى علي محمود طه ، فوجد الحديث العذب ، والشاعرية الفذة والروح المرحة ، وعرف أن الشاعر المهندس كان يعيش عيشه الواسع ، من غير رقيب أو حدود ، لا يفرّط في حق نفسه ، ولا تفوته فرص الحياة ، فهي وا أسفاه قصيرة مسرعة ، عرفها الشاعر على حقيقتها كأنّه يتوقّع أن يموت مبكراً قبل أن يجرع كأس الحياة واللّذة حتى ثمالتها .

ولم يفت صديقي أن يزور أحمد رامي وأن يساهره في لياليه ، وأن يلقى الأدباء والأساتذة الذين أصبحوا شيئاً مذكوراً ، وأن يطوف بالعلماء كالشيخ أحمد شاكر وشقيقه محمود شاكر ، فقد أفاد من مجالسهما ما يفيد المتعلم من مجالس العلماء . وخلص من القاهرة بأصدقاء أوفياء ، كانوا خير من يلقى ، وخير من يعاشر ، كالدكتور شوقي ضيف والدكتور سيد نوفل ، ومصطفى السحرتي ، وحسن عبد الوهاب ، وحسن كامل الصيرفي ، وسيّد صقر ، ومراد كامل ، وأبو الفضل إبراهيم وغيرهم ممّا ذكره قبل قليل ، وممّا يعجزه أن يورد أو يسرد ! . .

كان صديقي يعتز بزياراته للقاهرة ، يحمل منها كتباً كثيرة تهدى إليه ، وصوراً عديدة ما يزال يحتفظ بها ويقرؤها ويعيد قراءتها مراراً ، فما يذكر عيشاً أشهى ، ولا مجلساً أعطر ، ولا سعادة أتم ، فكأن الزمان وقف دورته عند هؤلاء الأدباء ، فما تجاوزهم إلى غيرهم ، فهم كل شيء في تراث العربية للقرن العشرين ، جمعوا كل ما يحتاج إليه القرن ، ونهضوا به ، فكأنّهم رجال النهضة حقاً لهذا القرن .

ويحزّ في نفس صديقي أنّه لم يرَ كتاباً عميقاً يصف هذا الأدب في جملته ، ولم يقرأ دراسة واسعة في رسم هؤلاء الشعراء والناثرين ، فكأنّهم ضاعوا في زحمة « الجديد » ، وما أثار المغرضون من غبار حول الجديد ، ولكنّهم أحياء في نظر صديقي خالدون ، يتحدث إليهم كلّ ساعة ، يفهم عنهم ويفهمون عنه ، كأنّه يراهم الساعة في مباذلهم خلال بيوتهم وفي المقاهي وفي المكاتب ، فلا يرى أجمل مظهراً ، ولا يسمع بألطف حديثاً ، ولا أعمق منهم إشارة .

ولقد عاد من القاهرة مراراً وهو يتوق إلى هؤلاء الأدباء ، فقد نزل منهم منزلة الصديق حقاً ، لا يرى عندهم مراسم في الحديث والزيارات ، ولا يجد حجاباً بينهم وبينه في النظر إلى ما حوله ، كأنّه عرف القاهرة منذ ولادته ، يتمسكون به ، ويرجون بقاءه بينهم ، فلم يذكر أنّه دخل معهم في خصام أو تنافس أو حقد .

وسيحفظ صديقي لهؤلاء الأدباء طيب الذكرى ، ويحتفظ بالرسائل والكتب ما عاش ، فهي ذخر أيامه وكنز حياته ، لا يفرق بين رسائل العقاد تحمل إليه بلاغته وحبّه ومثاليته ، ورسائل إخوانه بالمجلس الأعلى أو المجمع العلمي أو دار الكتب المصرية ، فهو يلفّها في رفق ، ويطوي مؤلفاتهم في حرص وجشع لأنها تذكره بأدب العمر ، وربيع الحياة ، وانتصار الصداقة .

وأمّا هؤلاء الذين قدّموا له المخطوطات ونضروا بين يديه لقاءها ، وصوّروا صفحاتها في يسر ، وجلبوها من مخابئها الأمينة التي أخلدت إليها أوائل الحرب ، فلهم من صديقي صفحات وصفحات ، جعلها في مقدمات كتبه ، اعترف فيها بالفضل لأهله ، وشكر الأيادي التي أسديت إليه ، فلولاهم ما مثل كتاب من مؤلفاته أمام المطبعة ، ولولاهم ما حمد السرى في ليل الدرب الشائك الطويل .

ولن ينسى صديقي هذه المجلات الأدبية التي كانت تكمل الأثر البليغ في نفوس المتأدبين وعشاق الكلمة الرفيعة ، فقد انتشرت في القاهرة وراجت أكثر من رواج الكتب ، وأصبحت دورها مراد الأدباء والكتاب ، فكم هجم صديقي على الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فاستمع واستمع ، ولبث ينظر ويرقب حتى رأى الزيات يكتب مقالاته الأولى في الرسالة من غير تكلف ، ويرسلها من غير ونى ، كما كان يظن كثير من الأدباء المنقطعين في بلاد العرب البعيدة ، فقد ألف الزيات هذه العبارات الفخمة والمزاوجة بين الجمل حتى أصبحت عادية عنده ، يجعلها في سرعة وفي ارتجال كلّما حرّك القلم أو أرسل المقال ، وكم كتب ، وكم ترك ، وكم ترجم وكم أفاد أساليب المتأدبين والمنشئين .

وأمّا أحمد أمين فكانت « الثقافة » عنده تجتمع مع وظيفته في الجامعة العربية ، فيهيء لها ، ويعدّ لأعدادها ، كما يعد لمنشوراته وتحقيقاته ، فيجمع بين العمل والتأليف ، وهي مزية ندر أن تجتمع لكاتب محقق أو أديب محاضر ، وكان صديقي يعجب بأناة الرجل العالم ، وينتظر آراءه في صبر وفي إعجاب كبير ، وهو في كتاباته كما هو في أحاديثه حليم حكيم يتّسم بالعمق والدقة في الأسلوب والأحكام .

على شطئان النيل

كان صديقي يطيل التحدّث عن القاهرة وأدبائها كلّما خلا إلى جلسائه من الأدباء، فقد كان يقضي أشهر الشتاء في القاهرة هرباً من برد بلاده، وسعياً وراء كنوز دار الكتب المصرية، ففيها خزائن العلماء أمثال طلعت، مصطفى فاضل، أحمد تيمور، أحمد زكي، وكلّها تنتظر المطالع المحقّق، وليس في الدار من يقف لها كلّها فقد انصرفت اللّجان إلى تحقيق كتب في أجزاء عديدة شاقة.

ولقد انصرف صديقي إلى عمله في ركن من أركان الدار على مقربة من هذه اللّجان، وألف أصحابها، وامتد بينه وبينهم حبل الحديث عن المخطوطات العربية في بلاده، وتركيا وأوربة، وعمل المستشرقين لها ودراساتهم فيها. وعرف هولاء الباحثون أن هذا الوافد الجديد لن ينافسهم في كتاب، ولن يسابقهم إلى منصب في الدولة، فقد أعلن أنّه عضو في معهد الأبحاث في دمشق، وأنّه في مهمة لجمع الشعراء الحمدانيين، بعد أن جمع مؤرخي الشام، فسبيله غير سبيل هؤلاء الأصدقاء الجدد.

وقويت الصداقة بينه وبين هؤلاء الباحثين، وتعرف إلى مشكلاتهم وواقعهم، فرأى طرفاً من أزمات الكاتب العربي والباحث والأديب، وعرف طرفاً من الضحك الطويل والنكات المتواصلة، وشهد جانباً كبيراً من الإيناس والبشاشة والدماثة، ونسيان الذات، وتغليب التفاؤل الظاهر، وتغليب الكلام الهادىء اللطيف، وانسجم واندمج، كما كان ينسجم مع الغربيين الباحثين، لأنّه لا يجد لنفسه موضعاً في المشاكل، فليس طرفاً في أي تنافس قد يضطرم

من أجل كتاب أو منصب ، والحياة ، كل حياة تتطلب ثمناً ، وتعترضها عقبات . . .

ولقد كانت رسائل صديقي إليّ من القاهرة لا تذكر قلقاً ولا تعباً ، كأنّه ألف العيش في كل شتاء ، فاتخذ داراً ، وسكن قرب النيل ، يروّح عن نفسه بهذا البحر — بحر النيل — فينظر إليه كما كان ينظر إلى البحار ، وينسى متاعبه كلّما لجأ إليه ، وكان كثيراً ما يلجأ إليه ، في الظهيرة وفي المساء ، وفي الليل . فيجد أن الأجانب قد استغلّوه فأوسعوه استغلالاً . فهو ينتقل من حديقة الأندلس إلى مقهى « كازينور » أو يجلس قبالة سميراميس ، وبينه وبين هذا الفندق تفصل مياه عريضة ، يذكر صديقي أنّه دعا الأستاذ بروفنسال مرّة ، وبرنارد لويس مرّة ، فرأى على شفتيهما الإعجاب والانشراح حتى لقد قال بروفنسال إنّه يفضل النيل على نهر السين ، ولا يجد سبيلاً للموازنة بين سعة النهرين . وعظمة النيل تفيض على كل عظمة ، ولذلك ما رأى أنّه مخدوع حين يخلد أكثر ساعاته إلى هذا النهر .

كان يأكل وحده في الظهيرة على شاطئه ، فيرى القوارب النهرية الكبيرة تحمل من أقصى مصر ما تحمل ، وتعبر وسط القاهرة من غير أن تجد عناء في العبور . ويرى القوارب الصغيرة تحمل العشاق من الأجانب يصنعون هنا كما يصنعون هناك في غابة بولونيا بباريس ، وتيرغارتن ببرلين ، أو بحيرة ليمان في جنيف . فيحس أنّه عاد من جديد إلى الغرب .

وكثيراً ما حمل إخوانه إلى هذا الجو الهادىء الشاعري ، فقضى معهم وهناً من الليل ، أوقطعاً من النهار ، يسمع ويتعلّم ، لأنّه كان يصغي إلى هؤلاء الذين يكتبون ويكتبون ليملأوا تآليف عديدة ، كانت تصدر لأيامه ، وكانت زاده وموسيقى أيامه .

وكان يحسّ في هذا الجيل من إخوانه نشاطاً عجيباً ، ورغبة ملحّة في

الكتابة والتأليف ، فالعالم العربي في ملايينه بعيد عن هذا النشاط ، يفغر فمه ، وينتظر ، ليبتلع ، ويزرد ما كان يصدر عن القاهرة . والقاهرة لا تبخل على العالم العربي بالجد والجهد ، فكأنّها مصانع لهذا النحل ، يشربه العرب في كل مكان . . !

ولعلّ من الغريب أن يسير ذكر الكاتب القاهري في حواضر العرب أكثر ممّا يسير في القاهرة نفسها ، فأحياء الموسكي والسيّدة والدرب الأحمر وفم الخليج ، بل الزمالك والدقّي مشغولة عن هذا الشهد في كثير من الأحيان .

ويعيش صديقي قرب هذه العمارات الغربية السامقة التي تذكره بعمارات الغرب ، تختال أمامها المياه ، وتلتف حولها ، وتروي الحدائق المنسّقة في كل مكان .

ولقد عاصر التاريخ القريب فرأى الموكب المكي ينطلق أمام فندقه من ميدان إبراهيم . ورأى ذات يوم هجوم المصريين على ثكنات الإسماعيلية في قلب القاهرة ، وسمع بالأحداث ، وقرأ عن القتلى ، فشارك قلبه وعقله في نضال هذا الشعب . وكتب قلمه عن شعراء وادي النيل ، وحاضر وألف .

وخلّفت هذه المدينة في صفحات أيامه أجمل السطور ، وأطيب الذكريات . وهو يستطيع أن يكتب عن أدبائها المعاصرين مؤلفات واسعة يسجّل فيها نكات المازني ، وأحاديث سلامة موسى ، وإسماعيل مظهر ، وجلسات الزيات والعقّاد وطه وسهرات ناجي ورامي وعلي محمود طه وصالح جودة ، وكامل الشناوي ، وزكي مبارك .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

بعد اللهب

ألمانية – هولندة – العراق – تركيا

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

وراء الراين

ما كادت الحرب الثانية تضع حملها حتى هبّ صديقي إلى باريس يسأل عن القوم الذين خلّفهم ، والديار التي غادرها ، كأنّه يريد أن يعرف حال الخذلان في أمة تغنّت بالأمجاد ، وأثر الأسر في شعب يذيع بين الناس أنّه يحمل مشعل الحرية . كأنّ صديقي يريد أن يدرس الضعف بعد القوة ، والفقر بعد الغنى ، فقد كان يقرأ خلال الحرب عن هذه البلاد ، وكان يسمع بأنها ذاقت الكأس التي صبّت منها لغيرها ، بل شربتها حتى الثمالة ، فبالغت في الانتصار وذاقت الانكسار !

سعى صديقي إلى باريس ، ونزلها في ذهول ودهشة ، فقد كانت معالم الصبا ترقص أمام عينيه شابة من جديد ، فكأنّها ما نسيته وكأنّها ما فارقته ، تفتح ذراعيها له كما كانت تفتحهما من قبل ، فنسي نفسه فيها ، وغابت عنه الأرقام والأيام ، وخيّل إليه أنها فترة لن تعود ثانية كما عادت هذه المرّة ، فراح يشرب ويعبّ ، حتى لكأن البؤس ما ألم بهذه الحاضرة ، وما غيّر من نفوس القوم ومظاهر عيشهم .

فلمّا أراد أن ينفتل إلى ألمانية ، ليوازن بين شعبين وأمتين وحضارتين ذاقتا فرحة النصر وألم الخذلان ، وعرفتا الذل والهوان ، وتقلبتا في أحضان النعيم والجحيم ، وقف إخوانه يتساءلون عن رحلته كما تساءلوا منذ ثماني سنوات ، ولمّا عرفوا أنها « الأشباح » القديمة هي التي تجتذبه ، وأن المخطوطات هي التي تغريه ، ضحكوا وأغرقوا في السخرية ، لأن القوم في الغرب تركبهم الحاجة ويلفّهم العوز ، وما يزالون في نكبة الحرب ، يسعون إلى الغذاء

والكساء ، والتدفئة ، والتدخين ، فلا يكادون يبلغون إلى ذلك إلاّ بشق النفس .

وصديقي كأنه يعيش مع ذكريات الماضي فحسب ، فقد عرف ألمانية ، وهي تهيىء للقتال قبل عشر سنوات ، نزل من قطاراتها مرّات ومرّات خلال السلم ، من أجل الإعداد للحرب ، ولبس القناع الواقي ضد الغازات السّامّة ، وكان يتمرّن في سفره على حرب عصيبة ، فألف مشاهد ما عرفها في بلاده ، فقد رأى فتيات يحرسن النفق ، وأخريات يفتشن المارة ، وزميلات لهن يحملن السلاح .

شهد ذلك في برلين وفي غيرها ، فلمّا حضر في ميونيخ أزمة الحرب ، واستمع إلى خطب الأقطاب ، ورأى تقلّبات الأزمة واكتوى بها حتى ما وجد بيتاً ينام فيه ، عرف أنّه يشهد التاريخ ، وأنّه لا بد أن يذكر في مستقبل أيامه ما رأى وما سمع .

كيف يعود اليوم إلى هذه البلاد ، وهي مغلوبة لا تملك من أمرها شيئاً ، فلن يجد سفارة ألمانية أو قنصلية جرمانية كما وجد من قبل ، لقد تولّى الحلفاء الأربعة في كل عاصمة منح الإذن لمن له أن يطلب المرور . وفي باريس على مقربة من ساحة « التروكاديرو » شارع ضيّق طويل ، قامت في وسطه « مصلحة الأمور الألمانية والنمساوية » وفي هذا البناء تجاور في غرفة واحدة ثلاثة ضبّاط ، يمثّل كل منهم دولة ، يتحاورون جميعاً بلغة واحدة ، فكأنّهم اتفقوا على اختلاف الثياب والأغراض !

وأسلم صديقي العنان لخياله وتفكيره ، فقد سافرت أفكاره بعيداً ، وراح يتساءل كيف تتبدل الأمور في عشر سنوات فكأن البلاد الألمانية ما قامت . وكانت في عين السائح بستاناً جامعاً ، وهضاباً نضرة ، وبلداناً عامرة ، وإذا هي اليوم جرداء قاتمة ؛ في كل مدينة أكوام من أحجار ، كأنّها من مخلّفات الزلازل أو من أعقاب البراكين ، أو كأنها من البلدان

القديمة التي عفّى عليها التاريخ ، وتقادمت عليها العصر ؛ يهتم بها أولئك الآثاريّون ، يتلمّسون في جنباتها الماضي ، ويقرءون في خرائبها العبر ! . .

وكيف يؤمن السائح أنها بلاد « الراين » التي كانت تتلوّى فيها أعطاف النهر ، كما تتلوّى أعطاف الإسبانيات الراقصات في ضواحي غرناطة ، وتلتفّ حولها الأشجار والأزهار ، فإذا هي كئيبة عابسة ، قد جفّ فيها ينبوع الحياة ، فلا النهر يتحرّك ، ولا الأشجار تضحك ، ولا المروج تهش للوافدين .

وحين وقف صديقي أمام الحدود التي يعرفها أصابته الدهشة فقد رأى جنود الألمان أنفسهم في لباس بال لأنّهم لا يملكون سواه ، أقبلوا يفتشون الحقائب ، يفتحونها ويغلقونها ، فيفتحون أعينهم على المنظر الحلو من لباس جميل لم يعرفوا لمسه منذ حين ، ومأكل لم يذوقوا طعمه منذ أمد ، ثم يطبقون العيون على قذى ، ويشكرون للمسافر ، ويحيلونه إلى السلطات المحتلّة ، فتوزّعه في قطار من القطارات . ولن يشكو المسافر من القطار الذي يحمله والثمن الذي يدفعه ، فله الدرجة الأولى والثانية ، يمرح فيهما كما يشاء وفي الثالثة سكان البلاد ، يتكدّسون وقوفاً ، ويتعلّقون بأطراف القطر وسلالمها ، كما يتعلّق غلمان بعض العواصم المزدحمة بأطراف حافلات الترام سواء بسواء .

عجب صديقي للألماني كيف يحيا اليوم ، فهو يقتطع الخبز الأسود ، لقمة بعد لقمة ، هي كل غذائه في يوم أو يومين ، خلال رحلة القطار الطويلة . ويعيش على حال غريبة ، فهنا مرضع تنام على جدار القطار ، وهي تحتضن في تعب وليدها ، وهناك شيخ نام في الممر ، وكثيراً ما فات الركاب الألمان الهبوط في محطات يقصدونها ، لأن المسافرين على السلالم لا يتزحزحون خوفاً أن يضيع مكانهم في السفر ، وكم سقط من القطار من سقط أثناء الطريق ، فالموت غدا أمراً عادياً ، بل أصبح أقلّ الأشياء إثارة

في معركة طافت فيها أشباح الموت أمام كل عين ، وفي كل ساعة .

تعب من مشاهد البؤس في القطار ، وعاد إلى مكانه يمتّع النظر بمشاهد « الغابة السوداء » ، والأشجار وقفت صفّين متوازيين متقابلين ، كأنّها لم تتأثّر بالحرب ولم تسقط إعياء وجوعاً وعرياً ، كما سقط الذين حفلوا بها أو زرعوها من الألمان ، وظل القطار يجري على مهل وأناة ، لا يدري بما حوله ولا يحسّ بمن حوله .

فلمّا بلغ القطار إلى المدن الصغيرة امتلأت الدرجة الثالثة بالوافدين الألمان ، وحسب صديقي أن القوم يسافرون في نزهة ، واليوم يوم أحد ، وقد أخذ الألماني بحب الرحلة منذ صغره ، فما ينفك ، يقضي الآحاد بين عبير الزهر وعطر الطبيعة ، وغناء النهر ، ونسيم الجبل . ولكنّه اليوم في سعي وراء البطاطس ، ليخلّصها من التراب وينتشلها من مواقع بعيدة ، ويعود بها غانماً ، لأنّها جل غذائه ، ولأن أمّه الأرض لا تبخل على أبنائها بكلّ ما في أحشائها ، بعد أن قست قلوب البشر ، فتساوى المحارب والمسالم ، والمقاتل والقاعد .

وأخيراً وقف القطار في محطة توبينكن ، حيث تسكن الكتب العربية ، فهبط صديقي ، ولكن أين من يحمل له الحقائب ؟ ! إن أكثر الرجال غابوا عن ميادين الحياة ، فعلى المسافر أن يحمل أثقاله ، ويجر نفسه إلى أقرب مسكن ينزل فيه .

وكان صديقي يزور توبينكن للمرة الثالثة ، وهي مدينة السحر والشعر ، وفيها صحبه المستشرقون ، يعرف غنى خزانتها ، ومواقع أصدقائه المتنبي وأبي فراس وابن وحشية في رفوفها . وإذن فسيقابل ليتمان وفايسفايلر ، وبور ، ويقيم في هذه المدينة ، ما وجد المسكن والمأكل .

في الدير

أين يجد الزائر مأواه في بلاد تهدّمت فيها البيوت ، فسجدت الجدران العالية ، وركعت العمارات الشاهقة ، وتجمّع السكان في غرف قليلة ، لكأنّ الألم والفاقة والعجز توحّد بين المصابين ، وتقرّب بين المنكوبين ، فغدت الفنادق ، معدودة لإمرة الجيش ، والمطاعم مصادرة للمحاربين .

والحوانيت خالية خاوية إلاّ من بقايا بضاعة ، والواجهات أقفرت إلاّ من إعلانات عن كميّة الزبدة والخضار والخبز ، التي توزّع خلال الشهر ، فالخبز ، كما قال بعض الفلاسفة قبل كل شيء ! . .

والألمان وقفوا في صفوف طويلة أمام كل بائع ، ينتظرون في صبر طويل نصيبهم الضئيل من خبز يناله الألماني ليومه كلّه ، وكان يأتي عليه في غداء واحد ، وزبدة ينتظرها أسبوعاً بكامله ، وكان يتناولها قبل الحرب في فطور واحد ، واللّباس غريب يجمع بين مختلف الألوان والرقع ، فلا من يعيب على مدير المكتبة وأستاذ الجامعة أن يستقبل زوّاره ، وكساؤه مرقّع بألوان عدّة . ولقد سرى بين القوم من جديد نظام المقايضة والمبادلة بين البضائع والحاجيات ، فعادت ألمانية القهقرى قروناً في الاجتماع والعيش .

وكانت « توبينكن » الساحرة مهوى الغرباء ، يحضنها « الراين » فتتلوّى حوله الجنائن والبيوت ، وتداعب شطئانه الأبنية والجسور ، وبيوتها صاعدة من السفح إلى الجبل في مناظر أخاذة ، على طبقات ، يفد إليها الطلاب من كل قطر وبلد ، تضحك فيها الألبسة الصّاخبة ، وتتناغى فيها الألسنة المتباينة ، وتعج بالزهر وتضجّ بالعطر ، وتتمايل الشبيبة مع الطبيعة الراقصة ،

وتثمل بالجعة ، وتغني مع همسات النهر أناشيد وأهازيج طبعتها الجامعة بطابعها ، فهي ثالث جامعة في ألمانية ، وهي في فروعها تفيض على أكثر الجامعات القديمة والحديثة .

ذلك كان ماضي « توبينكن » ، أما اليوم فهي في حسرة بعد النكبة ، وحيرة مذهلة لا تكاد تصدّق ما جرى ، ولا تعرف سبباً لما ترى ، في الحدائق والحقول تكاد تخلو من الشباب ، لأنّهم بين العشرين والثلاثين غائبون عن البلد ، فهم في الأسر أو في القبر . وإنّما يملؤها الشيوخ والعجزة يتعكّزون ، في طرقها ودروبها ، فهم وحدهم قد تخلّفوا عن المعركة الحربية ، لينصرفوا إلى معركة الحرمان والتخلف والجوع في سبيل الأطفال والنساء القاعدات .

والكنائس ودور العبادة ، تغصّ بهؤلاء الشيوخ ، يستغفرون الله من ظلم رؤسائهم الطائشين ، وجشع هذا المخلوق الغريب في سبيل الحكم والتسلّط ، وغرور هذا الحيوان الناطق الذي نسي أنّه من تراب حتى عاد إلى التراب .

سئم صديقي هذه المشاهد ، وكره التفكير في الإنسان وغير الإنسان ، وحسب أنّه يجب أن يعود إلى أصدقائه « رفاق الدرب » من الأموات ، فهم وحدهم الخالدون ، يسرّ لآرائهم وحديثهم ويقرؤهم في نهم يشفي غليل نفسه ، ولكن أين يجدهم هذه السّاعة . وكيف يجرؤ على السؤال عنهم ، فالقوم في شغل شاغل من لقمة العيش ، ويخاف أن يتّهمه القوم بالجنون ، أو يظنون أنّه أناني لا يبالي بآلام الإنسان حوله .

لقد عرف أن المخطوطات العربية التي كانت في برلين قد سافرت إلى هذه المدينة ، بل سكنت في القبو ، بدير كبير على مقربة منها ، وقد اشتهر المكان خلال الحرب الثانية في الصحف ، إذ التقى موسوليني وهتلر بناحية مصاقبة له عند ممر « بره نر » .

ويعرف أن الألمان يجهلون هذه المعلومات ، لأنّهم لا يهتمون بالمخطوطات

العربية ، فإذا اهتموا بها من قبل ، فإن ظروف الحرب دفعتهم إلى التفكير في المأكل والملبس فحسب . ولو شاء المستشرقون أن يعرفوا موقع المخطوطات لصعب عليهم أن يعرفوا ، لأن ألمانية انقسمت إلى دويلات أربع ، كل منها يعيش في كنف دولة حليفة محتلّة . وقد انقطعت المواصلات أو كادت ، وتباطأ البريد حتى لكأنّه معدوم . والبرقية التي أرسلها صديقي إلى برلين قطعت أربعة أيام أو ستّة ، والرسالة تطوي المسافات ، تفتحها أيدٍ وتغلقها أيد ، في رقابة دقيقة ، من دولة إلى دولة .

لذلك سكت الناس عن السؤال . ولماذا يسألون عن مخطوطات عربية قديمة ، كيف انتقلت من برلين إلى توبينكن ؟ ! وسكنت بين هذه الجبال العالية التي لا تصلها الطائرات المقاتلة أثناء الحرب الضاربة ، ولا تنال منها .

ولكنّ صديقي عرف أن القرية التي يقصد إليها تضمّ كنوز قومه ، وأن البناء الشامخ ، بناء الدير ، يضم بين جوانحه مئات المخطوطات العربية النادرة . فليس له إلاّ أن يدخل الدير ؟ !

وكيف الوصول إلى الدير ، إنّه في رابية عالية ، لا يبلغها المسافرون في يسر ، وقد انقطعت الأسباب بين أكثر المدن الكبيرة ، وليس من قطار يصل إلى القرى ، لذلك ركب سيارة إليها قطعت في ساعات ما كانت تقطعه في ساعة ، وقد عادت السيارات إلى الخشب تتغذى به ، لأنها حرمت « السائل » العزيز ، وقد غدا نادراً ، والسائق يرمي في البرميل خشباً يحترق خلال ساعة أو بعض ساعة ، وحينئذ يؤذن الجهاز بالحركة .

وخرج السائق والركاب من هذه الرحلة العجيبة على وجوه سوداء ، فقد لفع الريح وجوه القوم بالدخان ، وغمر الوديان الجميلة والسهول الممرعة والتلال بخيراته السوداء ، ووزّع على الدنيا ثمرات هذا المحرّك ، فنظر بعض إلى بعض غير مصدّقين بأن الحياة الدنيا تسوّد الوجوه !

ونسي بعد أن بلغ القرية الصغيرة عناء الرحلة المثيرة ، لأن الوادي العطر لفّه بنسيم عليل ، كان يستقبله في رفق وحنان ، لعلّه من ريح الأجداد العرب الذين سكنوا الدير ، فطفقت أرواحهم تطوف به ، وترحّب من وراء الخلود بالضيف العربي ، كأنّها عرفته زائراً وافداً .

فلمّا علم أن البيوت قليلة في القرية ، وأنها في جملتها تحوّلت إلى مستشفيات لنقاهة المرضى خلال الحرب ، أسقط في يده ، ولجأ إلى « الدير » ، لعلّه يجد فيه ما كان يسعى إليه من مأوى .

فدخل سور الدير ، وقرع الجرس ، ففتح الكاهن كوّة الباب ، يسأل عن الغرض والغاية ، فتولّى الكلام في تردّد ، ورجاه أن يخبر الأب الكبير بأمره ، فهو راعي الدير ورئيس الآباء . فإذا أقبل ارتاع الزائر العربيّ ، وحار ، وارتبك ولكنّه ما لبث أن وجد عذراً ووسيلة ، وقلبه يضطرب لئلا يخونه الثبات ، وتخيب المهمّة ، وينكشف الأمر ، ويعود أدراجه لا يلوي على شيء .

وكان الراعي على ترحيب بزوّاره ، يعامل الغرباء معاملة الأبناء ، ويعرف أن القرية « بايرون Beuron » غدت مستشفى كبيراً ، وأن ديره وحده يستطيع أن يستقبل الزائرين ، وأن الهدنة تحترم الأديان ، وليس من سلطان للحلفاء على سكان الدير ، فهو حاكم ومرجع ومآب ؛ فأفهم الضيف العربي في لطف بالغ ، ووقار جميل أن الدير بيت للجميع ، وأن ما في الدير ملك لله ، وأنّه سيوكل بصحبته قيّم المكتبة ، فهو دليل إلى المخطوطات ، وصديق إلى اكتشاف المخبئات .

وقرع الراعي الكبير الجرس ، فانحنى كاهن صغير من الإخوان وانفتل يطلب القيّم « الأب غالوس » وفي خلال هذه الفترة التفت في أدب إلى ضيفه يسأله إن لم يكن من البروتستانت ، وهم الكثرة الغالبة هناك ، فديره

للكاثوليك وهم القلّة .

ولا تسل عن صديقي ، وحيرته ، وجوابه ، فقد خيّل إليه أن مهمّته خابت ، وأن لسانه قد مات ، وانطلقت جملة لا يدري كيف كان موقعها من الراعي الجليل ، وإنّما يذكر أن الراعي أسلمه إلى الأب « غالوس » ، وخرج يبارك له المقام ، ويدعو له بالتوفيق .

وانطلق الصديق ، والأب غالوس ، في أول زيارة إلى كنيسة الدير ، وانحنيا أمام المذبح يقدّمان واجب التحية قبل أن يحين العشاء فدخلا في جملة الداخلين إلى قاعة الأكل الكبيرة . وكان للدّخول نظام ، وللأكل نظام ، وللخروج نظام .

دخل الآباء واحداً بعد واحد ، وهم يرتّلون ، وتبعهم الإخوان في أثرهم ثم دخل ضيوف الدير ، وفيهم ثلاثة طلاب وأستاذان . وهم كذلك يرتلون ، وصديقي واجم ، ينظر يمنة ويسرة ، في طرف خفيّ ، وقلب وجل ، إلى ما يصنع القوم ، ليصنع كما يصنعون ؛ فلا تندّ عنه حركة شاذة ، ولا يخالف هذا النظام الدقيق .

وظلّ القوم وقوفاً أمام الموائد الطويلة ، وهم خشوع سكوت ، كأنّهم في الصّلاة ، وعددهم ينيف على مئتين عدا الضيوف ، وحول القاعة سكان الدير ، وقد أخذوا أماكنهم في نظام عجيب . وتصدّر القاعة الراعي الأكبر ، فلمّا أشار بيديه تهالك الإخوان والآباء على مقاعدهم ، من غير أن يرفعوا أبصارهم أو يحركوا أعضاءهم ، وأصاخوا السمع إلى « الإنجيل » يتلى من منبر عال باللاتينية ، ثم بالألمانية .

وراحت الأواني تطوف على الموائد يحملها الإخوان ، فإذا العشاء ماء ساخن يسمّونه حساء ، وسلطة من العشب الأخضر عليه ماء وملح ، وطبق من البطاطس المسلوق ، وقطعة خبز أسود تناثرت على أديمه ذرات من

السكر هي قطعة الحلوى ، أما اللحم فلا أثر له في طعام الدير .

وانتهى العشاء فراح كلّ يبارك لزميله وجاره هناءة المأكل ، ويسأله عن شهيته في أكلة اليوم ، على عادة الألمان في آدابهم وولائمهم .

ولم يبال صديقي بهذا كلّه ، لأنّه أعدّ للأمر عدّته ، فجعل في حقائبه ما يكفيه وما يفيض عنه ، وما يشتري به حاجياته ، وهو على ذلك كان يمنّي النفس بغذاء أهمّ وأنفع ! . . غذاء من مخطوطات العرب ، ومجالس مع « رفاق الدرب » في قبو الدير ! فإلى القبو ! . .

مع المتنبي والرهبان

دخل صديقي غرفة خصَّه بها « الأب غالوس » على أن يعود إليه مع الصَّباح . فلمّا أوقد النور الضئيل ، تبيّن جوانب الغرفة وما فيها بتدرّج وبطء ، فتلمّس سريره الخشبي الضيّق ، والمنصّة التي يضع عليها أشياءه ، والخزانة التي يجعل فيها أمتعته ، فلمّا أغلق الباب دونه ، تبيّن كوّة فوقه تصله بدنيا الدير ، وما يقع فيه ، فيسمع وقع الخطى ، ويأنس بالقوم والعالم .

وحاول أن ينام على شدّة التعب ، ولكن خطّة الغد كانت تقلقه وتؤرّقه ، فهو غريب في كل شيء على سكان الدير لا يصله بأصحابه إلاّ الخالدون من أجداده العرب الذين يساكنونه في البناء ، ولكن أين هم ؟ ! وكيف اصطفوا في الخزانة ، وهل يتجاور فيلسوف وشاعر وجغرافي ومؤرخ ، كما رأى في خزائن برلين ، وميونيخ ، وليبزيغ ، وهالة ، وتوبينكن ، قبل الحرب . فقد تعوّد أن يدخل على القدماء في عقر دارهم . وكان أرباب الخزائن العامة ورؤساء الإدارة يرحّبون بدخوله ، لأنّه كان يرشدهم إلى عنوان مخطوطة ، وهويّة نسخة ناقصة ، ويكشف لهم عن المؤلف فقد طاف وطاف حتى حفظ العناوين والمؤلفين وأرقام المخطوطات في ليدن ، وباريس ، وروما حتى انّه ليذكر صفحاتها كما يذكر صفحات الشعر القديم .

وكيف ينام الإنسان ، وهو يصبح على أخطر مغامرة خاضها ، وكيف لا يفكّر ملياً ، وهو يهجم على هذه المخطوطات في مخبئها الأمين ، وراء الأسوار ، والأستار ، وكيف ينقل منها ويسعى إلى تصويرها . إنّه يكاد يخوض هذه المغامرة ليؤكد أنّه ما من مستحيل يقف أمام الطامع الهائم ؛

وأنّه قادر على بلوغ ما يريد في الحرب والسلم على حد سواء، في الدير والجامع والخزائن العامة والبيوت .

لذلك تقلّب على السرير ساعات ، حتى أيقظه الناقوس أواخر اللّيل ، فهبّ مذعوراً ، وإذا بطرق خفيف على الباب ، فلمّا فتح الباب رأى الآباء والإخوان قد خرجوا من غرفهم ، وركعوا يصلّون ، ويتمتمون ثم أرسلوا الدعاء عالياً ، وعادوا إلى أسرّتهم .

صلّى صديقي حقاً مع المصلّين ، ودعا بحرارة بكلّ ما في قلبه ونفسه على هؤلاء الذين أضاعوا تراث قومه ، وباعوا آثار شعبهم في سبيل غنى قريب ، فأضاعوا أنفسهم ، وماضيهم ، وحاضرهم ، وكان لأبنائهم هذا المستقبل القلق الغامض ، وهذا الجد والإرهاق في إعادة ما باعوا ، يسلكون إلى مطالعته وتصويره « درب الشوك » .

فلمّا أتمّ صلاته ، واستراح في غرفته بعض الشيء ، خرج إلى الممشى ينظر من النافذة إلى الباحة ، فرأى رجال الدير قد استيقظوا مع الطير ، وهبّوا إلى الأعمال فملأوا الباحة حوله ، يزرعون الأرض ويسقون النبات ، فهم يأكلون ممّا تنبت الأرض ، وممّا تخرج الحقول ، وما تثمر الأشجار ، ويعيشون عليها ، ويلجئون إلى أمهم الأرض تعطيهم ، وتحنو عليهم أشد من حنوّ الإنسان على الإنسان .

وكأنّ رجال الدير يعيشون في مدينة صغيرة يمثلون الاكتفاء الذاتي ، يأكلون من أرض الدير ، ويشتغلون في مرافق الدير ، فيطبعون بأنفسهم الكتب ، ويجلدونها ، ويلصقون الكراريس . وقد قاده الأب غالوس إلى المطبعة ، وأهداه كتاب الصلوات بالألمانية ، وما يزال صديقي يحتفظ به ذكرى لذلك العهد السعيد حين كان ضيفاً على الدير .

وأما الصناعات الأخرى ، فقد تقاسمها رجال الدير ، فيهم النجار

والكهربائي والحداد والزجّاج ، وغيرهم ، من أرباب الحرف ، يتقنونها ، ويعملون داخل « المدينة الفاضلة » التي يحكمها الراعي الجليل في دقّة ونظام وديمقراطية .

وأقبل صديقي على فطور الصباح المبكر ، وفاق المراسم الدينية ، وتوجّه بعده إلى مخطوطاته يقوده الأب غالوس ، فهبط السلالم ، حتى حسب أنّه بلغ أقصى الأرض ، وهناك رأى الصناديق الخشبية الكبيرة ، في ترتيب عجيب ؛ تتساوى وتتشابه وتتقارب في الشكل ، فيصلح كل غطاء لكلّ صندوق . وفتح الصندوق وإغلاقه لا يستغرق أكثر من ثوان قليلة مع ذلك .

فأقبل الصديق والدليل على فتح عشرات الصناديق في شغف وشوق ، حتى ظهر « تاريخ الجزيرة لابن شداد » فسحبه الصديق ، وبرز بعده « المنصف بين السارق والمسروق » لابن وكيع في المتنبي ، وبعدهما شرح المتنبي لابن الإفليلي ، ففرح صديقي ، وراح يقلّبه بين يديه ، والأب فاغر الفم ، ينظر في دهشة إلى هذا المشوق المفتون . فلمّا عرف أن المتنبي أكبر شعراء العرب ، وأن الشرّاح تسابقوا على العصور إلى شرحه وتفسيره في المشرق والمغرب أكبر خزانة برلين التي ملكت هذه النسخة النادرة من هذا الشرح .

ومن العجب أن يسكن المتنبي في هذا الدير ، بعد ربوع الشام ، ليجاور الرهبان الذين يصور وحدتهم في شعره ، ويضرب بها الأمثال في ديوانه ، فقد كان يتصوّر كلّ أمر ، ولكنّه ما كان يتخيّل أن الدنيا تسوقه من قطر إلى قطر حتى يبلغ إلى أعلى الجبال في ألمانية ، ويحظى بالرعاية عند هؤلاء الآباء ، لقد أحبه المستشرقون وترجموه إلى لغاتهم ، وجعلوا عنوان كتاب عنه : « أكبر شاعر عربي » فحكموا له ورفعوه ، وما يزال العرب على خلاف في موقعه ومكانته ، بعضهم يراه أكبر الشعراء ، وبعضهم يراه

وضيعاً يحترف التسول ، لا يكاد يقول في زعمهم إلاّ في المال ، وبعضهم ينعى عليه سرقاته ويعدّدها ، وبعضهم يرى أنّه ترجم الحكمة اليونانية ، وحوّل الفلسفة الأفلاطونية إلى شعر . وقد انقضى عليه ألف عام ، وما يزال الخلاف بين المحدثين والقدماء على أشده ، كما كان منذ عشرة قرون .

ولقد دفع صديقي إلى الأب غالوس بهذه العناوين الكثيرة يقرؤها ، ويفتش عن الكتب في خزانة برلين بالقبو ، ليشارك في فهم الشاعر وفي إكباره ، ويفهم عند ذاك مدى حرص صديقي على ديوانه وشرحه . ولقد أعجب الأب الطيّب بالشاعر ، وقرأه ، وقرأ عنه ، وسارع في حمل مخطوطته إلى مدينة « توبينكن » ليصوّرها المصوّر على أفلام ، وقد ندرت وشحّت ، لعل صديقي يعود بهذه الأفلام إلى بلده ، فكأنّه يعود بالمخطوطة إلى أهلها .

ولم يكن من السهل الهيّن أن يخرج المخطوط من القبو ، وأن يحمل بالأيدي خارج الدير ، ولم يكن باليسير أن يسافر من مدينة إلى مدينة ؛ ولكنّ إيمان الأب بما قال العلماء الألمان عن المتنبي دفعه إلى تقديره وإلى إكباره ، حتى غدا كثير من رجال الدير يعرفون كثيراً عن الشاعر ، يسألون صديقي عن مزايا الشعر البطولي عند العرب ، ووصف المعركة في قصائدهم ، فعاش ابن الكوفة في الدير بين محبين ومعجبين من الغربيّين ، كأنّه بين أهله وإخوانه المعجبين في القرن الرابع لزمانه ، وما كان لحياته يحلم بذلك ، وما كان يخطر له على بال . ولقد وصف المتنبي في شعره كثيراً من الغرباء والأشخاص ، ورسم الأقوام الذين دخلوا في الحروب ضدّ سيف الدولة ، وفيهم البلغار والروس والروم ، ولم يذكر الألمان بأسمائهم ، ولكنّه تعرض للبزنطيين في القرن العاشر ، وهم يحاولون غزو الشام .

وفهمتُ في غبطة سبب فرح صديقي وهو يتحدّث عن « شعبية » الشاعر العربيّ في دير « بايرون » بمنطقة « الهوهنزلرن » بألمانية ، وعرفتُ أنّه دخل

إلى قلوب هؤلاء القسس والرهبان من رجال الدير بالدراسات الألمانية عن شعراء العرب . وأدركت أن اعتزاز صديقي بالعرب القدماء قطعة من حياته ، فهو يرتفع بالأوائل الذين كان في شعرهم حكمة تشبه الحكمة العالمية القديمة التي يحجّ إليها الدارسون في جامعات الغرب ؛ وفي أقوالهم خلود يشبه الخلود في الآداب العالمية ، وهو يفخر بتراثه كما يفخرون بتراثهم .

ولقد كان صديقي معتزاً بشاعره المتنبي ، فقد انتصر بشعره ، وانتصر العرب بشعره في الأدب والفكر ، وانتصر صديقي في الحصول على شروح فريدة نادرة لشعر المتنبي ، ينام ويصحو على صفحاتها ، ويعيش مع المتنبي أبداً ، لا يعلم قومه بما يعمل في سبيل الشاعر الضخم ، فقد استهان كثير منهم بالتراث حتى حسبوا أن المعنيّين به يهدرون أوقاتهم ، ويضيعون « ربيع العمر » في أمور صغيرة ، كأنّهم يختارون « درب الشوك » وينسون هذه الحدائق ، وما فيها من ورد ورياحين وعطر !

وماذا يقول الناس عن صديقي ، حين يعرفون أنّه اضطر في تصوير المتنبي إلى أن يدفع بملابسه إلى المصوّر أجراً لما صنع ، بعد أن سقطت العملة الألمانية وبطل سحرها .

لقد صوّر صديقي مخطوطة ومخطوطة ، حتى استنفذ كل ما كان في حقائبه من ملابس ، دفعها ثمناً لأفلام المخطوطات ، وغدا بعد ذلك خفيف الحمل ، يتأبط محفظة صغيرة ، فيها الأشرطة والأفلام . وهذه المحفظة كانت أثمن ما يحرص عليه في أسفاره ، بل كانت كل ثروته في هذه الرحلة ، وأصبحت فيما بعد كل سلواه يرجع إليها ، ويقرأ صفحاتها ، ويغيب في ذكرى ما وقع له في سبيلها ، فكأنّه كان في شبابه هائماً بهؤلاء الأجداد ، يرجو أن يعود بهم إلى أوطانهم بعد أن طال اغترابهم عنها ، ولا شك في أن أرواحهم تحنّ إلى هذه الربوع التي كتبوا على جدرانها أروع مفاخر

الفكر والأدب لأمّته وللعالم .

وكان صديقي كثير التشاؤم يحسب أن الدمار طويل الأمد ، وأن البيوت المتهدمة ستظل متهالكة متساقطة زمناً غير قليل . وحسب أن آثار الحرب ستخيّم على البشريّة إلى سنين طويلة ، وأن القوم في الغرب لن يتلفّتوا إلى تراث العرب ، بعد هذه المحنة الكبيرة ، فاغتنم الفرصة ، وعاد بأحبابه القدماء ، ليجاوروه في حوار لا ينقطع ، فهو يخاف أن يفوته العمر ، ولا يتاح له لقاء جديد مع هؤلاء الأصدقاء القدماء ، في مخطوطاتهم الدفينة القديمة الراقدة في ديار الغرب ، بين الخزائن والأديرة .

سرير وثير

قضى صديقي شهراً في «بايرون» ، نعم فيه بصحبة المخطوطات فقد تكدّست أمامه كلّها ، يقرؤها في كلّ ساعة ، كأنّها ملكه وفي بيته ، يتناولها واحداً بعد واحد ، ويفتح الصناديق بنفسه ، وليس في القبو فهرس أو قائمة بالكتب . وفهرس برلين فيما يذكر عشر مجلدات كبيرة ، في وصف هذه المخطوطات ورسم فصولها . ولكن لماذا يرجع إلى الفهرس ، وبين يديه الكتب نفسها ، ينبشها بأصابعه ويلمس ورقها ، ويرى بعينيه تقلّب العصور والخطوط ، ويسبح خياله مع الأزمان والأشخاص ، ويرود بها التاريخ ، فلا يغادرها إلاّ حين ينبّهه صوت دليله الأب غالوس يدعوه إلى الأكل والنزهة أو يلفت نظره إلى ضعف النور في الدير إشفاقاً على نور عينيه .

ومع ذلك تمتّع صديقي بالطبيعة في ذلك الجبل الشامخ بين الرياض والأشجار ، وملأ رئتيه بالنسيم الصافي ، فحسب أنّه في الجنان الخالدة ، ولكنّه كان مضطراً إلى أن يغادر الدير وتوبينكن ، ويعرج على «برلين» ليرى ما فعل الله بعاصمة الجرمان .

فسافر ذات يوم بعد أن ودع أرباب الدير ، وانحنى من جديد لهؤلاء الذين وفّروا له الضيافة الكريمة ، والعيش الهادىء على فقرهم وحاجتهم ، وشدة لوعتهم على الوطن الجريح ، وشكر لهم هداياهم من صور وكتب وأشياء دينية ، ينظر إليها في إكبار وحنان هذه الأيام .

وما كان يظن أنّه ودّع قطعة من حياته سيفتقدها كلّما ذكر المغامرة ،

والنفع ، والخير ، فقد رأى ما لم يكن يرى في سلم أو في حرب ، وعاش أسابيع كانت من أيام عمره حقاً ، وسافر إلى « أوسنا بروك » وهو يعرف أنها كانت ملتقى القطارات ، تتفرع إلى كلّ ناحية ، تمرّ عشرة منها في كلّ ساعة تقريباً . فلمّا بلغها ، نزل ينتظر القطار التالي ، فعرف أن الانتظار يطول ثلاثة أيام إلى برلين ، وقد كان عشر دقائق . فحمل حقيبته الصغيرة ، وفيها كنزه وحصاده ، ومضى يفتش في براءة ساذجة عن فندق وثير ، فإذا الأرض حوله قفر ، والبنيان قد تداعى من كل جانب ، فأين الفنادق الفخمة ، والمقاهي العامرة ، وأين البيوت والمساكن ، يبدو أنها اختفت كلّها ، وأصبحت أثراً بعد عين ، فراح يسأل عن طريقة للمبيت في انتظار القطار ، فهداه من حوله إلى مركز للجيش البريطاني يسمّونه (R. T. O) فليسعَ إلى قائد المركز لعلّه يرشد الغريب الحائر .

سار إليه صديقي ، وهو يعرف أنّه ما يزال في أعقاب الحرب مباشرة ، وأنّ عليه أن يحيا لها وأن يصبر على المغامرة ، فطرح السؤال على هذا القائد الإنكليزي ، وتلقّى كلاماً مجمجماً من شفتين تمسكان بالغليون ، وعرف أن القائد يرحّب به في غرفته نفسها ، لذلك سرّ صديقي وذهب عنه الغمّ . ومشى بخطى مطمئنة إلى مقرّ مريح ، ورجا أن تكون ليلته في هذه البلدة الشهيرة خيراً من لياليه في الدير . وجلس يرقب اللّيل ، يتسلّى بما يملك من كتب وصحف ، وأظلم الكون ، وتثاءب القائد ، وحاول أن يجرب حريّته أمام ضيفه ، فخلع « سترته » فظن صديقي أن السرير قريب ، ولكن الضّابط انفتل إلى طاولة كان يكتب عليها ، فأزاح عنها الأوراق ، واستلقى عليها ، ورجلاه مطلقتان تهتزان بحرية وراحة ، ورأسه بين يديه ، وعيناه تغفيان ، فأرسل مع ابتسامة خفيفة كلمته التقليدية : « ليلة سعيدة » .

وبقي النور الخافت يرقب شخصين غريبين يفكر كلّ منهما في جاره

من غير شك ، يتساءل كلّ منهما كيف ينام الآخر . بل كيف ينام هذا الغريب الوافد ؟ وهل هو عسكري قديماً تعوّد النوم على أمثال هذا المكتب ، وهل يفهم الضيافة السخيّة التي أتاحها له القائد ؟ ! إنّه سمع أقاصيص وحكايات قبل أن يدخل على القائد ، فقد عرف أن غيره من المسافرين يفترشون الأرض والأرصفة ، بين ركام الأحجار ، ينامون من غير غطاء . وبعضهم يسعده الحظ في غرفة خالية من كل أثاث ، فينضم إلى عشرات ناموا قبله ، على جانب من جوانب جسمهم ، على كتف واحد ، ملتصقين كالأحبة المشوقين ، لا يكاد يفرّق بينهم الماء والريح ، فهم في مكان يتسع لعشرين فحسب . إنّها ظروف الحرب ، وما تجلب على المدنيّين بعد المحاربين من راحة ويسر !

لذلك كان صديقي يرى في دخوله على مكتب القائد حظوة لا تجارى ولا تضيّع ، ولكنّه مع ذلك لم يكن يصدّق أنّه يستطيع أن ينام ، كما نام القائد البريطاني في سرعة ، كأن النوم حاضر يجلبه لعينيه في كل دقيقة ، لقد تعوّد صديقي أن لا ينام خلال سفره في أول ليلة ، وأفخم فندق ، فكيف ينام على المكتب اليوم ، وهل كتب عليه أن ينحدر من « النعيم » في الدير ، وينتقل من الفراش الخشبي إلى هذا المكتب الخشبي ؟ !

ولما لم يعد من سبيل إلى التردّد ، خلع سترته هو كذلك ، وانطلق إلى المكتب القريب ، واستلقى عليه ، ولكنّه شعر أن الأرض تميد به ، وأن المكتب يهتزّ ، وأن الأرجل ربما كانت أضعف من أن تحمله كلّ الليل ، وتمنّى أن يسقط على الأرض ، فيفترش ترابها ، فهو في غرفة لها جدران ، ومن النعيم أن يجد المرء في ألمانية المغلوبة بيوتاً ذات سقوف ، فقد ثقبت القنابل كلّ شيء . وربما كان البريطانيون هم الذين ضربوا « أوسنا بروك » نفسها ، وربما كان أقرباء هذا القائد البريطاني هم الذين صبّوا غضبهم على

المدينة ، فما أبقوا إلاّ جدراناً معدودة على الأصابع ، أقواها حولّه الجيش إلى مكاتب رسمية في النهار ، وأسرة وثيرة في الليل .

استلقى صديقي ، وراح يهتز ، ورأسه بين يديه ، يفكرّ في « درب الشّوك » الذي سلكه في سبيل المخطوطات العربية ، وكان حقّه أن يبقى في باريس ، في قلب الحيّ اللاتيني ، فإنّ عاصمة النور لم يمسّها المحاربون بسوء ، أو لم يستطيعوا هدمها على الأقل ، فأين العقل الذي يسعد ؟ وهل صدق المتنبي حين قال : ذو العقل يشقى في النعيم بعقله !

وإذا كان قد بدأ طريق الشقاء فلماذا لا يختصر الطريق ويعود بعد غنيمة « الدير » إلى باريس ؟ ! ويبدو أن أسئلة اللّيل المتعبة دارت برأسه المسكين المتعب بعد سفر طويل ، وأنّه استسلم للمغامرة في سبيل هذا الشرف العظيم ، وهذه الكتب النادرة ، وهو يفكر ! .

لقد كان يفكر في هذا الضابط الذي هجر لندن وهدوءها ، وسكون شوارعها وعظمة المساكن فيها ، والفراش والمأكل ، وآثر أن يقضي شطراً من عمره على هذا المكتب في سبيل بلاده وأمته ، وهذا الشطر قد يطول وقد يمتد . أما صديقي فهو يعرف أن شقاءه وتعبه لا يطول ولا يمتدّ ، وأنّه لا بدّ واصل إلى برلين ، إلى ضاحيتها المشرقة الغناء « فروناو » ، حيث صمّم أن يلوذ بحدائقها ، ويضاحك أزهارها ، بعد سأم طويل !

وعبثاً حاول أن يبعد عنه الأفكار المتزاحمة ، حتّى أغفى قليلاً ، فمال إلى السقوط ، ثم عاد إلى الإغفاء ، وحاول أن ينسى نفسه وما كبّدها من مشاق ، واستطاع أن يقضي بقية الليل في نوم متقطّع ، يصحو على صوت المكتب يميد تحته ، ثم يحسّ بتطفّله على الضابط ، فقد نزل به ضيفاً غريباً ، وغدا عليه ثقلاً غير منتظر .

لذلك كان يتلفّت في الظلام إلى مكتب الضابط أي سريره ، فيراه

قد نام واستسلم للأحلام ، فكأنّه تعوّد الشقاء ، وألف التعب ، وما يتأفف وما يتضجّر ، لأنّه يفعل هذا في سبيل مهمته وفي سبيل مجد كبير لأمته ، فلماذا لا يفعل صديقي في سبيل وطنه وفي سبيل أمته ما يفعل غيره ، ويقبل بهذا السرير الوثير ، ليلة بعد ليلة ، ليذكر ذلك فيما بعد على الليالي والأيام ! . .

في أحضان الزنبق

استطاع صديقي أن يستسلم للراحة في ضاحية برلين « فروناو » حيث الحدائق تلفّ كلّ بيت ، تحيط بها البحيرات ، وتكتنفها الغابات الكثيفة الداكنة ، فكأنّها الطبيعة البكر ، لم يمسّها إنسان على قربها من حاضرة الألمان . لذلك راح يجد في دروبها مراداً لأفكاره ومسرحاً لجولاته ، يتّصل بالأشجار والأزهار ، وينظر إلى المياه صافية رقراقة فينسى ما سمع من آلام ، وقصص ، نسجتها الحرب الدامية ، وخلّفتها في نفوس الباقين من هذا الشعب ، الذين أخطأتهم سهام المنية ، فشربوا كؤوس العذاب دهاقاً .

كان يُصغي إلى القصص والحكايات ، فيتّهم الخيال الذي يبالغ في روايتها ، لأنّها أبعد من الخيال ، وحسب الذين حوله أنّه يستمع إليها ليجمع خلاصاتها ، وليدرس نفسيّة الشعب من خلالها ، فقد أخلد إلى انكسار مريع بعد تمنيات ووعود بالانتصار السريع ، فهو في عاصمة النازية ، وقد خلا شارع « تحت الزيزفون » وكان شبيهاً بالشانزليزه بباريس ، والشارع الخامس بنيويورك ، في أبهته وغدا فقيراً بائساً ، بل راح يبدو خراباً والعمارات جاثية على جانبيه ، كأنّها تتوسل أو تسترحم أو تشكو . فإذا فتّشت عن بناية فيه ، وأنت تعرف الرقم وجب أن تعدّ على أصابعك الأبنية المتساقطة المهدّمة ، وأن تتخيّل الرقم الذي وصلت إليه ، على أن تحسب عنده ما بينك وبين رقم البناء المطلوب ، لكأنّ برلين عادتْ من جديد ساحةً كبيرة ، وأرضاً معدّة للبناء ، أو كأن بيوتاً في الأرض مكوّمة ، وضع لها المهندسون أرقاماً ، بل علامات تدلّ على كوم الأحجار المتقاربة ، في انتظار أن ينهض المهندسون

بالأبنية واحداً بعد واحد .

وعهد صديقي بهذا الشارع العريض الطويل أنّه ذو مظاهر غنية ، يخطر فيه الجنود حين الاستعراض ، وتمرّ به المهرجانات فتضيع في عرضه وطوله ، ولكن الحرب ضربته فأحالته إلى مشهد لسيناريو يمثّل الخراب ، وقربه « قوس براندنبورغ » ما يزال قائماً ، وحوله التماثيل الأمبراطورية ما تزال منتصبة . وانقسمت برلين إلى أقسام أربعة ، نصف مع السوفيات ، ونصف مع الدول الثلاث ، وليس في الدخول من قسم إلى قسم حرج أو حرس ، بل إن هذه الأقسام نفسها كانت مرنة ، يدخلها الروس حيناً ثم يخلونها أحياناً .

وليس الخراب وحده قد أصاب هذه العاصمة ، فقد اجتمع عليها الفقر والجوع ، دخل صديقي مرة مقهى في هذا الشارع الفخم ، وطلب حلواً مثلجاً ، فسأله غلام المقهى قسائم التموين للسكر والبيض والحليب ، مما يتركّب منه « المرطب » ، فآثر أن يخوض السوق السوداء ، على أن يغوص في القسائم وأنواعها وعددها . وأما سكان المدينة فما يعرفون مثل هذا الترف ، وقد حرموا فترة من القهوة الأصيلة وسكّرها ، وتشوقوا إلى لفائف التبغ ، فاكتفوا برؤية دخانها يتصاعد تباعاً . وكم ضحّى بعضهم بالأثاث والرياش في سبيل قليل من الترف ، لأن حب التدخين وشرب القهوة ، تأصّل في طباعهم فغدا مثيراً مزمناً .

ووازن صديقي بين الحرمان في عهد النازية من أجل السيطرة العسكرية ، وبين الحرمان بعد انكسار النازية ، فعجب للقدر حين يعطي الإنسان قوّة ولكنّه يحرمه العقل .

وبين هذه المشاهد المتناقضة حوله ، كان يعيش في دنيا تتزيّن بالحدائق ، وتعبق بالعطر ، والسكان جائعون يبيعون كل شيء في سبيل لقمة العيش ،

فآثر أن يهرب ، وأن يغادر الجنة الأرضية ، لأن سكانها يكتوون بجحيم الحرمان ، ولا يستطيع ساكن الجنان إلاّ أن يأنس بنعيم السكّان ، فإذا كان وحده يشعر بالشبع وغيره يجوع ، فلا حياة ولا سعادة في مقامه ، وتتحوّل الجنّة حوله إلى جحيم .

وهكذا سافر من برلين إلى هولندة ، لأنه كان يمنّي نفسه أبداً بزيارة « ليدن » هذه المدينة التي يرتسم اسمها على صفحات كثير من الكتب العربية المطبوعة في أوربة ، فلا يدري كثير من مواطنيه أين تقوم المدينة على فروع « الراين » . وكثيراً ما يختلط على الطابعين الشرقيين التمييز بين ليدن ولندن ، وكلاهما في العربية على رسم واحد لا تميّز بينهما إلاّ النقط . ولهذه المدينة في عقل رفيقي أثر كبير ، فقد تساءل كثيراً عن أمر هذه المدينة ، وتخيّل أنها كباريس ولندن ، تعجّ بالطلاب والأساتذة ، والكتب والمطابع ، فكأنها جامعة عربية في نتاجها ، غربيّة مستشرقة في جهازها التدريسي ، عنها خرجت كتب التاريخ العربي كابن جرير وابن الأثير ، ومنها صدرت دواوين الشعر كالقطامي ولبيد ومُسلم بن الوليد . وكتب الفلسفة والنحو والحديث طبع على بعضها ليدن كذلك . فما شأن روّاد الجامعة ، أيتحدثون العربية بطلاقة ، وهل في المكتبات عرب من مواطنيه يعملون ؟! فأين المطابع ، وأين الطابعون ؟!

لذلك هبّ إلى « هولندة » مشغوفاً ، فطاف روتردام وامستردام ، ولاهاي ، ولها ذكريات وفيها مؤسّسات دولية ، فرأى أن الحرب أصابتها بشظاياها ، فقضّت مضاجعَها ، وهدمت بيوتها ، فاحتاج أكثر من مرّة إلى الشرطي يرشده إلى بيت يسكنه ، بعد أن رفضت الفنادق بعيد الحرب أن يستمرّ المستأجر ، في غرفته أكثر من أربعة أيام ، فهو عابر سبيل يغادرها إلى بيت يقيم فيه ، إذا كان يرغب في البقاء .

ورأى أن أحسن وسيلة يلجأ إليها هي أن يسأل المستشرق « كرامر » هذه الخدمة ، فقد اتصلتْ بينه وبين صديقي الرسائل من قبل ، فلم يخب ظنّه ، وحصل على ما يريد عند هولنديين لا يكادون يحسنون غير الهولندية ، ولا يعرفون من آسية إلاّ أندونيسيا ، وعاش بينهم خير عيش .

وكان يغدو مع الصباح إلى هذه الخزانة ، وفيها من المخطوطات العربية أثمنها وأعجبها وأنفسها ، اشتراها علماء هذه البلاد من أراض عربية ، وأقاموا في ربوع مقدّسة فكتبوا عنها وعن الحج كما فعل « هرخرونية » في كتابه عن مكة ، و « دوزي » في كتابه عن الأندلس وعن معاجم العرب وملابسهم ، و « ده خويه » في كتبه الجغرافية العربية ، و « وستنفلد » عن معاجم البلدان وأنساب العرب . . .

والعجيب أن هذه الخزانة لا تكاد تُعنى إلاّ بالنفيس النادر ، ممّا لا تجد له مثيلاً في مخطوطات استانبول على الغالب . ولهذا غرق صديقي في طيّاتها ، وظلّ يومه كلّه معها ، حتى اتّصلت الأسباب بينه وبين قيم المكتبة السيد « فورهوف » فسمح له بأن يحملها معه ليله ، إذا ما اشتدّ تشوقه إليها وعشقه ، فيصل معها الليل بالنهار !

ولقد قضى وطراً من مكتبة « بريل » ناشرة الكتب العربية ، فرأى أنها مكتبة عادية ، لم يتصوّرها خياله بهذا الاقتصاد في المكان والموظفين ، والطابعين . ولكنّ هذه القلّة كانت مصنعاً لهذه الكثرة من الكتب بفضل النشاط والجدّ .

ولم يكن يملّ عشرة هذه المخطوطات ، يقلّبها بين يديه ، ويرى فيها أشباح الذين طبعوا بعضها ، ويحلم بأن يرى سائرها مطبوعة محقّقة مفهرسة ، فهو يحب لقومه أن ينافسوا المستشرقين ، وأن يعملوا لتراثهم ، بعد أن انتشر التواكل ، وعمّ فيهم الاعتماد على هؤلاء العلماء الغربيين ، يطبعون النفائس ، وقومُه عن كنوزهم نائمون .

لذلك حمل صديقي عن مكتبة « بريل » كلّ ما طبعته من تراث ، وسيّره إلى بلده ، ليكون إلى جانب ما طُبع في العراق ومصر والهند والشام ، ويتجاور جهد وجهد ، فيسبح في بحر المعرفة وينظر إلى شاطىء الشرق وشاطىء الغرب ، كما تسبح الزنابق أمامه على شطئان هذه الأقنية التي شقّها الهولنديون ، فانسابت في هذه الأراضي المنخفضة ، وأعطت هذا النبت الذي يملأ الأرض بالطيب والعطر والألوان الجميلة . فكأن هذه البلاد جنائن تجري فيها الأنهار بكلّ سبيل ، لا تجد فيها الجبال ولا تقع إلاّ على سهول . ولكن المملكة تعيش بين المد والجزر ! . .

في بلاد الرافدين

عاد صديقي من رحلته الطويلة في الغرب عبر ألمانية ، وهولندة ، والدانمارك ، وفرنسة ، وإيطالية ، يصاحب المخطوطات ، وينظر إلى المخلوقات ، فيفيد من الماضي والحاضر ، ويتابع الدراسة والنظر ، ويظنّ أنّه يتم تعلّمه ، من غير أن يبالي بالأشواك حوله !

وما كاد يستقرّ في بلده حتى دعاه الدّاعي إلى السفر فجاءة إلى العراق ، وهي حبيبة إليه ، تمنّى كثيراً أن يطوف مرابعها ، وأن يستقرىء التاريخ في جنباتها ، فقد قرأ عنها كثيراً ، وحنّت أضلاعه شوقاً إلى ربوعها . ولقد تذرَّعت نفسُه هذه المرّة بمخطوطة نفيسة لها قصّة طريفة ، عشق خبرَها منذ زمن ، واشتهى أن يتصيّدها ، وكان يعلم أن الشّباك أرسلتْ قبله مراراً ، ولكنّها عادت خائبة مراراً ، فليجرّب حظّه مرَّة ، وليغامر ، إن كان السعي وراء المخطوطة مغامرة .

أما هذه القصّة فتعود خيوطها إلى سنوات خلت ، حين قرأ صديقي رسالة « كرتشكوفسكي » في الماجستير عن شاعر دمشقي ، وكانت هذه الرسالة تتحدث عن الشاعر الوأواء وجوّه ، وعصره ، وأميره ، وكان هذا العصر هو العصر الحمداني ، والأمير هو سيف الدولة . وصلة صديقي بالبلاط والعصر والأمير هي صلة المتصوف بالاسم الذي يتفانى في ذكره . فلمّا تُرجمت له مقاطع من هذه الرسالة ، وقد كتبها صاحبها بالروسية ، عرف أن للشاعر الدمشقي مخطوطة قديمة استقرت في النجف ، في حوزة الشيخ « محمد السماوي » . ولم يشأ هذا العالم العراقي أن يجيب المستشرق الروسي إلى طلبته

في وصف المخطوطة أو إعارتها ؛ وذكر المستشرق السبب « لأنّه أجنبي وموسكوفي » كما كتب في جملة رسائل قامت بين المستشرق وصديقي بالعربية .

ودارت السنون ، وأحبَّ صديقي أن يجمع دواوين العصر ، وما كتب حولها ، تناول بالترجمة الكاملة كتاب المستشرق الروسي وأعجب بدراسته للديوان ، وهام بمغامرة جديدة هي استلاب هذه النسخة الخطية مهما غلا ثمن التضحية .

وفجاءة اتصل بي يودعني ذات صباح على أن يعود من رحلته في العراق ، بعد شهر أو شهرين على عادته ، فهو يغيب ويغيب حتّى يظفر بأمنيته فإذا ظفر عاد فوراً .

ولما عاد في أسرع مما قدّر لنفسه ، جلس إليّ يحدثني عن أنباء انتصاراته ، فرحاً مسروراً بغنيمته الجديدة قال :

« بلغت بغدادَ ، فانطلقتُ إلى فندق سميراميس على دجلة ، وأنا أنظر في مياهه عن قرب لأقرأ سرّ الانقلاب على الخلفاء ، وقصّة الفتك بالوزراء خلال العصور الماضية ، وأسأله كم شهد من قتلى وجَرحى ، وكم رأى من قوّاد عباسيّين قضوا على أسوإ حال ، وكانوا قبل ذلك ملء الزمان ، ثم داسهم الجنود وقتلوهم شر قتلة .

والتقيت بالصحب العراقي الذي أعرفه ، ودار الحديث حول « السّماوي » ومخطوطاته في النجف ، وكلّهم على رأي متقارب ، يصف الرجل في حرص شديد ، وينصح بالبعد عن المغامرة ، لأنّها خائبة من غير شك ، فالرجل لا ينبيء الحكومة العراقية بما عنده من مخطوطات ، ولا يكاد يُطلع صحبه على بعض أمرها ، فما يعرف إخوانه أنّه سمح برؤية شيء مما يملكه ، فهو ضنين بهذه الجواهر أشد الضنّ .

وانصرف الزائرون المرحّبون ، وانصرفت نفسي إلى تدبير الأمر ،

وتقليب الحكاية ، أرى لي طريقة أنفذ بها إلى استخلاص النسخة ، فإن لم يكن ذلك ، فرؤيتها ، أو سماع الحديث عن وصفها ، ولن يتمّ الأمر إلاّ بزيارة « النجف الأشرف » ، فسافرتُ إليها صحبة صديق تفضّلت عليّ به وزارة المعارف ، هو المفتش « عبود زلزلة » ، وقادني الرجل إلى السماوي ، وأعلمني بكلّ شيء عنه .

فلمّا زرتهُ قمت بما أشير عليّ ، ولما عرض بعض بضاعته في الحديث عن كتبه التي تحيط بي ، كنت ، أشير إلى نسخ منها في خزائن أوربة ، فينظر الرجل إليّ في حذر . فلمّا تحدثنا عن كشاجم ، والوأواء الدمشقي ، والسريّ الرفاء ، وكلّهم من شعراء سيف الدولة ، وقفتُ منه موقف الباحث المطّلع ، لا المشتري المشوق ، أصف نسخها في الغرب ، وأذكر أرقامها ، فينهض الرجل خلف الستارة ، ليعرضها عليّ ، فأقلّبها وأردّها إليه في تعفّف واستغناء . وكان بين النسخ مخطوطة الشاعر المنشود « الوأواء » وقلبي يتطلّع إلى مطالعتها ، وامتلاكها .

واصطنعتُ السرعة في القيام بعد أن تركت بين يديه مؤلفاتي عن الأدب الحمداني ، جعلتُها هدية ، وفاتحة اتصال ، وحاول الرجل أن يقف لهذه المنّة ، وأن يدفع ثمناً لها ، ولكنّني تركتها أمامه ، ونهضت مودّعاً شاكراً .

ولا تسل عن اللّيل الذي قضيته في بيت رئيس البلدية الحاج « صادق شمسة » . ولا تسل عن دهشتي كذلك حين أنبأني ربّ البيت في صباح اليوم التالي بأن الأستاذ السّماوي قادم إليه ، وأنها المرّة الأولى التي يقوم بها هذا الشيخ بزيارة بيت الضيافة .

ولا أخفي ولا أكتم أنّي فرحت بالزائر المبكر ، وشممت ريح يوسف ، وحسبت أن الحديث يدور اليوم على ما كان من مخطوطات رأيتها في بيته ، وصدق الظنّ ، فقد بدأ الشيخ زيارته بالثناء على ما تصفّح من كتبي ،

وأمطرني بوابل من تشجيع ، وفي بطء وتمهّل أخرج من إبطه دواوين العصر الحمداني ، وفيها ديوان الوأواء ، هديّة وتسديداً لما أرسلت بين يديه .

وتدرك يا صديقي مبلغ فرحي بهذا النصر ، فقد وقعت إليّ نسخة ، أشار إليها المستشرق الروسيّ منذ خمسين سنة ، وقضى دون أن يراها ، أو يوفق إلى تصويرها ، وسهرتُ الليل أتلمّس النسخة الحبيبة ، « ليلى » القابعة في العراق ، فقد أصبحتْ ملكي ، وستكون ملك القارىء العربي الأديب ، يفرح بها كما أفرح بعد طبعها وتحقيقها على النسخ الأخرى .

ودعيتُ في اليوم التالي « بالنجف » إلى بيت النائب « صادق كمونة » ، فحدثني عن مخطوطة لشاعر أحبّه ، ولم يقع على نسخة مطبوعة من ديوانه ، وحمل إليّ مع صحاف الأكل الطيّبة مخطوطة « الوأواء الدمشقي » ، وهي نسخة أخرى جليلة ، دفعه الكرم إلى أن يجعلها وديعة عندي ، حتى يتم صنيعي لديوان الوأواء .

وطبعي أن أعود إلى دمشق بعد هذا بالنسختين الثمينتين لشاعرها منذ عشرة قرون ، أتلمّسهما اليوم مصوّرتين في خزانتي ، فأتذكر صيد الشباب الثمين ، وأترحم على الشيخ محمد السّماوي ، كلما رأيت رسائله المذيّلة بتوقيعه المشهور « العبد ذو المساوي محمد السماوي » ! فقد حرم من قراءة الديوان كلّه مطبوعاً لأنه قضى قبل شهر من صدور الطبعة ، بالمجمع العلمي العربي بدمشق ، ولعله نعم بما أرسلتُ إليه من مطبوعات دمشق ، لأني علمت أن خزانته تفرّقت بعد موته ، وما نفعها أنّ صاحبها كان ضنيناً بها كلّ الضنّ » .

ووقف صديقي عند هذا الوصف لصيده في النجف .

على ضفاف البوسفور

يحب صديقي أن ينتقل في حديثه من صورة إلى صورة ، وأن يثب من خاطرة إلى خاطرة ، ومن قطر إلى قطر . وقد وقف هذه المرة عند تركيا وراح يحدّثني عن هذه القصور المزخرفة على ضفاف البوسفور في لذة ، كأنه يقرأ من سطور قصّة مثيرة ، يقول :

« لقد شهدتُ في استانبول مؤتمر المستشرقين للدراسات عن اللغة العربية وآدابها وتاريخها ، في عاصمة « الخلافة الإسلامية » سابقاً . وعشنا بين مشاهد جميلة ، فكانت مياه البوسفور تتراكض أمام أعين الزوار تحكي قصّة الخلفاء الذين حكموا العالم الإسلامي وشطراً من أوربة . وكانت القصور البيضاء المزروعة في قلب الحدائق المنمقة الواسعة ، تروي بأشكالها والحروف التي ترمز بها إلى أسماء الخلفاء حكاية عهد ساد حيناً حتى شابه الخلفاء من خيار الأمويين والعباسيين ، وتدنى أحياناً حتى شابه حكام المقاطعات في أذل عهود الإقطاعية والفوضى .

وكانت القصور تحوي قصصاً لم تُكتب بعد ، وجدرانها تشهد بالحكايات المختلفة من كل لون وطعم ! ولكنها تضجّ بالعظمة والبذخ والترف على كل حال . ولو تحدثت زواياها لروت سير الرجالات الدهاة من العرب الذين وفدوا على الخلفاء ، وانقطعوا إليها ودبروا الحكم في أروقتهم ، فأدهشوا التاريخ .

هذه القصور البيضاء ما تزال صورتها تنعكس على البوسفور ، تقطعها السفن الصغيرة ماخرة زائرة ، لترى إلى المجد الذي أشرق واختفى ، وتختلس السمع إلى الأصوات الهامسة بين الجدران ، وقد أسرّت في أذن الخليفة عبد

الحميد أقوالاً لو كذّبها لتغيّر وجه التاريخ في المنطقة . فقد كانت تبث الذعر في الخليفة حيناً ، وتثير الشكوك في نفسه أحياناً ، وتقتل النصائح التي كانت تسعى إلى أذنيه على لسان المصلحين المخلصين ، فكأنها تطغى على صوت جمال الدين الأفغاني ، وتخفي صيحاته ، لتظهر أصوات المنافقين الذين ذهبوا بالملك الإسلامي إلى غير رجعة في هذه البلاد كما ذهبوا به في غيرها .

أجل ، على مقربة من هذه القصور انعقد مؤتمر المستشرقين ، وكان شعاره بالتركية « بين الملل مستشرقلر كونغره سي » والشعار دليل على سيرة الحكومة آنذاك ، فقد كانت السيرة عجيبة بين الشرق الذي يغمر استانبول في حاراتها وأحيائها ولهجاتها ومآكلها ومشاربها ، وبين الغرب الذي طغى على فتيانها المراهقين . فاتجهوا إلى الغرب بلباسهم وعاداتهم ، ومذاهب الرأي عندهم ، وأطلّوا من كوى ما تزال ضيقة ، وأحياء ما تزال متلاصقة . تسدّ القبور طرق المرور . وتنتصب الأعمدة الرومانية في عرض الشوارع . والعربي الشرقي يرسل الحسرة على البلد الذي أضاع جذوره الشرقية ، وحروفه العربية ، ليكون قطعة من الغرب ، وقد كفر بالشرق ، فلم ينجح ، وطار الملك وضاع ، وكانت ثورة في استانبول بدلت معالم البلاد .

وبين المحاضرات الغربية في جملتها ، والولائم الشرقية في أبهتها ، كنت أهرع إلى جوامع أياصوفيا ، والسلطان فاتح ، وقاضي العسكر ، وطوبقبو ، ونور عثمانية ، وبيازيد ، ومراد ملا وغيرها . . . فمآذنها أعمدة النور المصفوفة على مقربة من البحر كمنارات أطفأها الشك وخلا منها الأذان ، وصمّت فيها الآذان . وأصبح هذا الفردوس الجميل مرتعاً لكثير من المبادىء والآراء .

سئم العربي هذا ، وانصرف عن « المؤتمر » إلى ذخائر الجوامع من مخطوطات الخزائن فيها ، وعلى رفوفها آلاف النسخ المجلوبة من الشرق لأن

أصحابها يئسوا من العكوف عليها ، وظنوا أن الحكم العثماني خالد أبد الدهر ، فانتزعوها من بيوتهم وجعلوها هدايا للأمراء والحكام ، فأفسدوا بذلك جمال البيوت وضمائر الحكام ، وهذه علّة في ضعفاء القلوب والضمائر تهدم البناء العامر ، وتطيح بالملك الشامخ .

وفي هذه الخزائن وقعت على شروح للمتنبي جليلة دفينة ، تائهة ضالة ، فقد وشحها جهلاء المالكين بأسماء جديدة ، بعضها كتب عليه « سيرة الزيبق » وبعضها كُتب عليه « أشعار عنترة » وهكذا يطلّ العلم الناقص من الرؤوس الفارغة .

وسرتُ بعد استانبول إلى أنقرة ، ومنها إلى « قونية » ، وغيرهما ، وفي مدينة صغيرة بالأناضول دخلنا جامعاً صغيراً ، وغشينا غرفة للمجاورين فيه ، وعند كلّ نافذة ركز كتاب قديم ، للامساك بخشب الشبّاك ، خوفاً من أن يعبث به الريح ، وأمسكت بالكتاب أقلبه ، فأقبل الخازن الورع يقلّبه معي في جلال ، على أنه في أحاديث النبي الكريم ، قائلاً في خشوع : « بيغمبرمز كتابي » أي كتاب نبيّنا . . . وقعت فيه على شعر فحل توارثته الآذان العربية على مرّ ألف سنة ، وقرأتُ لشيخ يعلّق على الشعر تعليقاً ضاع منذ مئات السنين وضرب إليه العلماء أكباد الإبل ، فلم يقعوا عليه ، وعرفت بعد أن تصفحت « الجزء الثاني » في الشباك الذي يليه ، « والثالث » في الشباك بعده ، أنه لواحد الدهر في العربية ، صاحب « الخصائص » ، « وسر الصناعة » ، « والمنصف » أبي الفتح عثمان بن جني ، أستاذ المتنبي وصفيّه ، وصديقه فقد شرح شعره وفسّر غريبه ، وكان المتنبي نفسه يسأل عن سر المعاني في أبياته فيحيل الناس إلى ابن جني ويقول فيما روي عنه : « ابن جني أعلم بشعري مني » !

وترفقت بالكتاب . . رفعته من النافذة ، وضننتُ به أن يلقى الريح العاتية ، والعبث الكافر ، والشكّ الجاهل ، والغبار الذي قد يطمس على بهائه وجلاله ،

ورجوتُ أن يُعنى به القوم ، وفزعتُ إلى تصويره ، وضممتُه إلى إخوانه الشرّاح ، وجعلته على رأسهم ليصلح من شروح المتنبي ما أفسده الزمان ، وأضاعه الحدثان ، فغاب اللباب وطغى القشور ، حتى قامت في البلاد العربية ألسنة معاصرة تتناوله بالسخرية الأدبية ، وتنتقص من قدره ، وهو يمدّ لسانه لهم من وراء الغيب قائلاً :

إذا رامَ أن يَلْهو بلحْيَةِ أحمقٍ أراهُ غباري ثمّ قال لهُ الحق

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

في بلاد ناطحات السحاب

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

في العلب السامقة

كان صديقي لا يقف عند حد في أمانيه ، فهو يريد أن يرى وأن يعلم وأن يتعمّق وأن يقرأ ، وأن يطّلع ، لا يدري أي شيء يقدّم ، وأي شيء يؤخر . وهو لا يوفر رحلة أو نزهة ، كأنه يختزن كل شيء ليكون وفراً لعقله حين يتجمّد ، ولذهنه حين يتبلّد ، فكأنه كطير البجعة ، يطوف بحاراً وراء الصّيد ويجمع في جيبه ، عند العنق كلّ الصيد . فإذا عاد أفرغ ما اصطاد ليرتاح حين يقفر البحر . وكذلك صديقي كان يعود من رحلات الصيد ، وكأنه لم يقبض شيئاً كثيراً فقد كان يطمع في المزيد . فلما سافر من لندن إلى نيويورك ، ركب طائرة ذات طابقين ، وكانت فذة وحيدة ثم ألغيت بعد رحلته ، فرأى ما لم يرَ غيره ومضى في سفر رائع ما يزال يذكره .

ووصل إلى « نيويورك » في سبيله إلى زيارة جامعات الولايات المتحدة سنة ١٩٥٤ وطاف فوق بناياتها السامقة ، ونظر من الطائرة ، فبدت المدينة كأنها علب عالية من الاسمنت ، تشبه صناديق « الكرتون » المتشامخة ، في قوالب متشابهة ، بينها الشوارع كخطوط قاطعة ، وحولها الماء يحيط بها ، وكان الدخان يتصاعد من هذه الصناديق ليدلّ على أن شيئاً ما يُطبخ في هذه المدينة للشعوب العريقة في القدم ، والجديدة في الحضارة الزائفة ، والحديثة عهد بالاستقلال .

ونزلت طائرته بالمطار الواسع العظيم كما ينزل الطير في ساحة « البندقية » أمام الكنيسة ، حيث الطيور تسعى فيها متجمّعة ومتفرقة ، ثم تطير فرادى وجماعات وتحط بعد ذلك . فعرف أن هذه المدينة سلبت باريس أمجادها ، وسرقت من

جنيف وفودها ، واحتلّت في العالم محل الصدارة ، تأتيها الشعوب على ألوانها ، تستجدي العون ، أو تطلب الإنصاف ، أو تطرق بابها للشكوى ، وبعضها يأتي للتسلية والمشاهدة .

« ونيويورك » بلد استطاع أن يحتل مكان الشهرة ، لعلوّ البناء ، واطراد الشهرة ، وغلبة الحضارة ، فكلّ خبر يجب أن يرد عن نيويورك ، وكل عجيبة تولد هنا ، وتنتشر في أصقاع الأرض ، فالصحافة الواسعة ، والمكتبات العديدة ، والأقلام المشرعة ، تجمّع أكثرها في هذا البلد ، وسار ذكره في كل بلد ، كما يعتقد أحد الكتّاب الأمريكيين .

فلما هبطها صديقي قبيل الظلام ، ترك أمتعته في الفندق الذي رسم له ، وخرج قبل الليل يجوب العاصمة الكبيرة في وضح النهار ، على عادته في كل بلد نزله . وضرب في الطرقات الطويلة ذات الأرقام الكثيرة ، ومعه وريقة كمخطّط لغزو الجنود يمسك به قائد المعركة . وشعر بأن ظلام الجدران السوداء قد أخذ عن باريس كثيراً من وشاحه ، ولكنّ ارتفاع هذه الجدران جعله يمشي في خنادق عميقة ، ضاقت لها نفسُه أول الأمر ، حتى إذا سار غير قليل وغشي الظلام المدينة حقاً ، التمعت لعينيه أنوار عرفها في « باريس » فظنّ أنه بلغ حي « مونمارتر » وأنه مقبل على المسارح الكبرى في الدنيا الجديدة ، وعرف أنه في « برودواي » وأنه رأى منذ عشرين عاماً على أشرطة السينما تاريخها وقصّتها ، ودور السينما والعرض والمسرح فيها . والأنوار الكبيرة التي فاضت كالنهار كانت إعلانات لشارب اللفائف طويلة تناسب طبقات البناء ، وضخامة السكان . وإنها أكبر ما رأى من أطوال في الإعلان لحياته . فالدخان الذي يتصاعد من اللفّافة كان يبلغ الدور السبعين من العمارة .

وكانت الألبسة والقمصان والصحف التي تعلن عنها هذه الأنوار تشده لبه وعينيه ، فيقف أمامها كأنه ريفي وصل الحاضرة أول مرة في حياته ،

فهان في عينيه ما كان يراه من اعلانات « بيكاديللي » في لندن ، ومونمارتر في باريس .

وما استطاع أن يقف غير ثوان لأن الجموع سحبته بعيداً ، لا يدري أين يذهب به ، كأنه في تيار جارف من البشر ، فالملايين من سكان نيويورك زحفت كلها خلال الليل إلى الحيّ ، وسارت من غير قصد ، بل تدافعت تملأ الأرصفة العريضة ، فضلّ السبيل ، وأطاع الزحف نحو النور ، النور البعيد ، حتى رأى جموعاً حول باب كبير ، وزحاماً وإعلاناً ، ونساء ورجالاً وصخباً ، فدخل مع الداخلين ، ودفع بالعملة الكبيرة لئلاّ يسأل ، وقد تجمّع في جيبه كثير من العملة الصغيرة كأنه تاجر في سوق الصيارفة .

وأحسّ فجاءة بأنه في الظلام ، والمسدسات تلعلع ، فعرف أنه في دار السينما ، وعرف بعد قليل أن الدار تعرض شريطين معاً ليلاً ونهاراً حتى الصباح ، وأنّ سكان نيويورك قد ملّوا الصناديق التي يعيشون فيها طوال النهار ، فدلفوا إلى المسارح بقية الليل، وأقبل كثير منهم يروّح عن نفسه بهذه الروايات البطولية . فالخيل تجري ، والهنود الحمر يسدّدون السهام ، والرصاص يحتم المعركة ، وأصوات الجري والهرب تملأ القاعة دوياً ، على أحدث ما تعرض الأشرطة . وأطمأن إلى الظلام فرأى حوله أكثر المشاهدين قد راحوا يمضغون في أفواههم « اللّبان » والمآكل وأوراق التغليف تفتح حوله ووراءه والأرض تستقبل بقايا الورق . وأدرك أنه يعرف هذا الصنف من المآكل في بلاده ، فاستراح لأنه كان يألف ذلك في دور السينما ببلده ، وعرف مصدر هذه الحضارة الإنسانية ، والفم الذي لا يقف والعين التي لا تكف عن النظر .

وشعر بالضّيق الشديد ، فما انفرج النور عن معركة الرعاة ، رعاة البقر ، حتى هرع مسرعاً إلى الباب ، وقد فرح بخلاصه من السجن ، وخروجه من القبو ، ولم تغره جموع الزاحفين في منتصف الليل إلى القبو تنتظر الخارج المولود

لتتبع الداخل المفقود ، في ضباب الدخان، وحفيف الأكياس، ولعلعة الرصاص وضجيج الخيل والقطارات !

وسار بعيداً في قلب الجموع المتدافعة على الأرصفة يريد أن يتبع ذوق الجماهير في « العالم الجديد » فوقف عند باب كبير ، قد أطل منه تمثال كبير من ورق لامرأة فاتنة ، وأمامها إعلان لجوقة موسيقية ، ونظر إلى العنوان فإذا هو « راديوسيتي » . وعرف أن هذا هو الذي سمع عنه ، يقصده الأوربيون حين يصلون ، لأنه صالة الفنّ البديع في العرض الكبير . وهو أعلى ما في العالم تفنناً وإبداعاً وسحراً .

ودفع ورقة نقد كبيرة ، من غير أن يسأل كذلك فأعاد إليه الموظف قليلاً من العملة ، دسّها في جيبه ، وسار وراء الدليل ، فإذا هو في قاعة كبيرة وكبيرة جداً ، ربما كانت أكبر قاعة رآها في حياته ، وأمام مسرح كبير هو حتماً أكبر مسرح ، تمثّل عليه مشاهد العرض المذهلة ، عشرات وعشرات من الممثلين والممثلات والراقصين والراقصات ، يتناسب عددها مع الملايين العديدة من سكان « نيويورك » ، وتتناسب ضخامة أعدادها مع الناطحات من السحاب ، فكأن المسرح يتسع للسيارات والعربات والحدائق ، والأشجار الطبيعية ، والموسيقى تصدح ، والناس في وليمة تشبه العرس .

ورأى ما لم ير على المسارح : علبة تفتح على عدد كبير من فتيات حسان، تقفز منها أو ترقص فيها ، والأنوار تعكس مختلفة ، وآلاف العيون قد سمّرت بما يخرج من العلبة وما يدور حولها ، وكأنّ النساء حوريات خرجن من الجنان ، ليعرضن بعضَ ما يملكن تحت الأنوار اللاّهبة ، والتصفيق يدوّي إعجاباً ، والقوم لا يتحرّكون عن مقاعدهم ساعات ، يرون خلالها عشرات المشاهد ، تتقلّب أمام العيون ، والموسيقى تعبر عن كلّ حركة ، وكلّ حركة تترجم عن أدقّ الأصوات الموسيقية . ولقد أعدّ

المسرح ليكون راحة للقلوب التي تعبت في « صناديق » العمل خلال النهار ، يعمل فيه مئات ومئات ، في سبيل الفن ، أو الرقص ، أو المسرح أو الغناء ، فيدخله ألوف كلّ ليلة ، وينتظر الدخول إليه ألوف على انتظار لا يقلّ عن أسبوع غالباً ، إلاّ إذا كان الداخل غريباً لا يعرف للمال تقديراً ، ولا يستطيع للانتظار سبيلاً .

وقضى صديقي حتى الساعات المتأخرة من الليل ، وخاف أن يدركه التّعب أمام هذه المشاهد الجديدة وأن ينام مضطراً لما تركت الطائرة في رأسه وفي جسده ، فسعى إلى الباب ، وخرج في جهد أدركه منه الإعياء ، حتى إذا بلغ الشارع قفز إلى أول عربة تبلغ به إلى الفندق ، وهو على آخر رمق .

وكان في باحة الفندق الذي ينام فيه بقيّة الصباح ، رجال مقعدون في درّاجات ، قد توزّعوا حتى ملأوا الرّدهة والممرّات ، عرف فيما بعد أنهم أصيبوا بمرض الشلل ، أو أقعدتهم أتعاب العمل والحياة الصاخبة ، وضاق بخدمتهم أهلُهم وذووهم ، فركنوا إلى الفندق ينامون فيه ، ويلقون الخدمة المأجورة ، ويقضون فيه بقية الحياة .

ومع ذلك لم يستسلم صديقي للنوم سريعاً على تعبه من السفر ، وراح يفكر ويتفلسف ، ويستعرض الساعات التي قضاها مسافراً زائراً ، ويرى أنها أرهقت أعصابه في ساعات ، فكيف يقضي الناس الحياة ، كل الحياة ، في هذه البلد ! ؟

وأيقظه صوت « الخادم » تجلب له الفطور الخفيف في سرعة من غير انتظار ، وفي عمل من غير ابتسام ، وفي جديّة من غير عبث ، وعادت إليه بعد دقائق لتجمع ما أفرغ من صحون ، لأنّ الأكل ابتلاع ، والعمل إسراع ، والصعود إلى الغرفة في الطابق الخمسين ، والنزول من الطابق الخمسين يجعل دقائق النهار قصيرة ، يقضيها الصاعدون والنازلون داخل صناديق مقفلة تفتح على الطابق الأربعين ، والثلاثين ، والعشرين وتسمّى « المصاعد » في عرف

المدنية ، ثم تلفظ العشرات عند الوصول ، لتبتلع عشرات غيرهم عند الصّعود ، فلا نأمة ، ولا حركة ، وإنّما سكوت كأنّ الناس في حزن طويل ، ومأساة دائمة ، وحركة لا تقف ، لأنّها حياة « العالم الجديد » .

* * *

ومنذ الصباح وقف صديقي لبرنامج موضوع ، يصعد في المصاعد خمسين وستين ، ويهبط خمسين وستين ، فيحسّ أنّ قلبه يكاد يقفز من صدره شاكياً متألماً ، لأنّ قلبه الشرقي ما تعوّد أن يرقى خمسين دوراً في ثوانٍ معدودات ، وأن يهبط مثلها في ثوانٍ كذلك . فلمّا رأى في البرنامج زيارة الشاعر « إيليا أبي ماضي » والعشاء عنده في « بروكلين » ، وهي خارج نيويورك ، فرح فرحاً شديداً بلقاء الأخيلة البارعة ، والأفكار السمحة ، ولكنّه لم يفهم لماذا قصد القوم أن يبرح نيويورك في الساعة الثالثة ، والعشاء في السادسة !

وحاول أن يفهم سبب البكور فقيل له إن الأمريكيين يغادرون بالألوف عاصمتهم ، ليهبّوا إلى « عطلة الأسبوع » بعد ظهر السبت ، فالطرقات محتشدة دائماً ، وأسلم نفسه إلى السيارة ، وراحت تمضي في المدينة الكبيرة ، ولكنّها تسير سير السلحفاة ، فلم يعجب لأنّه في قلب الملايين والشوارع تغصّ بهم . فلمّا اجتاز « النفق » العبقري الطويل تحت نهر الهدسون والشرطة تهيب بالسائقين أن يسرعوا خوف الصدام أمامهم أو خلفهم ، وخرج إلى الطريق العالية « هاي واي » تنفس الصعداء بعض الوقت ، فالطقس يميل إلى الحرارة ، والسيارات راحت تقف في وسط الطريق لصعوبة السير ، والزحام ، والمحركات بدأت تشكو الأناة ، لأنّها على عكس الجمال ، تعجز وتضجر في الزحف البطيء . فساءل نفسه عن فرح القوم بالخروج من البلد إلى الريف ، وهم يقضون ساعات تشبه النزع تستنزف كل ساعات النهار لبلوغ الريف ، حتى إذا بلغوه مع المساء عادوا أدراجهم ، وقد

استنشقوا « عبير » النفط المحترق ، وحركوا أيديهم ألفَ مرّة في الوقوف وفي السير ، وعيونهم ملتصقة بالمرآة ، تنظر بها إلى الوراء وتحدّق إلى الأمام ، ثم تمرّ بالسيارات وقد رفع عنها الغطاء ، لتتبرّد في حر السّير والجوّ ، فكأنها فغرت فمها للشكوى ، وبسطت يديها للدعاء على هذه الحضارة .

وألحَّ صديقي على دليله أن يفتح جهاز الراديو ليستمتع ببعض الموسيقى ، فينفّس عن كربه وضيقه ويطرب بالأنغام الحالمة ، فإذا بالموسيقى العنيفة الحديثة تنزل على أذنيه صاخبة أبداً ، وطبل التوقيع يرنّ ويطنّ ، وإذا بالموسيقى تنقطع فجاءة كلّ عشر دقائق لتعلن ، وماذا تعلن ؟ إنّها تعلن أنَّ عدد الضحايا خلال هذا السير على الطرقات منذ بدء « نهاية الأسبوع » (الويك أند) قد بلغ عدة مئات على طرقات الولايات المتحدة كلّها .

واستبدّ به الجزع والفزع ، والسيارات تمرّ عن يمينه وعن يساره ، فلا يفهم لذلك سبباً ، ولكن صاحبه أنبأه بأنَّ السرعة محدودة في كل خط من خطوط الطريق فهي تبدأ بالأربعين ، فالخمسين فالستين ميلاً ، وربما بلغت الثمانين ، فالمئة ، فإذا أراد أن ينتقل من سرعة إلى سرعة فعليه أن ينتقل من خطّ إلى خط ، وعليه أن يكون واثقاً من أنّه لا يقف خلال ذلك ، فإذا وقف فجاءة ، فالقضاء الحتم أن يصطدم به من يأتي بعده في سرعة أو يقف أمامه فجاءة ، وهناك الخطر ، وربما كان الموت .

وهنا اغتمّ صديقي ، ونزع إلى الرجوع ، ولكنّ ذلك عسير كذلك ، فالطريق طويلة ، يجب أن يجد فيها مخرجاً ، والمخرج بعيد . فأسلم نفسه إلى القدر ، وبعد ساعات طويلة بلغ إلى « بروكلين » ومنّى النفس بلقاء الشاعر « أبي ماضي » ، بعد أن سئم الصناديق المقفلة في الفنادق والمصاعد والطرقات ، والعربات المقفلة في طرق النزهة .

فإلى الحرية والانطلاق عند إيليا أبي ماضي .

أحلام شاعر

كان صديقي يمنّي نفسه بالوصول إلى « بروكلين » ليستريح من عناء السفر ، والمسافة قصيرة ، ولكنّه كان يحسّ أن الطريق « مرأب » للسيارات ، بعضها قد تعطّل عن الحركة ، فوقف . وبعضُها سار متعرّجاً حتى وصل . وصديقي حين يضيع في زحمة الضجيج والحركة يستسلم لآرائه . ويظنّ أن فيها ما يستحق التسجيل ، ويحسب أنّه رقى مدارج الفلسفة الحقّة ، ويودّ أن يسطّر هذه الآراء ليضحك منها فيما بعد ، كما يضحك الإنسان من عباراته القديمة في سنّ الطلب والدراسة الابتدائية ، فقد يرى فيها عبارة طموح ، وقد يرى فيها عبارة يأس ، وبينهما صفحة واحدة ، وقد يتخيّل أنّه سيصبح شاعراً محسناً أو فيلسوفاً متشائماً ، أو قائداً منتصراً ، فيما يستقبل من عمره وأيامه . . .

والآراء التي اختلفت إليه وهو في هذا الزحام كثيرة ، بعضُها لا يستحق النظر ، وبعضها كان يشغل أيامه ، فهو يفكر في هذا الشّعب فهو يقضي أكثر عمره في مصاعد العمارات أو داخل السيارات ، كما كان العرب يقضون أكثر أيامهم في الطريق ، على ظهور الجمال ، يقطعون الفيافي والقفار ، وهم مع ذلك سعداء في عيشهم ، وهؤلاء الأمريكيون سعداء في عيشهم كذلك . فلمّا بلغ « بروكلين » عرف كيف يقود الطريق المزدحم إلى هدوء وراحة وأمن . فالعمارات الصغيرة الأوربية تكاد تختلف عن « نيويورك » اختلاف القارة عن القارة ، فليس في نيويورك زهر إلاّ في المتجر الذي يبيعه ، وهنا أمام كل بيت حديقة لا يسعى إليها الساكن ، وإنّما تسعى إليه بأريجها

وعطرها ، وتغدق عليه كلّما أغدق عليها الماء والعناية والرعاية . والبيوت متباعدة فيما بينها وخاصة في الأحياء الغنية ، تكاد تكون مستقلة ، فلا يتقابل السكان في المصعد ، ولا يشتركون في الباب ، ولا ينتظر بعضهم بعضاً للمرور ، وإنّما هي حرية كاملة في الاستقلال والانفراد والعزلة .

وفي هذه الأحياء سكن « إيليا أبو ماضي » لأنّه شاعر يحبّ العزلة ، والهدوء ، والحرية ، ويعشق التفكير والفلسفة ، ويودّ أن يملأ شعره بالتساؤل والتشكّك عن مصير الحياة وهدف الإنسان ، واختار لسكنه منزلاً هادئاً ، كأنّه في ضاحية من ضواحي الريف في إنكلترة ، في الطابق الأول ، ينزل إلى الحديقة على درجات قليلة ، بل إنّه في قلب الحديقة ، فالشجيرات تصعد إلى شباكه ، والورد يجاور السلالم وينتشر على أطراف المنزل ، وجدران البيت من حجر يشبه الحجر الذي كان يعيش فيه بلبنان ، فكأنّه اختار بيتاً لبنانياً في قلب « بكفيا » ، تتشابك حوله الأغصان وينتشر منه العطر .

وأما اللّقاء بين صديقي والشاعر فكان على شوق وحب ، وانتظار ، فقد التقيا حين وفد الشاعر إلى سورية إثر الجلاء ، سنة ١٩٤٨ ، وأنشد فيها على مدرج « الجامعة السورية » قصيدته المشهورة في وصف الشام ونضالها التاريخي ، وتحية رجالاتها الغابرين والحاضرين والمجاهدين ودوّى التصفيق لأبياته فيها يخاطب رئيس البلاد آنذاك :

أعميد « سورية » وكاشف ضرّها ... خلقتْ يَداك من الشّيوخ شبابا
وبلابلٌ كانت تئنّ سجينة ... أطلقتَها وأطرتَها أسرابا
يا صاحب الخلق المصفّى كالندى ... لو لم تكن بشراً لكنت سحابا

وكانت قصيدته الطويلة البارعة موضع الإكبار والإعجاب ، وقد نسج لبردى والغوطة بُرداً من الوصف سار فيه على دروب « شوقي » ، وحنّ فيه إلى

العرب الأقدمين ، فكأنّه ما قدم من نيويورك بعد طول سنين ، ولا جاز البحار والممالك غريباً مهاجراً ، وكأنّه ما أقام في المهجر حياته بعيداً عن الشرق في الشعر والخطابة وصعود المنابر بين العرب . وكأن الزّمان لم يضرب بين شبابه في الإسكندرية وحياته في بروكلين بعشرات السنين ، فكان في بيانه وقوافيه مقيماً كأنّه يعالج الموضوعات اليومية في كل ساعة ، وكان في معانيه كمن ينقل إلى هذه الربوع عطر الشعر المهجريّ وحنين الغربة وأسى البعد .

لقد كان « إيليا أبو ماضي » يرحّب بصديقي أجمل ترحيب ، ويصفه لزوجه بأنّه من البلاد التي زارها فأكرمته ، ومنحته الحبّ والعطف والتكريم ، ثم زاد على ذلك فوصف صديقي بأنّه يحفظ شعره . و « إيليا أبو ماضي » كان خلال هذه الجلسة يتصدّر شيوخ لبنان في المهجر وكانت صبايا لبنان تتحلّق حوله بعيونها الفاتنة وآذانها المرهفة ، تستمع إلى هذا الحديث بين عربيّ وافد وعربيّ مقيم ، وتعجب للحديث كيف يدور حول « الشعر » فحسب ، وكيف يمضي متحدّث بعض الساعة عن القوافي ، ولا يذكر المال والدولار ، ولا يُعنى بالسؤال عن الحياة الاجتماعية ، فالقوم هناك في قلق على أهليهم الذين خلفوا بلبنان في جروده وسهوله وقممه . كانوا في قلق على أحوالهم الاجتماعية ، وكانوا يتساءلون عن زيارة صديقي وعن هدفها ، فلمّا بسط أنها للتعارف عجبوا ودهشوا ، ثم سألوا الشّاعر كيف يزور صديقك هذه « الدنيا الجديدة » ، ولا يجمع المال للقرية التي جاء منها ، ولا يجبي للمدرسة التي أنشأتها القرية أو للكنيسة التي عمرها أهل القرية ، فمن عادة هؤلاء الذين يفدون أن يجبوا وأن يجمعوا وأن يعودوا بزاد كثير .

أدرك صديقي أن على أفواه القوم شيئاً يقتتل على اللسان فلا يفصحون عنه ، وهو السؤال عن الحال في الشرق ومستقبل البلاد ، ولكن « إيليا أبا

ماضي » كان في أبعد حدود الذكاء حين أنقذ صديقي من ورطات السائلات والسائلين ، فجره إلى حديقة المنزل ، وأخرجه من حلقة المحكمة ، وحدّثه عن القوم .

كان حديث الشاعر عن حياته يختلف عن حديثه في قوافيه ، فقد كره عشرة الناس هنا وحمل عليهم أنهم لم يتبدّلوا على تبدّل الدنيا والإقامة ، فلم يحسّوا إلا بظاهر العيش والحضارة وهم ما يزالون في الطين ، الطين الذي اخترعه أبو ماضي في « شعره » ، وأحبه في صوره المختلفة ، ورأى أنهم لاصقون بالطين ، لا يكاد أكثرهم يقرأ ما بين يديه ، ولا يكاد أكثرهم يتلفّت إلى الشعر والخيال ، فهو بينهم خياليّ شاعر ، يرافق الضّيق ويصاحب الحاجة ، ويعلق بالشكوى ، لأنّه عربيّ دماً ، ولساناً وحساماً . وحسام « أبي ماضي » ما كان ماضياً في نيويورك ، رغم أن صاحبه قد استلّه منذ سنين ، ولكنّ بريقه امتد إلى العرب في كل أصقاعهم وغاب عن قومه في بروكلين فجريدته « السمير » أخرجها خلال سنين للتطور في الشعر ، والتجديد في المعاني ، والثورة على القديم ، ولكن القوم في شغل شاغل عن الشاعر ، لأنّه كان يعيش مع أحلامه وأمانيه . وأنشأ مطبعة عربية ، وجريدة عربية ، ودواوين عربية ، فظل غريباً في قومه ، يرطنون بالإنكليزية ، ويسعون إلى الحياة الأمريكية في تقليد عجيب ، لا يربطهم بلبنان إلا الحنين إلى الأهل ومآكل البلاد وموسيقى المطربين من ربوع الشرق .

كان أبو ماضي يحدّث صديقه عن قومه العرب في المهجر ، فيصفهم في مستشفى قد ركزوا فوق أسرّتهم أيقونات للدعاء والرجاء والأمل ، وهم يعبّون دخان المصانع ، وتبتلع صدورهم ما ينتج الغربيون ، فإذا أمسى المساء ركنوا إلى سهراتهم الشرقية ، وأكلوا مآكلهم اللّبنانية السورية . فلمّا أمسى المساء حمل صديقي إلى بيت أحد الأثرياء من السوريّين ليرى رأي العين ويحكم بنفسه.

وفي هذا البيت علا اللغط والصياح ، والحديث المتشابك ، والآراء المترجمة ، والألفاظ المنقولة ، ثم وضع سماط الأكل ، فكانت الصحاف الشرقية والكبة بالصينية ، وأنواع المحشي والأيدي تنزل وترتفع ، ثم ينسحب الواحد بعد الواحد ، فكأن المعركة في « المحيدثة » بلبنان أو في « بكفيا » على كتف الوادي الساحر ، والفواكه تملأ المائدة ، والصبايا يتشاركن في خدمة البيت والوليمة .

وحسب صديقي أنّه في الشرق ، وسمع الموسيقى العربية ، وطرب للألحان القديمة التي حملها هؤلاء الشيوخ معهم من الشرق في صدورهم ، ونفضوها أمام أولادهم كلّما حنت صدورهم إلى الماضي ، ولا تسل عن حرية عجيبة بين أفراد الأسرة ، وصراحة أمريكية ، وأسماء تنادى من غير كلفة ، فالقرية هنا قد انتقلت إلى حضن نيويورك ، على مقربة من ناطحات السحاب .

وعاد صديقي مع شاعره خلال الليل على الأقدام ، وهمس الشاعر العصامي في أسى وحسرة على ما أضاع من حياته ، فهو لم يتأثر بالثقافة الغربية كما يجب أن يتأثر ، ولم يستطع أن ينقل الشعر العربيّ إلى « برج جديد » كما أحبّ ، وإنّما حاول أن يفعل فوفّق أكثر ممّا وفّق شوقي وشعراء أبولو في موضوعات وأفكار رفعت شعره وقوافيه إلى التوفيق الجميل . ولقد اعترفَ الشاعر لصديقي بأنّه وزملاءه قد سكنوا الغرب ، وفتحوا نافذة صغيرة عليه ، ولكنهم تركوا الباب الكبير مفتوحاً على الشرق القديم ، فتأثروا بتيار الحنين والحب إلى الماضي ، أكثر ممّا تأثروا بالمستقبل . ولكنّه شاعر عاطفي مفكر يعتزّ بأنّه يهيم ليله ونهاره ، في وديان بكفيا وجبال لبنان ، ولكنّه لا ينقطع عن التفكير بقومه والإنسانية ، ويصطاد الأفكار والأخيلة ولكنّه يصطدم بالشكوك ويقف عند الأسئلة المحيّرة .

ولقد تأثّر صديقي بعزلة « إيليا أبو ماضي » عن مواطنيه العرب هناك ،

فهم لا يدركون سرّ شعره ولا يقرؤون صحائف جريدته « السّمير » ففكر في بيع المطبعة ، وجعل أولاده في الجيش ، وفي مدرسة « الذرة » ، وفي الأعمال الأمريكية ، لئلاّ يعيشوا غرباء بين الأمريكيين ، وغرباء عن العرب في أوطانهم الأصلية الأولى .

وغادر صديقي « بروكلين » ، بعد أن ودّع شاعره الكبير العبقري الحبيب وداعاً لم يكن لقاء بعده ، وسافر إلى ضاحية أخرى من ضواحي المنطقة ، فهو يطوّف فيما يسميه الأمريكيون « إنكلترة الجديدة » وبلغ إلى « برنستون » حيث وجد عمارات تشبه بيوت الإنكليز نفسها على طابقين ، وشوارعها محجوبة عن السيارات لا تكاد تدخل بين البيوت ، وإنّما تقيم في مواقفها ، تحف بها الحدائق والأشجار ، وتغني على دوحاتها سجعات الأطيار .

و « برنستون » نفسها حلم شاعر ، ومسرح الفكر ، وحديقة العزلة ، يسير الناس فيها على الأقدام ويتنقلون على أرصفة واسعة عريضة هي الشوارع ، وفنادقها من الهدوء التام ، والسكون الشامل بحيث تعيش في القرن الثامن عشر لا تكاد تسمع فيها إلاّ الهمس في التحيّة بين الجار والجار .

أحبّها صديقي وفُتن بها ، وتمنّى أن يقضي عمرَه كلّه بين « خزانة الجامعة » التي تحوي آلافاً من المخطوطات العربية ، والمصادر الأجنبية المختلفة ، فالعيش العلمي هنا ميسّر لمجانين العلم ومشغوفي المعرفة ، يستنفدون السنين في تحبير الكتب ، ومطبعة « برنستون » تتلقّفها ، في إتقان وجمال ، ويقضون العمر في مناقشة التاريخ والفلسفة والاجتماع والأدب والقانون .

ولقد وجد صديقي في الدكتور « فيليب حتّي » راهباً من رهبان هذه المعرفة ، وأستاذاً من أساتيذ الجامعة حقاً ، يسعى إليه طلابه في البيت ، فيشربون الشاي على أنوار خفيفة خفيّة ، كأنها تستحي أن تعكّر صفو

المناقشة ، أو تفضح سرّ العلم الذي يثيره هذا اللبناني العربيّ ، في كتبه عن « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » ، فقد ألّف ما استطاع أن يكتب عن بلاده ، وحضارة العرب فكأنّه جماعة في شخص ، وهيأة في رجل رغم بعده عن الجوّ العربي الاجتماعي الدائم . فهو يعيش مع الكتب العربية ليله ونهاره ، ويكتب بالإنكليزية العلمية مؤلفاته التي تترجم إثر ظهورها ، وتملأ الرفوف في الدنيا ، فترفع للعرب منارة هناك ، وتصبح من وسائل الدعاية لبلادنا ، من غير أن تنفق حكوماتنا شيئاً في سبيل هذا الخير العميم الذي يسوقه إليها هذا العالم .

إن الحياة التي يحياها الجامعي في « برنستون » تكاد تكون حياة مثالية لطلاب العلم في العصر الحديث ، فهي تشبه إلى حد بعيد حياة الجامعات القديمة ، وأخصّها أكسفورد وكمبريج ، وتوبينكن ، « وهالة » ، فيها قلق المعرفة ، وشرود التساؤل ، وعمق الفهم . وكثيراً ما فكر صديقي خلال هذا الشرود وهذا التساول بأفكار عجيبة ، وتمنّى أن تتحوّل « جامعات » الشرق إلى ما يسمّيه العلماء « سامينار » يجلس الطلاب فيها حول المراجع ، يقتلون نهارهم بالقراءة ، فإذا أمسى المساء ، صعد إليهم الأستاذ في غرفتهم ، فسألوه وأجاب ، وكثيراً ما قدموا إليه في بيته ، فسألهم عمّا كان ، ونفضوا أمامه خلاصة ما عرض لهم من مشكلات وآراء لم تقض فيها عقولهم الشابة كما يجب . وكثيراً ما تمنّى صديقي أن تكون حياة إيليا أبي ماضي في « برنستون » منذ وفد إلى أمريكا ، بين هؤلاء الأمريكيين حقاً ، يرتاد الجامعة ويختلف إلى خزانتها ، ويبتعد أشد الابتعاد عن الصحافة وعن قوافي الشعر ، فينقطع الخيط القديم بينه وبين الأحلام الشاعرية ، ويتّصل بخيط جديد وثيق من المعرفة والعمق والشكّ ، فقد عالج ذلك في شعره ، ولكنّه عالجه على جسر من الأحلام الشعرية ، ولو قدّر له أن يلج « قصر العلم » في برنستون لكان أبو ماضي سيّد النقد الأدبي في العصر الحديث باللّغة العربية شعرها ونثرها .

ولكنّه عاش شاعراً وقضى شاعراً ، وخلّف القوافي العربية في كلّ بلد عربي ، وعلى كل فم عربي يتذوق الأدب القديم والقوافي الموسيقية .

ونظر إليّ صديقي يسألني عن رأيي في تفكيره فما زدت على الابتسام الهيء ، وهمست في أذنه :

إنها أحلام شاعر .

في نهاية الأسبوع

سئم صديقي ارتفاع المصاعد وهبوطها ، فقد كان يحسّ في كل دقيقة بأن شيئاً في صدره يحاول أن ينفصل عنه ، وهو حريص أشد الحرص على ما في صدره ، فهو الوحيد الذي بقي له ، يعتزّ بصداقته ، ويودعه أسراره العميقة ، ويرى فيه مدفن آماله ، ويسمّيه إذا خلا إليه « صندوق حياته » ، ففيه صحائفه البيضاء والسوداء ، وفيه غروره وطموحه ، وفيه آراؤه الغريبة التي لا يحبّ أن يفضي بها ، وتفلسفه الذي لا يطّلع عليه أحد ، وهو مطمئنّ إلى أنّه لا ينطق ولا يفضح خلال حياته ، فالنبضات لا يفهمها إلاّ قلبه ، وإذا قضى سكتت معه ، وحوّل الأسرار إلى رماد تذروه الأنفاس .

أجل كان صديقي حريصاً على هذا الشيء في صدره ، يصعد معه فينبض في سرعة ، ويهبط معه فكأنّه يقف فجاءة . لذلك أراد أن يرأف به ، وأن يستريح وأن يريح ، ففكّر في أن يقضي آخر الأسبوع مع عربي ، من دمشق ، سكن في « بوسطن » منذ زمن بعيد ، واتخذ من تعابير دمشق القديمة صلةً بين قلبه وبينه ، فأحبّه ، وسكن إليه . فخرج إلى الضاحية التي يقطنها هذا السيّد الكريم ، والضاحية في « الولايات المتحدة » لوحة من جمال الأرض الوارفة في هذه الدنيا الفانية ، عطر وسحر ، وهدوء وقرار ، يهرع إليها المُتعبون ليسعدوا بالبعد عن الحركة ، الحركة الدائبة الدائمة ، التي يعيش فيها سكان الولايات . يعملون خلال أسبوع كامل ، كما يعمل العمال ، مهما اختلفت مراتبهم ودرجاتهم في الحياة ، في ساعات تغلو وتزيد ، كلّما ازداد العمل ، يعملون على اختلاف طبقاتهم في فخر واعتزاز ، لأن البطالة عندهم من شأن

السكير العربيد اللاّهي ، ولأنّها شعار الموتى والحمقى ، فلا راحة خلال الأسبوع ، ولا عمل في آخر الأسبوع ، مهما كان الأمر .

ولقد فكّر صديقي بآخر الأسبوع ، فرأى أنّه يوم مقدّس عند القوم لا يمسّ ، ولا يختلف إليه شك ، ولا تقوم فيه مشاجرة ، كأنّه عيد ديني مقدّس ، عيد للقلب وقد تعب من نضال أيام ، وعيد للعين وقد نظرتْ إلى كل ما فُرض عليها خلال أيام ، وعيد للعقل وقد فكّر فيما وضع أمامه خلال أيام . ولكنّ حرية القلب والعين والعقل تقع في آخر الأسبوع ، وتتمرّد على العمل المفروض ، وتقوم جميعاً بما تشتهي ، من نظر إلى سحر الطبيعة وقد جلتها الحكومة ، وقامت بتزيينها وتهيئتها كأنّها عروس ، فمهّدت الطريق ، وسهّلت السبيل إليها ، ورعتها كما ترعى المستشفيات ، لأنّها دواء تجرعه العين والقلب والعقل من غير مرارة ومن غير أذى ، فيالحظ هذا اليوم ويا لروعة التفكير عند أبي الطيب المتنبي حين يقول :

هو الحظ حتى تفضل العين أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيّدا

فالحظ آخر الأسبوع يجربه المتعب المحزون والسّعيد ، كأنّه جديد في كلّ مرّة ، لأنّه يهيىء له منهاجه في الراحة والعطلة ، كما يهيىء منهاج العمل والجهد سواء بسواء . والراحة عند القوم جدّ ، والعمل جدّ . وليست الراحة استرخاء للبدن ، واستلقاء على العشب ، وانصرافاً إلى الغناء ، يستمع إلى « الإذاعة » ، فيسبح في بكاء عبد الحليم ، ونحيب الأطرش ، وأنفاس عبد الوهاب ، وترجيع أم كلثوم .

وأول شيء فعله السيّد العربيّ في ضاحيته أنّه أعفى بيته الوثير من مذياع ، وأخفى وراء اللّوحات الفنية التي تغطي الجدار صوتاً ناعماً تسمعه القلوب قبل الآذان ، وتهتزّ له الصدور قبل الأبدان ، من موسيقى رفيعة تغني النهار

كلّه والليل جله ، فلا تحس أنها تفرض عليك ، لأن السيد « حسني محفوظ » يكره أن يفرض عليه أي شيء في يوم الراحة، لأنّه يوم حريته . والحرية عند الأمريكيين لا يعدلها شيء في الدنيا ، لذلك ترك الحرية لصديقي ، بين النظر إلى البحيرة « اللاّمارتينية » التي تلفّ البيت من أطرافه ، وبين الصيد فيها ، أو السباحة ، أو جولة القارب الهادىء ، أو تركيز القارب في وسط البحيرة ، ليصطاد الظلال والألوان بمقداف صغير أو يعبث بصورته على صفحة الماء .

ولكن السّماء أنذرت بالغيوم بعد قليل ، فركب صديقي مع صحب له في البيت يطوفون به أرجاء « الولاية » ، وما يجاورها من ولايات . واطمأن إلى أن هذه الولايات تخلو من زحام السيارات لأنها بعيدة عن الحواضر الكبيرة ، فليست تشبه نيويورك أو شيكاغو أو سان فرنسيسكو ، وتساءل عن الهدف فأجابه هؤلاء المتأمركون أنهم يخرجون عن الولاية ليخرجوا عن هذا الطقس إلى غيره ، فجريدة الطقس تعلن أن طريق نياغارا ، أو الولاية التي تجاورها تخلو من أمطار هذا اليوم . ولاحظ صديقي أن صحبه راحوا يرسلون في صندوق السيارة علباً كثيرة وأدوات وزجاجات ما عرف لنقلها سبباً . وانطلق مع الصحب في الطريق ، بين الغابات ، لا يكاد يرى الشمس إلاّ من خلال الأغصان ، كدنانير المتنبي على الأرض في « شِعْب بَوّان » وحصان القرن العشرين يجري في سرعة مرسومة لا تزيد ، لأن الكتابة والتعليمات لا تحدّ الحرية ، وإنّما تنظّم الحرية العاقلة ، خوفاً على حياة الناس ، وشارات الطرق تملأ السبيل إلى « نياغارا » يتبعها سائق السيارة ، كأنّها صفحة للإشارات الموسيقية والعلامات في الأصوات ، يتقيّد بها المغنّي والعازف ، فلا سبيل إلى إطلاق شيء هنا إلاّ بقدر مرسوم وكتابة ورسوم ! . . .

وعلى الطريق بُعَيْد الساعة الثانية ، رأى صديقي أقواماً ، قد تجمّعوا تحت الشجر جماعات جماعات ، وقامت حركة غريبة عرف بعدها أن كلّ

مسافة تحوي مائدة مزروعة في الأرض من خشب ، مجلوة نظيفة ، وحولها سلال فارغة ، وبين المائدة والمائدة ما يكفي للحرية البعيدة ، والاستقلال العجيب . وفجاءة وقفت سيارة الصحب ، فنزلوا ، وأُنزلت العلب ، وقام الرجال والنساء يصنعون الغداء ، لحم في العلب ، وزبدة في العلب ، وخضرة في العلب ، وخبز في ورق رقيق لمّاع ، والعاملون على الغداء قد لبسوا الكفوف ، وراحوا يشتغلون وفاق الكتابة المرسومة على كل علبة ، فالمقادير معيّنة ومقدّرة ، لكل شخص علبة أو بعض العلبة ، فلا تزيد حاجة آكل ، ولا تطمع عينا الآكل في حصة إضافية ، فالأمر معلوم ، ولكلّ امرىء حصّته . فإذا أفرغ ما فيها رماها في السلال المنتصبة ، بهدوء ونظافة ، فلا يتقبّل العشب استهتاراً ، ولا ترضى الأرض في الخلاء بمن يحتقر الأرض ويزدريها .

وفي دقائق كان « مطعم » الصحب يحوي كل ما تشتهي العين ويلذّ النفس ، في الخلاء المترف ؛ فلا ينقص بهار ولا ينقص ملح ، ولا يحتاج القوم إلى ماء فالماء في أنبوبة قريبة ، صنعتها الحكومة لراحة الشعب ، وجهدت خلال الأسبوع كما جهد الشعب ، في سبيل الطمأنينة والراحة ، لأن الحكومة تعرف أن العمل الدائم يفني النفوس والأجساد ، وأن الأجسام لتتعب بالقلق ، ويقتلها السأم ، فيجب أن تجدّد العزم آخر الأسبوع لاستئناف العمل أول أيام الأسبوع .

وفي دقائق كذلك بعد الوليمة الفاخرة ، تجمّع الورق الكثير والعلب الكثيرة في السّلال المزروعة على الطرق ، فعادت النظافة إلى المكان ، وخلا المكان من السكان . وأقلعت السيارة بصديقي بعد أن نظر الصحب على الخارطة نظراً غير قليل ، وتردّدت أرقام وأرقام ، فسلك الصحب رقم (٢٥٤) وهو طريق يؤدي إلى « بافالو » فكأن الرحلة لا تقوم ارتجالاً ، ولا تجري

اعتباطاً ، وإنّما تمضي وفاق الخارطة المرسومة للطرقات المفصّلة ، كما تمضي الحروب ، فتنظر القيادة في خارطة المعركة وطبيعة الأرض ، وخطّة القتال . والجدّ في كلّ شيء شعار النظام ووسيلة الحياة إلى القرار والسعادة .

واستمتع صديقي بالطريق وما على الطريق من إعلان مهذّب مخترع ، ومن إبداع وابتكار ، وسبح في خياله يوازن ويوازن ، ويأمل ويتمنى . ولكنه سرعان ما استغرب وقوف الصحب ، لسيارة عليها إثنان في ملابس موّحدة ، فحسب أنها شرطة التفتيش لتنظيم السير . ولكنّه علم بعد ذلك أن الشركة التي تُعدّ السيارات وتصنعها ترسل على الطرقات موظفيها ، خلال هذه الأيام المزدحمة بالسيارات ، لتسأل أصحابها عمّا يحتاجون إليه من خدمة في الإصلاح وفي الأضرار التي قد تصيب هذه السيارات ، فهي مسؤولة عن سياراتها قبل كلّ شيء ، ثم هي مسؤولة عن كلّ سيارة بصورة إنسانية تكاتفاً بين الشركات المتنافسة وتعاضداً وتفاهماً . ففتح صديقي فمه مستغرباً ، وعجب للحياة كيف ينظّمها السعداء ويحيلونها إلى راحة واطمئنان ، وكيف يقلبها الأشقياء إلى قلق وأرق .

وطال الطريق ، وخيّم الليل ، وصديقي يتساءل أين يبيت القوم ، وهم على مسافة بعيدة في قلب الغابات والجبال ، فأخرج الصحب خريطة أخرى وعليها أرقام ثانية ، وقام بينهم تشاور قليل ، فانحرفت السيارة يمنة في الطريق ، ثم دخلت في سبيل ضيق ، وتحت الظلام رأى أكواخ منازل من خشب ، مضاءة بأنوار ضعيفة ، وبين المنزل والمنزل موطن سيارة ، دخلت فيه سيارة صحبه ، ونزلوا ، فنظروا إلى المنازل أو الأكواخ ، وعليها أرقام تشير إلى عدد الأسرّة وأسعار الإقامة ، فعرف أنها فنادق جوالة ، أو كما يسمّيها الأمريكيون « موتيل » مختصرة من كلمتي « موتور » و « أوتيل » ، يحوي كلّ كوخ سريرين أو سريراً واحداً ، وعلى كلّ كوخ مفتاحه من الخارج ، فإذا دخل

أقفل من الداخل وانفصل عن العالم .

وعجب صديقي لخلوّ الفنادق من أصحابها ، وهرع إلى بناء مضاء ، فإذا فيه مقهى ليلي ، وحوله صناديق الطعام الأوتوماتيكية ، تضع الدراهم ، وتخرج المآكل ، والسجاير ، والصحف . ولكنك لن تخرج منهـــا إنساناً يكلّمك . فإذا شئتَ أخرجتَ موسيقى ، وإذا شئتَ حصلتَ على كل ما تحتاج إليه من أدوية ومن مسكنات ، ومن روائح العطر . وكأنّ المكان معدّ للعيش على طريقة « روبنصن كروزوه » في استقلال كامل وحرية عظيمة ، تفعل ما تريد ، وتطلب ما تريد فتجيبك الصناديق ، وتبدّل العملة ، فالآلات تقوم مقام الموظفين ، والموظفون يقومون كلّ يوم بتنظيف الأكواخ ، وإبدال المناشف ، وتغيير كل ما يجب تغييره ليكون السرير بكراً ، والغرفة بكراً .

والغرفة تحفل بما يحتاج إليه المسافر من ماء ساخن وبارد ، ومن حاجات الضيف ، في راحة وفي أمن ونظافة عجيبة ، كما في الفنادق الكبرى سواء بسواء . فإذا دخلها المرء أحسّ بالاستقلال الكامل ، على رقعة ضيقة وفي هندسة بسيطة ، فيسمع صوت الأمطار فوقه وأمامه ووراءه ، وقـــد يفتح الشباك ليراها ويمسّها ، فالأمريكي لا يكاد يرى الطبيعة ولا يعيش فيها ، لكثرة إخلاده إلى « ناطحات السحاب » ، لأنّه يراها ، كما قال صديقي ، كالعلب السّامقة الوثيرة ، يدخلها فينقطع عن العالم تماماً ، فلا يحسّ بالأنواء والعواصف ، ولا يكاد يسمع صوت الرعود ، ولا يرى عبثَ الريح بالطبيعة ، ولا يلمس الزهرَ بيديه ، ولا يعابث أغصانَ الشجر .

ولكنّه هنا يستطيع أن يمدّ يديه ليحسّ أنهما تفعلان شيئاً آخر غير الآلة الكاتبة ، والأوراق الجامدة ، والتلفزيون الباهر للنظر ، والأجراس المتتابعة ، والهواتف المتصارعة . إنّه هنا يشمّ عبق الزهر الطبيعي ، ويستنشق جوّ الأرض بعد المطر أو الريح ، ويستطيع أن يمشيَ على قدميه في الظلام ، يسمع

حفيف الأرواح القديمة التي سكنت هذه المناطق ، فخلّفتها لهؤلاء القوم الذين أحسنوا رعايتها والعناية بها ، وحراسة السكّان عندها ، وإغداق الحضارة الرفيعة عليهم .

ولقد أحسّ صديقي بهذه الحضارة ، في قلب الطبيعة ، وأحبّ أن يخلو إلى سريره فرحاً بالكوخ ، والشاعرية تلفّ رأسه ليقول شيئاً ، وما عوّد الناس أن يقول الشعر للناس ، ولكنه أحس بدفقة الشعر في رأسه وفي عروقه، وأخرج القلم ليكتب . ولكن الباب قرع وظهر خلفه الصحب يضحكون من الشاعر الشرقي ، الذي يستسلم للظلام والكلام . وسأله الصحْب إنْ كان يتناول طعام العشاء من الصناديق ، أم يهبّ معهم إلى قرية مجاورة ، وفيها مطعم في الخلاء . ولم يشأ أن يخرج على الإجماع ، فمضت به السيارة إلى القرية .

وفي ساحة كبيرة دخلتها سيارات كثيرة ، وساد الظلام ، قام شريط سينمائي من أرقى الأشرطة بعرض قصّة نفسية عجيبة ، أذهلته عن نفسه ومكانه في الدنيا ، وشغلته عن صحبه ، وأقبل في الظلام خادم السينما يسأله عمّا يأكل ، فاختار ، وانتظر أن ينزل من السيّارة ، ولكنّ الطعام سعى إليه على مائدة زاحفة ، وقفت إلى جانبه ، فراح ينظر إلى الشريط ويأكل ممّا جاءه ، وكأنّ الأماني تتحقّق معاً ، في رؤية الشريط ، والجلوس المريح ، والمأكل المليح ، يمدّ يديه وعينيه ، ويستريح إلى الحضارة الجديدة ، ويستمتع بالراحة ، فالحضارة خادمة للإنسان ، ولكنها لا تأتي إلاّ على جسر من التعب . فكم شقي الأمريكيون في حروبهم ، وكم عانوا في حياتهم ، وهم في كل الأسبوع يعملون ليل نهار في علب سامقة ، ولكنّهم ينعمون بلذائذ العيش « آخر الأسبوع » .

إنّه آخر ما يطمح إليه الإنسان من حضارته وعيشه ، ليستأنف الجهاد

والعمل ، وبدون ذلك يسيطر السأم ، ويغلب الضَّجر ، ويسود الملل ، ويتمنّى الإنسان أن يخرج من الحياة التي تنقضي كلها على وتيرة واحدة وفي شكل واحد .

ونظر إليّ صديقي وقال :

كم نحتاج إلى عطلة « نهاية الأسبوع » في حياتنا . . .

إلى أين يسير الإنسان

كان صديقي يسمح لي بأن أغشى ما يسمّيه « غرفة الأسرار » في كل حين ، والغرفة تضيق بالكتب والأوراق ، يتعانق بعضهـــا ، ويتجافى بعضها في الترتيب ، فترى الجاحظ قد خفّ إلى فولتير وكلاهما من أسرة الأدب الرفيع ، يتشابهان ، ويختلفان ، على فوارق اللغة والزمن والمحيط . وترى « فاوست » غوته قد وقف مع « رسالة الملائكة » للمعرّي ، وكلاهما يبحثان عن الملائكة وأعمالهم ، ويجعلان في السماء مرتعـــاً لخيالهما الجميل الخصب .

وأمّا الأوراق ففيها رسائل ورسائل ، بعضها قد فضّه صديقي ، وأمعن فيه قراءة وتهجية وتلاوة ، وبعضها ما زال على خاتم الزمن ، لم تفضّه يد . وبين الرسائل صور كثيرة لا ترتيب فيها ولا نظام ، بعضها يلوذ بأوربة ، وبعضها ينتسب إلى أمريكا ، وصور أخرى صوّرها في الاتحـــاد السوفياتي ، كان يقلّب بعضها في رفق جميل ، كأنّه يستعيد قدسيّتهـــا من جديد ، أو يحسّها بقربه ، تنظر إليه وتسأله عن عاطفته نحوها ، وكان يقلّب بعضها الآخر في كثير من السرعة ، فلا أكاد أفهم كيف يستطيع رأسه أن يعرف حياة هذه الأوراق والصور ، وكيف يستطيع أن يسترجع تواريخها وأزمانها . ورأيته يقف عند طائفة من الصور صنعها خلال رحلته في الولايات المتحدة يطيل النظر إليها ، ويغيب عني غير قليل ، فلا يحس بوجودي ، ثمّ يعود ليستأنف

التفكير العميق . وأردتُ أن أدخل معه هذا « الكهف المسحور » من ذكرياته بطريقة من طرقي الخاصة ، فاستحسنتُ هذه الصور ، وأنا أقلّبها بين يديّ ، لأقول له : « إنّها هائلة . . رائعة . . ولكن ما هذه البقر التي أرى ؟ ! ولماذا وقفت عند تصويرها ؟ »

وشعر صديقي بتقدير كبير ، ومشاركة حلوة ، فانطلق لسانه في وصف البقر ، خلال ساعة ، ما أحسب أنّي استمتعتُ بحديث أجلى منه وأحلى ، في تدفّق عجيب ، وتسلسل قصصي محبّب ، حبذا لو سجّله بنفسه ، وقصّه بأسلوبه ، ولكنّه هو هو ، لم يتبدّل ، ولا أستطيع حلاً لاحتجابه عن قرائه ، وبعده عن الورق كأنهما خصيمان ، أو كأنّه يخشى الكتابة عن نفسه لئلاّ يذيع أسراراً تفلت منه ، فتعرّيه بين القراء ، وهو يتدثّر أبداً برداء ورداء ، فلا تنكشف طباعه وأخلاقه ، وما كان منه ، كأنّه أتى في رحلاته في الشرق والغرب أمراً إدّاً .

وقف عند البقر هذه المرة في « بافالو » بالولايات المتحدة وراء حاجز من الزجاج طويل ، وقد تجمعت ألوانها مختلفة في أشكال لا يصفها قلم ولا ترسمها ريشة ، كأنّها في مرعى كبير ، وتتابعت في خط طويل ، لتدخل هذا الممرّ الضيق ، واحدة بعد واحدة ، لا تتخلّف ولا تتأخّر ولا تتساءل عن الطريق والهدف والغاية . فهي تدخل ولا تخرج ، تسير بغير انقطاع ، كأنّها في طريق الحياة الذي لا ينتهي إلى أمد . ولكن حياتها تنتهي بعد أمتار ، أمتار قليلة ، تُرى من أعلى المنظرة التي أُعدت لتجاور هذا المذبح ، وبين الناس والبقر زجاج ، وأمام الزجاج مشاهد وصفها صديقي في فلسفة عجيبة ، وتعابير غريبة تثير السامع .

فالبقرة تمشي وتمشي حتى تصل إلى موضع ينزل منه على رأسها ضربة

عند النقرة ، تجعلها تتمايل فلا تتماسك ، بين النزع والحياة ، وتدفعها البقرة وراءها فتمشي خطوة خطوة ، تلتقطها بعدها لاقطة ترفعها ، فتعلو بجثتها مع الحبال ، وتمضي فيها الأسلحة القاطعة ، وما هي إلاّ دقائق حتى تغدو مزقاً، في كل طرف من أطراف هذا المصنع قطعة ، يتولاّها الجزّارون ، وفيهم السود من أمريكا الجنوبية ، لا ترى الحزن الذي يسوّد وجوههم ، أو الألم الذي يبلغ إلى قلوبهم ، لأن الصفرة لا تطغى على السّواد ، فكأنّهم لا يتألمون لما يصنعون ، أو كأن فلسفة قد طغت على عقولهم ، فاستهانوا بما يفعلون ، حين فهموا أن الإنسان قاتل أبداً ، يقتُل الإنسانَ كما يقتل الحيوان ، بل إنّه يقتل في كل ميدان بحقّ وبغير حق من أجل أنانيته وسعادته ولقمة عيشه .

لماذا يبالي الأسود بالقتل ، وهو يشهد الأسود والأبيض في الدنيا كما يشهد البقر في المذبح ، تتساقط الجثث ، وتتساوى عند السقوط ، وتغدو في البطولة متساوية بعد الموت فحسب .

لذلك يتابع الأسود والأبيض قتلَ الحيوان ، ليأكل الإنسان ، فالمصنع يُعِدّ اللّحم على ألوانه ، في أجزاء تسير على خطّ حديديّ صغير يقطعها عامل ، وينظّفها عامل ، ثمّ يضعها عامل في العلبة ، والخامس يغلق عليها العلبة ، لتفتح على مائدة الإنسان الجائع أبداً إلى لحم .

وقفَ صديقي عند هذا المنظر طويلاً يتأمّل ، ويتفلسف ، فما أستطيع أن أنقل ما قال ، ولكنّني أستطيع أن أرسم دهشَته حين دخل مخزناً للّحم المُبَرّد في ذلك المصنع ، ودرجة الحرارة فيه تكاد تجمد الدم لانخفاضها ، وذلك لحفظ اللّحم شهوراً ، دخل غير مرّة راكضاً في هذا الممشى الطويل وعلى جانبيه البقر المدلّى المسلوخ ، ينتظر النقل إلى أطراف العالم ، في الشرق والغرب .

وعرضَ عليَّ صوراً من هذا المصنع الكبير ، ووراءها أرقام للذبح ، تتجاوز حد العقل والتصديق ، ولكنّه استطاع أن يرى وحشية الإنسان ، تعمل ليل نهار في سبيل تغذية الإنسان وتقويته ، للحضارة والرقي ، وللحرب في قتل الإنسان .

وانقلب صديقي عن هذه الصور ، إلى صورة كبيرة تتوسّط أوراقه فيها لهب كبير قد اندلع ، كتب عليه « جهنّم » بقلمه وبحروف كبيرة . وراح يصف كيف رأى « جهنّم » بنفسه ، بعيني رأسه على بعد غير كبير ، وقد صعد على سلّم عال ، ووضعَ على عينيه نظّارتين خاصّتين ، ليرى في هذا المصنع الجديد ، في « ديترويت » — « مشيغان » كيف يذوب الحديد في حرارة هائلة ، وقد جمد عمّال المصنع في أماكنهم ، وقرعت أجراس الخطر ، لأن الفرن قد ازداد لهبُه ، واضطرم سعيرُه ، وبعد قليل يفتح فمه الكبيرَ ليقذف منه هذا الشيء الذي رآه فما استطاع أن ينساه ما عاش . لقد وقف مع الدليل في مصنع « جنرال موتورز » ، وتساءل عمّا يرى في مصنع السيارات ، وهو بعيد عن فهمها وتركيبها ، بعيد عن الحنين إلى أسرارها ، وطريقة صنعها . ولكنّه صعد السلّم ، ومشى حتى بلغ الحاجز الزجاجي الذي يفصله عن فتحة كبيرة أمامه مسدودة ، يسمع النار تغلي كغليان ألف مرجل ، ويرى الناس حولَه قد سمّرت أعينهم عند هذه المغارة المغلقة التي تفتح بعد قليل ، واهتمّ بما يهتم الناس ، ثم رأى ما رأى .

رأى المغارة تفتح بآلات كهربائية يتدفّق منها نهر من النار ، يسيل كأنّه النهر الأحمر الملتهب ، وينصبّ في بوتقة جاهزة ، وحول النار والبوتقة الكبيرة رجال سود كذلك لبسوا للحالة لبوسها ، وبين تدفّق النار وإغلاق الباب دقائق ، دقائق وحدها تمثّل جهنّم ، جهنّم السعير ، التي وصفتها الكتب

المقدسة ، وتخيّلها وهو صغير يقرأ المعراج ، ثمّ رأى النار ، فما ابتعد الوصف كثيراً عمّا رأت عيناه ، وعمّا قرأ عند دانتي في وصف جهنّم . نهر جارف أحمر إذا قيس به لون النار في الموقدة يعدّ شرارة صغيرة تافهة . إنّه نهر ملتهب ينصب أمام عينيه فيحسّ بالحرارة تسري في جسده ، وترتعد أوصاله ، كأنّ باب جهنّم قد فتح أمامه ، أو كأنّ القيامة قامت ، وكأنّه عُرِض على النار لما قدّم من ذنب ، وذنوبه كثيرة ، فَحُكم عليه ، وهو يتقدّم إلى تنفيذ الحكم فيه . وبين رؤية النار في نهر ينصب ، ومشاعره الإنسانية في تصوّر جهنّم شرد عقله وهام خياله ، وزاغ بصره ، فكأنّه ما رآه إلاّ لمحة طائرة ، أو خفقة مصوّرة بالألوان ، ولكنّه أحسّ بكل جسده ، فما نظر وما سمع ، وما شعر في حياته بمثل ما نظر وسمع وشعر هذه المرّة . فقد انتهى خلال دقائق نهر اللّهب إلى البوتقة ، وانتهت البوتقة إلى مجار جامدة باردة ، ليستحيل الحديد المصهور إلى حديد بارد ، وينقلب الحديد بعد قليل إلى سيارة يركبها الناس في غرض من أغراض الدنيا أو في طريق من طرقها ، سعادة فيها نعيم ، أو شقاء يؤدي إلى جحيم .

كان صديقي يقصّ عليّ أمر هذا المنظر ويعرضُ عليّ صور هذه السيارات ، وقد بدأت حديداً تقطع في أشكال ، وركبت الأشكال إلى زميلاتها في قطار حديدي يسير رويداً ، فيتركب هيكل السيارة شيئاً بعد شيء ، ويخرج بعد دقيقة واحدة في سيارة فخمة يمتطيها السائق الأمريكي إلى باحة واسعة في الخلاء يسلمها إلى الإنسان ليركب في دروب الحياة مشرّقاً أو مغرّباً ، متمهّلاً أو مسرعاً ، يسير بطيئاً على طرق الحياة أو يهوي سريعاً في الوادي على طريق الموت .

مخزن هنا ، ومخزن هناك . مخزن للّحم ، ومخزن للسيارات ، ومن استطاع

أن يختزن هذا وهذا فقد تسلّق أبراج الحضارة ، وترقّى في معارج المدنية . ويد الإنسان تعمل ، والآلة تدور ، والنشاط في كل مكان ، كأنّ الحيـاة تسوق إلى الأمام من غير توقّف ، وللعمل من غير تساؤل ، وللسير من غير تشكّك ، ولكن إلى أين يسير الإنسان ؟ وماذا وراء هذا السير ؟

وظلّ صديقي يقلّب الصور ، وهو يتحدث في سيل لا ينقطع ، وأنا ذاهل أنظر إليه ، أستمع من غير تعليق ، وأنظر من غير سؤال ، وهو يكفيني مؤونة الشرح ، فيبلغ إلى نهر كبير عريض ، يقف عنده لعلّه يريح أعصابي من الذبح الجماعي ، والنار الملتهبة ، ليشير إلى هذا الشلاّل في المنطقة القريبة ، عند « نياغارا » ، وعند هذا الشلاّل ، وقف صديقي ليصف الروعةَ التي أحدثها الماء في نفسه ، لعلّه يجرف ما بقي من صدإ الماضي ، هذا الماء المُرعب المتحدّر مثل هدير قطارات متعدّدة ، وقد غلت مراجلها وصفرت صفرة واحدة ، وتحطّمت في اندفاع واحد إلى قاع الوادي ، وادي النهر ، والزبد يرتفع أمتاراً بعد التلاطم ، والصوتُ هدّار إنْ لم يشبه صوت القطارات فهو يشبه هدير الطائرات النفاثة ، قد اجتمع ألف منها ، وانحدرت مرة واحدة نحو الأرض ، ووراءها ذيلٌ طويل واحد من السّحاب . ولكنّ الشلال هنا جدار من ماء ثخين عريض كأنّه جبال من نور قد سقطت معاً من أعالي السماء ، تُعيي البصرَ والسمعَ ، فلا يكاد يقرب منها إنسيٌّ إلاّ استبدّ به الخوف والفزع ، وتولاّه الرعب والجزع ، وهو يعلم أنّه بعيد عن الخطر ، ناجٍ من الموت ، في منأى عن أن يصيبه إلاّ الرذاذ المتحدّر ، لأن يد الإنسان قد صنعت الجدران الحديدية لتمنع القرب من هذا الوحش المغير يحطّ من أعالي الجبل إلى الوادي ، مندفعاً ليل نهار ، لا يكاد يقف إلاّ في الشتاء وقد تجمّدت عروقه ، وتصلّبت شرايينه الظاهرة فحسب ، فيصبح ثلجاً في جدار ، أو جداراً من ثلج ، وهو

في هذا وهذا من أروع ما رأى صديقي ومن أكبر ما عجز عن رسمه والكتابة فيه ، فقد أقام ليله قرب الشلاّل يستوحي الوصف ، فلا يبلغ إلى شيء ، لأن الإنسان عاجز عن أن يصف خوارق الطبيعة ، ومشاهد الروعة ، بقلمه الصغير وعقله المحدود ، وخياله الناشيء . إنّه صغير ، صغير أمام ما تصنع الطبيعة ، صغير أمام ما يصنع هو نفسه إذا انضمّ إلى غيره ، إنّه عاجز عن فهم ما يجري ، وإنّه عييّ حين يريد أن يكون ناطقاً .

وإنّه لا يدري إلى أين يسير ، ولا يعرف أين يتوقف ، ولا يدرك الغاية والهدف والمصير ! . .

في أحضان الطبيعة

تابع صديقي تقليب صوره ، يقصّ عليّ سيرتها وما وراءها ، وتركته يعيش معها في صوفية عجيبة ، واستمعت إليه يقول :

« كنتُ هنا ، مع هذه البيوت الطينية التي بنيت على طبقات ثلاث ، كأنّها عشّ الحمام الزاجل ، تبدو منها أعواد الخشب التي تدعم السقوف ، ساقني إليها صديقي الطيب رفيق الدرب الأمريكي الجنسية السيد « كميل نوفل » ، وشوّقني إلى رؤيتها بعد أن أنس من روح الشاعرية في نفسي ، وعرف أنّي أميل إلى كلّ غريب ، وأغامر في سبيله ما وسعني أن أغامر . ومن الغريب أن تسعى في قلب أمريكا إلى بيوت « الهنود الحمر » ، وأن تدخل بيوت هؤلاء الذين سكنوا هذه المنطقة ، منذ مئات السنين ، وظلمتهم الأفلام الأمريكية ، فزعمت أنهم يحملون السكين في أفواههم ، والريشَ على رؤوسهم ويظمأُون إلى الدماء طوال حياتهم ! . .

كان يوماً من أيام الربيع الجميلة النادرة في المنطقة ، وقد كدنا نلامس حدودَ المكسيك ، فدخلنا مدينة « سانتافه » بمقاطعة « نيومكسيكو » عمرها الإسبانيّون ، وما تزال أحفادهم تملأ طرقاتها وساحاتها ، ولغط الإسبانية على كلّ فم ، واللباس الحائر بين أوربة القديمة ورعاة البقر هو لباس القبائل الساكنة حول المدينة . والمآكل العربية وعاداتها ما تزال ترى في هذه البرية الشاسعة ، والبلد ينام مع مغيب الشمس إلاّ بعض مقاهٍ نادرة ، والقوم يخلدون إلى العمل ، منذ طلوع الشمس ، على عكس أشقائهم في « مدريد » .

ومع الصباح أقبلت إليّ كاتبة أمريكية خصّصت حياتها بدراسة الهنود

الحمر ، والانتصار لعيشهم وحضارتهم ، فأحبّتهم حبّاً يخالط دماءها الإنكليزية ، وحملت إليّ كتباً ألّفتها فيهم ، وحملتني مع دليلي إلى طريق رملية طويلة ، نصل بعدها إلى ربوع هؤلاء الهنود الحمر ، فهم يحتفلون بالربيع احتفالاً لا مثيل له ، وطلبتْ إليّ أن لا أحمل آلة التصوير ، وأن لا أثير ملاحظة أو تعليقاً .

وكتمتُ أنفاسي قبل أن نصل ، وحسبتُ ألف حساب لهذا المشهد المثير ، ووطنتُ النفس على يوم كامل نقضيه مع القوم ، واتخذتُ مكاني على الأرض في طرف هذه الساحة الكبيرة ، التي تتوسط بيوت القرية ، لا ألتفت يميناً ولا أنظر شمالاً ، حتى بدأ العيد .

أيّ عيد أروع من عيد هؤلاء الذين فقدوا عشائرهم وقد كانت تملأ الربوع ، ومساكنهم التي كانت تغطي البقاع ، وسلطتهم التي كانت تخيف الأسماع ؟ لقد أقبل القوم على فريقين كل من جانب ، وقد تعرّى الجسد الأحمر القاني إلاّ ممّا يستر بعضه ؛ والنساء والرجال في الاحتفال على حدّ سواء .

وكان صمت شامل قبيل هذا الحفل ، عمّ المكان ، فما تتحدّث إلاّ الرمال حولنا ، وتراقص الريح أطراف ثيابنا ، ونحن سكوت ننظر بكل عيوننا ، استعداداً للموكب المنتظر ، فالرقص عند هؤلاء الحمر يعود إلى آلاف السنين ، حين كان الإنسان يتقدّم إلى إله يصنعه لكلّ حدث ، فالصلاة حين بدء الربيع لإله الربيع ، والرقص بالحركات العديدة ترافقها الأيدي والأرجل وهزات الرؤوس كأنّها دمى تتحرك بخيط واحد ، خلال أربع ساعات ، ما عرفتُ أبدع منها في تحريك الجسم قياماً وقعوداً احتراماً لهذا الإله ، والزّهر يحيط بالأعناق العارية ، ويتدلّى فوق الصدور المكشوفة نساء ورجالاً ، فكأنها تماثيل من شمع أحمر تهتز في أصوات ، تنبعث من فريقين يبلغان المئة عدداً وكأنّها صوت واحد .

وكانت العيون أشد ما يرعب في هذا المشهد ، إنّها مفتوحة كأروع ما تفتح العيون ، كأنّها تخيف العدوّ هاجمة أو منحدرة في معركة الصلاة لإله الربيع ، والحركات ما أدقّها منسجمة كأنّها موسيقى تدلّ على الطّاعة والانسجام ، والطّاعة هنا تطويع الجسم والأطراف لهذه العبادة الطريفة تحيّة للربيع الجديد .

عدنا بهذا المشهد نطوي القرون إلى البدائية الأولى المذهلة في قلب أمريكا « عالم الغد » ولصقنا بالمشهد فما انطلق حديث ، ولا انفلتت ضحكة أو إشارة ، لأنّ القوم حولنا يحيطون بنا ، يصلّون بصلاتهم ، ويحيّون تحيّتهم ، ونحن بين العبادة والصلاة في خشوع عظيم وفي تفكير عميق يذهب بنا مع القارّات القديمة في تاريخها السحيق ، قبل أن يختلف إليها الرجل الأبيض . وهذا الخشوع أدخل في قلبنا الراحة والهدوء والقرار ، فلا عمل ، ولا سرعة ولا قلق ، بل حياة تشبه الوداعة والهدوء عند هؤلاء الذين تسمّيهم الحضارة متخلّفين ، وهم أوسع تقدماً في ازدراء الحياة المتكلّفة ، وفي بغض الصّراع الدموي الذي يقوم على مسمع منهم خلال الحروب الحضارية .

وكثير من هؤلاء قد تعلّم الإنكليزية ، وتثقّف ، وربما تزوج من أمريكية ، وبيته يحفل بالكهرباء والآلات المخترعة ، للتبريد والتسخين ، ولكنها مظاهر للعيش ، لا تقلب حياة الحمر إلى حضارة زائفة ، ينسون معها تقديسَ الطبيعة وإكبارها ، فهم متعلّقون بهذه المنطقة التي حدّدها الأمريكيون لهم ، لا يتجاوزونها ، ولن يُقضى عليهم فيها وإنّما يعيشون إلى أن ينقرضوا مع ذهاب الزمان ، وتقلّب الرياح على البيوت الطينية في قلب الرمال والزعازع والأعاصير .

وانتهى العيد ، وانقضى الليل في التفكير بالطبيعة ، فالتفت إليّ الدليل يعدني بغدٍ جميل ، يحملني فيه إلى نهر « كولورادو » حول « دنفر » نصعد

الجبال ونجتاز الصخور العالية لنصل إلى هذا المنظر الرائع الذي يقصده السيّاح من كل مكان .

وأمام هذا الجبل الذي يسمّيه الأمريكيون « الأخدود الكبير » لبثنا نتمتع بالمنظر العالمي ، على كتف أكبر وادٍ في الكرة الأرضية ، شقّه النهر على القرون ، وظلّ يشقّ حتى حفر مئات الأمتار ، يروع النظر إليها ، من أعلى الجبل إلى الوادي ، حيث يبدو النهر ، كأنّه ساقية صغيرة ، أو خط أبيض يلتمع بالأنوار ، لبعد المسافة السحيقة المخيفة .

والجبل نفسه تتبدّل ألوانه كلّ ساعة بل كلّ لحظة ، تنعكس عليه الشمس فتضحك فيه المعادن التي تشترك في تركيب صخره ، فهو أحمر قانٍ ، وأزرق ، وأخضر ، بل هو في بقعة أحمر ، وفي بقعة مجاورة أزرق ، والعين لا تكاد تصدّق اختلاف الألوان ، حتى ليخيّل للواهم أنها أنوار تسلّط عليه كما تسلّط على المسرح أنوار مصطنعة حين التمثيل . ولكنّ هذه الأنوار تنبعث من الصخر نفسه ، ومئات الزوار حوله يعيشون في ذهول ، ويذهبون مع الخيال والأحلام في تصوّر ما يرون ، أو في اقتناص ما تلمح أعينهم ، ولكن عبثاً يصطادون .

وعلى قمة الجبل ، بُنيت فنادق ريفية قد شقّت جدرانهـا بالنوافذ المتعدّدة لكي يجلس حولها الناظر فما يشبع نهاره ، حتى تغيب الشمس أو يكتئب وجه النهار ، وينتصر الظلام في هذه المنطقة السحرية التي لا تحتاج إلى مصوّر عادي ، وإنّما تستجلب آلات المصوّرين بالألوان ، وتستقدم الرسامين من أطراف الدنيا ، يصبغون لوحاتهم بألوان الجبل ، وهي تتقلّب كلّ حين ، فكأنها حال الدنيا ، كلّ ساعة في شأن ! . .

ومن العجيب أن يقف الإنسان عند « الصخر » وأن يتلفّت إليه هذا الالتفات الطويل ، فلا ينقطع عنه ولا يملّ منه ، ولا يطمح إلى شيء فيه غير

النظر ، النظر الطويل ، من غير أن يؤمل منه نفعاً أو غاية أو علماً . وكأن الناظر عاشق صوفيّ ، ينسى مَن تجمّع حوله من نساء سبحن في لذائذ الكون البديع ، واستسلمنَ إلى النّظر في الصّخر نفسه ، فالتقت نظرات المتفرجين ، عند زاوية بديعة من الصخر المتطبّق ، وقد تكوّن من ألواح مبسّطة ركّز بعضها فوق بعض بيد القدرة الإلهية ، صفّت بإحكام ، فكأنّ الجبل كلّه قد رُصف لوحةً بعد لوحة ، في ألوان متباينة ، مختلفة ، تضلّ العين في تعدادها أو رسمها أو وصفها ، فالوادي الكبير المفتوح في مسافة بعيدة كأنّه شدق الزمان ، قد فغر فمه منذ عصور سحيقة ، تعجز يد الإنسان عن شقّه ، ولو تكاتفت مدافع العصر الحديث . ذلك لأنّ هذا الشق محكم ، قد قطع بسيف ما يدري المشاهد أين صنع وكيف كان ؟ فإذا نظر إلى النهر آمن بأن الصبر يصنع ما لا تصنع الآلات ، وأنّ الماء ، ماء النهر ، يستطيع أن يفعل هذا الأخدود الجبار ، لأنّه صبر على السنين فوجد طريقه ، وفصل بين الصخر ، وعاشَ سكران بالألوان ، فهو مزهوّ حتماً بما فعل ، يكاد يُلقي درساً على الإنسان الخامل العاجز في كثير من بلدان الشرق .

إنّه « الكولورادو » النّهر الذي يسير ألفاً وثلاثمائة كيلومتر بين الصخور الصلبة القاسية ، والرمال الليّنة الطرية ، « للأريزونا » ، فلا يتعب ولا يلهث ، ولا يقف حتى يصبّ في خليج كاليفورنيا ، على « الهادي » شجاعاً قوياً هدّاراً.

ولقد خطر ببالي أن أتبع النهر بالطائرة الصغيرة ذات المحركين ؛ وأجري وراءه حتى نصل معاً إلى هذا البحر الكبير ، وأنظر عبرَ المحيط إلى قارتنا آسية ، وأين منّي آسية الآن ؟

وسرت حتى بلغت أطراف هذا الشاطىء الكبير فرأيت غابات ما عرف نظري أكثف منها ولا أشهى . لقد اكتظّ الشّجر والشجر ، حتى كاد يشكّل أعمدة تحجب وجهَ النور ، فتعيش الغابة منذ الصباح في ظلام المتستر وراء

السجف ، ويقرّ فيها المنعزل والصوفي والفيلسوف . والشّجر هنا لا يشبه الشجر في كل مكان ، فهو سامق ، عال ، متطاول ، لا يميل يمنة ولا يسرة ، كأنّه في شرخ الشباب أبداً ، وهو قد قضى مئات السنين ينظر إلى السماء بفروعه المتطاولة ، فيسحب من الغمام أولى قطراته ، ويشرب من دموع السحاب أولى دمعاته ، ولستُ أعرف خيرات الأشجار الطويلة ومنافعها ، ولكنّني شهدتُ لها فضلاً على المنطقة ، فهي تعلو على كلّ رابية وجبل ، وتبدو من بعيد كتلة سوداء متراصّة . ولعلّ هذه الأشجار هي التي أوحت إلى الأمريكيين بناء « ناطحات السحاب » المتطاولة ، وألهمتهم بناء العمارات المتقابلة ، يضيق فيها نفس السائر والساري ، كما يضيق الزائر هنا بقلّة النور ، ولكن الشاعر يفرح بالهدوء العظيم لا يقطعه إلاّ أنين الماء ونشيجه ، فكأنّه يبكي حيناً ويعول أحياناً لأنّه يسقط من أعالي الجبال هداراً كما يسقط جلمود الصخر من علٍ في لسان امرىء القيس ، إنّه السيل نفسه الذي قصده ابن الصحراء ، ولو رآه لخاف وارتعد ، لأنّه ليس سيلاً واحداً أو شلالاً واحداً وإنّما شلاّلات تتجمع في منطقة « يوساميتي » ، كأنها تخطب في مؤتمر ، كلّ منها في لغة ، يعطل كلّ شلال لغة زميله ، فالغابة تمتلىء بالخطباء الذين يقولون ما لا يفهمه إلاّ الشعراء وإلاّ هؤلاء الذين يدركون سرّ الغابة ، وعظمة الماء ، وشموخ الشجر .

إنّ هذه الغابة قد دخل إليها الإنسان فأفسدها بسياراته ، وضجيجه ، وثقب في الشجر ممرات ، تنفذ منها السيارات مسرعة ، إلى قلب الغابة . ولباب الشجرة يتحمّل أعمال الإنسان الجديد بصبر كما تحمّل الأجيالَ وأعاصيرَها وأنواءها ، فليس الإنسانُ بأشد ثقلاً عليها ، فهي تقف للطبيعة الجبارة ، وابن الطبيعة وليد لم يحبُ بعد في نظرها .

في مسرح الحياة

في القطار الذي يسميه الأمريكيون « زفير » كان صديقي يسبح في أخيلته كأنّه وحده ، والوحدة عنده أمر مقدس يخلو فيها إلى نفسه فيسأل ، والنفس تجيبه في حوار لو سجله في مسرحية لكان منها نجوى النفس ، وحديث الروح ، وهو أجمل ما يريد أن يترك في مؤلفاته .

وكان هذا القطار غريباً ذا طابقين كذلك ، أسفلهما عاديّ للشارب ، والآكل ، والمتسلّي بأوراق اللعب وحديث القلب . وأعلاهما ، في سقف من البلاستيك مكشوف عار ، لا تفصله عن الطبيعة إلاّ طبقة رقيقة عارية شفافة فكان صديقي يحسّ الشمس تلامس رأسه ، ويرى أشباح الأغصان التي تداعبه ، ويلمح صور الجبال التي يخترقها القطار السريع .

والأمريكي يحبّ السرعة في كلّ شيء ، لأنّه يعرف أنّ الحياة قصيرة ، قصيرة جداً ، فلا يريد أن يقف متأنياً متكاسلاً لاهياً ، لأنّه يضيع الدقائق من حياته وهو يحبّ الحساب والاقتصاد ، ويحب أن يجمع ما صدر عنه وما ورد إليه ، كما يجمع الصيرفيّ والبخيل الشحيح ، فيحصي الدقيقة إلى الدقيقة ، ويجعل منهما زمناً يحترمه ، والساعة إلى الساعة فيجعل منهما حياة يقدّسها . وما كان يعرف أن الأمريكي يحب السكون والجمال كما عرفهما في هذا القطار . فهو منذ ساعات طويلة في هذا القطار الساري المنقطع يزحف في سرعة مذهلة ينظر إلى البحر الهادي بمناظره الساحرة ، تُزبد المياه كأنّها أفواه تضحك وأشداق تنفرج ، وتمتد الأمواج كأنّها أفعى تتقلّب ثم تتلوّى ولكنها بين البياض والزرقة تقبل ثم ترتدّ ، وينظر إلى الأحراج والغابات والأشجار والصّخور .

إنّه منذ ساعات ، في هذا العالم ، ينزل إلى الطابق الأسفل ليأكل ويشرب ويتمدّد ، فإذا أظلم الليل نام في غرفة وثيرة ، ما يحسّ قلقاً ولا أرقاً . لأن القطار لا يهتزّ ، ولكنّه يميد على الخطوط الحديدية ، وينسحب ليحرق السرعة ، ويتجاوز المسافة كأنّه في سباق مع دقائق الساعة . ثم يصعد إلى الطابق الأعلى ليرى الطبيعةَ من غير حجاب تتعرّى بجمالها الفتّان أمام عينيه ، فيخيل إليه أن الإنسان في حياته كراكب القطار ، يمرّ بالأشياء المفرحة والمحزنة ، ويقف عند المحطّات قليلاً ، ثم ينتهي به القطار إلى المحطة الأخيرة ، فينزل ويقف نهائياً ، ولا يصعد بعدها أبداً ؛ لأنّه قطع مرحلة الحياة ، وأخلى مكانه للراكب بعده . فلا يتّسع القطار إلاّ لعدد محدود ، وكذلك الدنيا لا تتسع إلاّ لعدد محدود ، ولو بقي الناس مخلّدين لمنع البشر من جيئة وذهاب ، كما قال الحكيم الشاعر العربي .

كان إذن في هذا القطار يسبح في بحر الفلسفة من غير شاطىء يقف عنده . وأفكاره تجوب الأمواج المزبدة ، والشاطيء الممتد من غير حدود ، فإذا وقف عند محطة ما جزع أشد الجزع ، خوف الوصول ، لأنّه يتصوّر أن الوصول هو النهاية لهذه المتعة ، أو هو خاتمة الرحلة والمطاف ، أو كأنّه خاتمة الحياة ، وكذلك يجزع المتلذّذون كما قال الأخطل الصغير في شعره :

يَبكون من جزع للذّتهم أن لا تكون طويلة الأمد

إنّه يجزع وهو يعرف أنّ عند الخاتمة لذّة أطول وأمتع ، فالمسرح ينتظره ، إنّه مقبل على مدينة « المسرح العالمي » ، وكم أحبَّ المسرح في الحياة ، وكم تصوّر أن الحياة الدنيا مسرح بارع ، وأنّ هذه الأرض التي تقبل إليها أفواج البشر ثم تنفصل عنها ، هذه الأرض هي المسرح ، والأفواج البشرية المزدحمة على المسرح ، تمثّل كما تستطيع أن تمثّل ، فبعضها يبرعُ في الأداء فيزيّن

للمتفرج ، ويزيّف ، ويزوّر ، ويستلب الاستحسانَ والتصفيق . فإذا كُشف الزيف والتزوير بعد انصراف هؤلاء من المسرح ، ظهر الناسُ على حقيقتهم ، فإذا بالعلم الذي يتظاهرون به بضاعةٌ من كلمات يردّدونها ، وجمل يتلقّفونها ويرسلونها ، والناس يؤخذون بالصوت الجهير العالي ، والتمثيل البارع ، ويُخدعون حتى شغاف قلوبهم خِداعاً لا تستطيع أن تردّهم عنه ، مهما بالغتَ في كشف الأستار عن عيونهم ، ورفع الحجب عن قلوبهم .

وإن الأدب الذي تتظاهر به أفواجُ الممثلين على هذه الدنيا مظاهرُ خادعة ، قد تُخفي تحتها الخسّةَ والدناءة واللؤمَ والحقدَ ، ولكنّ الناس لا يكلفون بالعمق ، والبحث ، والجري وراء الحقيقة . وكم عاش صديقي مع هؤلاء الممثلين ، فرأى منهم على مقاعد الدرس طلاباً لا يفقهون ، أو لا يكادون يفقهون شيئاً من الدرس والعلم ، ولكن المدرّس مخدوع بالأصابع المرفوعة والكلمات المنمقة ، يؤخذ بهم ويقدّمهم . والخجول حييّ لا يكاد يعرض بعض ما عنده ، فيؤخره المدرّس ، وعلامات المدرّس وحدها هي الشهادة ، والشهادة هي كلّ شيء في التقديم والتأخير . وكم رأى في المعاهد العليا الأجنبية من أخفق في فهم ما جاء له من درس وعلم ، فلمّا عاد مع الباخرة إلى بلاده رآهم أبرعَ من مشى في الحلبة المسرحية ، وسمع عن تقدّمهم في مراتب التقدير عند السادة المحكّمين ، وقد عجب حين عرف أنّ الناس ينادونهم بشهادات لا يحملونها ، وألقاب أخفقوا دونها ، فالمسرح أعطى والناس منحوا ، ولا عبرة للحقيقة .

لهذا كان صديقي يحب أن يلقى المدينة المسرحية العالمية « هوليود » منبع التمثيل والتزييف ، فقد أعجب بهذه المدينة المبدعة صغيراً ، وولع بها كبيراً ،

وشغف بالممثلين الذين يتقنون أدوار الحزن والفرح ، والحبّ والكره ، لأنهم أحذق الناس في تمثيل الحياة التي يحياها النّاس . وكم رأى على الشاشة وهو صغير فرساً يقفز من أعلى الجبل ويهوي بصاحبه ، فإذا بالفرس يموت ، وصاحبُه ينهض لا غبار عليه . ولم يصدّق الرواية ، حتى قرأ « ابن خلكان » مرّة ، يقصّ في كتابه القديم أن الشاعر أبا فراس الحمداني سُجن في « قلعة » عند الروم ، ولكنّه ركب فرسه مرّة ، وهوى به من أعلى الحصن ، ونهض الشاعر البطل سالماً . فوقفَ عند القصّة يحلّلها بميزان التاريخ ، والعقل ، والطبيعة . وتساءل كيف يهرب السّجين من القيود ، وكيف يركب الفرسَ على غفلة من الحرّاس ، وكيف يهوي من « خرشنة » ، وهي في علو بعيد ، وينهض سالماً . ولما أعيت صديقيَ الحيل في الفهم ، أدرك أنّ العرب عرفوا السينما وحيلها ، قبل اختراع السينما في العالم ، وأنهم قصصيّون بارعون يحسنون التخيّل والتصوّر .

كان صديقي يحب أن يلقى « هوليود » فهو يحب هذا الكذب الذي تصنعه السينما ، ويصدقه الناس ، والسينما مهما غالت في الكذب والتصوّر فلن تبلغ مراتب التمثيل في حياتنا الدنيا ، فالعقل قد لا يصدّق الشاشة حيناً ، ولكنّه يضطر إلى تصديقها حين ينظر حوله ، فيرى الناس يهوون من علٍ حيناً ثم يقفون على أرجلهم منتصبين ، ويعودون إلى مراتبهم موفّقين ، مثلما يهبط الفرس بصاحبه وينهض راكبه ، كما نهض أبو فراس ، سواء بسواء .

كيف يصدّق أن إنساناً يذهب مع كلّ مذهب ، ويكرّم في كل أوان ، وهو في كل زمان يتخذ لوناً يصطبغ به حتى أخمص قدميه وآخر شعرة بقيت من رأسه ، ثم يرفع الصبغة ويزيل اللون فإذا هو جديد كيوم ولدته أمّه ، ويسمّيه الناس بعد ذلك تقديراً وإكباراً : « عظيماً » فالجدارة في الحياة ، كالجدارة على الشاشة والمسرح ، إتقان الدور ، والبلوغ بالتمثيل مبلغاً يتقمّص

فيه الدور الذي أسند إليه . لذلك أحب الشاشةَ ورغب ملحّاً في أن يرى حيلَ الممثلين ، وهُرع إلى « هوليود » .

ودخل « لوس أنجلس » المدينة الكبيرة الواسعة ، وهي قائمة على تلال عدّة ، وعلى كل تلّ من المدينة قسم مستقل بالهاتف والرقم . كأنّ مدناً عدة تلاقت تحت اسم واحد . ودعي في أحد التلال إلى بيت سوريّ من بلده ، كان فقيراً معدماً ، وأصبح يملك ضاحيةً من المدينة بعد سنوات لو قصّ صديقي سيرتَها لكتب « سناريو » جديرة بهوليود المجاورة على تلّ قريب . وركب مع الموسر الجديد سيارةً ، ضغطَ صاحبه على أحد أزرارها فإذا بباب الحديقة يفتح من بعيد جداً ويدخل صديقي مع صاحبه بيتاً أكثر جدرانه من زجاج ، يشرف على الدنيا ، وتشرق منه البهجة ، وتنبعث الموسيقى من ثقوب الجدران هامسة ، تغنّي ألحان الحياة لتحيط مسرحية هذا السوريّ بالنغم الملائم ، كما تحيط الأنغام بالرواية التمثيلية .

وفي التل المقابل دعته شركة « مترو غولدوين ماير » وهي تختصر في الأشرطة (M. G. M) لقضاء يوم كامل في الشركة ، فاستقبله على الباب ممثّل من الشركة ، خرج بالأصبغة الحمراء التي تُطلى بها الوجوه للتجميل وللنور ، كما تُطلى وجوه العجائز للتحايل في إخفاء السن ، ومعه ممثلة شابة صَبغت شعرَها بلون عجيب ، ومنذ أول لقاء بدأت الأنوار تسلّط ، والمشرف يقودُ صديقي إلى إتقان الابتسامة المُصْطنعة والترحيب بالصّديقين اللّذين ما عرفهما قبل دقائق ، ولكنّها الشاشة ، إنّها « مسرح الحياة » .

وبعد اللقاء على الباب دخل صديقي باباً عريضاً قاده إلى ساحة يمثّل عليها « فان جونسون » في رواية « آخر يوم رأيت فيه باريس » وأمامه ممثلة أمريكية لقيَها في باريس ، وكلاهما يتكلّم الانكليزية فحسب ، ولكنّ امرأة حسناء باريسية ، كانت تغنّي بالفرنسية على مقربة منهما ، في حنان ورقّة

وشوق ، استعارها المخرج لتكون صوتَ الممثلة الأمريكية ، التي كانت تُعيد وتبدي في حركات شفتيها لتبدو أنها المغنية المتكلّمة . وما جزع صديقي لصوت المخرج ، وهو يصيح بالممثلة أن تطبق شفتيها عند مخارج الأغنية ، وتفتحهما عند انفتاح الصوت ، يصيحُ غير مرّة ، والهدوء شامل ، وصوته وحده يلعلع ، والمسكينة تعيد وتعيد أكثر من مئة مرّة ، والأنوار تسيل كشلاّل ثم تنقطع ، والعرق يسيل على الوجوه ، ويبدو أن الناس هنا فهموا التمثيل في الحياة ، ونقلوه على المسرح ، واستعاروه للشاشة ، فالممثل « فان جونسون » لا تصله بالممثلة صلة ودّ أو حبّ ، ولكنّه يتصنّع الودّ والحب وينحني عليها ليقبّلها أكثر من مرة ، لأنّه يمثّل ، وهي ترضى لأنّها تمثّل ، ولأن الهدف هو المال والربح ، على الشاشة . وعلى الأرض ينتصر نفاق ورياء وزيف وخداع ! . .

المال . . . المال . . هو كلّ شيء ، يصنع الحب المزيّف ، وقد يصنع الكره ، ويقرّب الغريب ، ويبعد القريب ، ويقطع الصلات ويصل المقطوع . والتمثيل البارع الذي يزيّف الحقيقة هو الذي ينتصر ، ويشتهر المخادع المزيّف هنا على الشاشة ، كما ينتصر في دنيانا التي نحيا فيها ، ونعيش بقلوب تشبه كرة الهواء تنتفخ وتفرغ ، أو تشبه دُمى الأطفال ، تسمّى بأسماء ، وتمنح الألقاب ، وهي لا تحسّ ولا تشعر ، ولكنّ الخيال الآدمي أعارها روحاً وكساها وداً .

لم يكره صديقي حياة الممثلين ، لأنهم صريحون يعلنون أنهم يقومون بأدوار مستعارة في العمل ، ولأن همّهم في التقليد ، وفي اصطناع ما لا يحسّون ، وذلك مظهر التوفيق والنّجاح . ولأنهم يعلمون أنّ الشركة تربح من وراء هذا التمثيل ، حين تسير الرواية في أطراف الأرض ، فتسيل لها دموعُ الحزن ، أو تنطلقُ لها ضحكات الفرح ، ويسهر النّاس بعد رؤيتها

أرقين قلقين ، لمصير الحسناء بعد الطّلاق ، أو موت البطل بعد الكارثة ، أو تحطّم المدينة بعد الفيضان والحريق . ولو علموا كما علم صديقي أن انصباب المطر كان من حنفية مسلّطة على ورقة صغيرة لعبت بها آلة التصوير ، لما خافوا أمراً . والحريق كان ينطلق من علب صغيرة من الكرتون مساحتها لا تتجاوز المتر ، رُسمت على العلب نوافذ وبيوت ، ووضعت على أطرافها صورة فتاة في قلب العلب ، وجاءت آلة التصوير فجسّمت العلب ، ورسمت الحريق في أبعاد طبيعيّة ، جزع لها المتفرّجون جزعاً طرق القلوب المخدوعة ، فأثار دقاتها حتى هزّها فزعاً ، وحرمها النومَ ، وهي في واقع الأمر تحترق على صينية من الحديد ، لا تكاد تحرق أصبع المخرج البارع .

وعاش صديقي عامة يومه بين بيوت مصنوعة من الورق المقوى « الكرتون » ؛ وأشجار من ورق ، وجدران من ورق ، وحدائق واسعة رسمت على أشكال كثيرة في ألواح صغيرة ، تهتزّ خلال التصوير ، فتتماوج الأشجار ويختال الزهر ، ولكن أين العطر وأين الرائحة ؟ ! إنّ التمثيل يصنع الصوت من أسطوانة سجّلت زعازع وعواصف عن الطبيعة أو عن عزف الآلات ، وأن التمثيل يصنع المشاهد من ورق الكرتون فيصوّر الأبنية والأحياء ، فهو يعرض للنظر وللسمع ما يريد أن يعرض . ولكنّه لن يوفّق في خداع الأنف ، فلن يشمّ المشاهد رائحة الطبيعة إلاّ إذا وزّعت شركات السينما آلافاً من زجاجات العطر حين عرض كلّ شريط ، في كلّ صالة من صالات الدنيا . بما يناسب المنظر والمكان في الرواية .

وتعب صديقي من الخداع ، فركن إلى مائدة الغداء وحوله الممثلون والممثلات يؤاكلونه ، ويقومون بأدوارهم في الحب والكره والضيافة والإكرام لأن الشركة دعته ودعتهم ليمثلوا حسن الاستقبال ، فمتى تنتهي مسرحية الحياة ؟ .

خرج صديقي من باب الشركة وأمامه كان يقف حارس بلباس الجند

السينمائي ، فلمس صديقي صدر الحارس وجسّده بيده ، ليتأكّد من صحّة ما يلمس ، خوفاً من أن يكون خداعاً كذلك وقوف الجندي على الباب ، فلعلّه دمية من « كرتون » ، هو أيضاً . . .

لذلك كان صديقي لا يؤمن حتى يتأكد ، فالأشخاص يجيدون التمثيل في الحياة ، ويردّدون أقوالاً لا تنطلق من قلوبهم لأنهم في « مسرح الحياة » ! .

في ظلال الحضارة

كان صديقي قبل عشر سنين يؤثر الطبيعة ، يتحدّث إليها وتتحدّث إليه ، فيسمع حفيف الشجر وخرير المياه ، وهدير الشلاّل ، وغناء الأغصان ، ويرى في تموج الماء ابتسامات تنطلق عن ثغور فاتنة تضحك له ، وتهشّ للقائه ، فيظنّ أنّه في قلب الجوقة الساحرة التي خلقها الله للذين يعافون عشرة الناس ، ويهربون من لقاء المجتمعات ، وينزعون إلى الوحدة والعزلة . فقد كان يعتقد أن الذين يجيدون الحديث الطيّب السليم قلّة في الدّنيا ، وكان يؤمن بأن الذين يتحدّثون من حوله في المسامرات ، ويخوضون في المحاورات والمناقشات يعيرون الحديث بعض ما في النفوس من حقد العيش ، وبغضاء التنافس ، وشحناء المهنة ، ويحمّلون ألفاظهم العابرة ، ما لا تحمل الألفاظ من سهام مسمومة ، وعبارات مدسوسة ، وجمل حاقدة ، تشفي غليل المتكلم ، وتصيب المقاتل بكل سبيل .

فالحديث إلى الناس فنّ ، كان صديقي يبحث عنه في المجتمعات فلا يجده إلاّ نادراً ، لأنّه كان يطمع إلى أن يكون حواراً كحوار الفلاسفة في نفع الفكر حيناً ، وفي بعث الخيال البعيد أحياناً ، وفي إدخال السرور على القلوب المتعبة والعقول الشقيّة بالحياة أبداً . كان يحبّ أن يكون الحديث بين الناس كهمس الجدول رقيقاً ، أو كعزف الموسيقى مطرباً ، أو وشوشة المحبين ساحراً . فيتخيّل فئة من الناس تجتمع حول تحليل كتاب عظيم أو موسيقى عبقرية ، أو لوحة غنيّة أو فكرة عميقة . فقد ألف في أوربة سخرية المتكلّم من نفسه قبل أن يتناول غيره ، وأحبّ العبث العبقريّ بالعقل والقلب ،

كما تعبث الفتاة العاشقة بالزّهر والورد فتقطّع الأوراق وهي تفتش عن العطر ، أو تحطم أضلاعها وهي تضمها لتنتعش بالأريج .

فلمّا دخل المجتمع الأمريكي سعى المضيفون إلى أن يعرضوا عليه ألوان الحياة الاجتماعية في أمريكا . فدخل البيوت واختلف إلى طبقات المجتمع ، وشرّق وغرب ، وطاف في الشمال منازل الشيعة الذين قدموا من بلاده ومساجد البهائية ، وهبط في الجنوب حتى بلغ نوادي اللبنانيين المهاجرين في « نيوأورلينز » . وخرج من ذلك بصورة للحضارة ، لم تشرق على نفسه وقلبه ، كما أشرقت صورة أوربة القديمة العتيقة .

لقد كان في أوربة يدخل البيوت فلا يجد النور إلاّ في زوايا الغرفة ، وقد انعكس خيوطاً على بعض الجدران ، وأخفى التفاصيل في الوجوه المتحدّثة ، فغابت معالم الكهولة عن بعض الجالسين ، واختلط الشعر الأسود بالأبيض ، والأشقر بالأحمر الملتهب ، وضاعت تجاعيد رسمها الزمان في أجزاء الوجه ، قرب العينين وعلى الجبين . وكأنّ الظلال الخفيّة كانت تلعب في إخفاء ما يجب أن يخفى ، وفي إظهار ما يجب أن يظهر . والموسيقى الخافتة تسري إلى القلوب مع الحديث الهامس فتبعث في الوليمة سحراً لا ينساه .

فلمّا غشي في أمريكا منازل النازحين عن أوربة ، سمع الموسيقى الصاخبة ، ورأى الجلسات العجيبة في حرية يؤثرها القوم هنا ، ويكرهها صديقي لأنّه قديم عتيق ، فقد كانت الأحذية أكثر ما يرى متوسّدة مكاناً رحباً بارزاً ، والأرجل الممدودة تتطاول إلى المناضد والأرائك ، والناس متكئون كما يريدون ، رجالاً ونساء ، يقوم الرجل بخدمة البيت ، فينهض للباب والشّراب وتقديم المأكل ، وقضاء الحاجيات على المائدة وجمع الصحون بعد الأكل والزوجة تنظر في سرور إلى ما يدور ، والأسماء ترسل بغير ألقاب ، والتصغير والتدليل من مآثر الحبّ والقربى والود في الحديث .

ورفع الكلفة أدنى وأقرب من حبل الوريد ! .

دخل بيتاً في نيويورك لأسرة غنية أمريكية « لازارون » أطمعه صاحبه في أن أفرادها يناصرون الشرق ويحبّون العرب ، فعجب القوم للشرقي كيف يعرف أشياء كثيرة ، وللعربي كيف يستعير اللباس الراقي حين يزور أمريكا ، فيصطنع القمصان الإيطالية ، وربطات العنق الباريسية والأجواخ الانكليزية ، وهم يلبسون القمصان الملوّنة بالأزرق القاني والأحمر الدموي ، ويزيّنونها بربطات عليها صور الحصان والقط والكلب والكرة[1] ، وثياب جاهزة كأنّها أكياس تلبس الجسم ، فلا تزيل خطأ فيه ، ولا تخفي عيباً يظهر منه ، في كتف يعلو وآخر يهبط .

فلمّا اشترك في الحديث عن بلاده ، ساقه القوم إلى استطلاع ظن أنّه يستطيع أن ينير البحث فيه ، فرأى جهلاً فاضحاً ، وظلماً قبيحاً ، وتجاوزاً على التاريخ والعلم . وعرف أن الجرائد التي تطبع عشرات الصفحات لكلّ واحدة ، وتزن قرابة نصف كيلو لبعضها ، لا تبعد عن جهل ولا تزيد في فهم ، ولا تصدق في التاريخ ، وإنّما تحمل الأنباء التي يكتبها المزيفون متطوّعين بأسماء مستعارة وتكشف زيفها ألسنة الحق والعدل . فهي تهتم بصور الكلاب والخيول في السباق ومهرجان الأزياء ، وحوادث الإجرام والسرقة والنهب . وتصوّر من خلال هذا كلّه بعض أمرائنا بثياب العرب ، في مناظر لا ترضي ، وفي نكات لا تشرّف ، وفي قصص لا تكاد تصدّق . وترسم لبلادنا العربية لوحة في الأذهان لا تخرج عن الصحراء والجمل والكسل والتثاؤب الطويل ! .

راح صديقي يقصّ على القوم بعضاً من تاريخ العرب الحديث ، ومن جهادهم على العصور في رقي الحضارة ، وبَسط العدالة بين الطوائف . وقصّ حكاية

---

١ كانت هذه الربطات من الأزياء الشائعة حين زار أمريكا .

المدارس العربية التي كانت تدرس اللّغات من غير تمييز ، وتقرأ لأوغست كونت كما تتسلى بروايات « همِنغواي » . وأدرك صديقي أن القوم لا يحبون القراءة العميقة ، والبحث الرصين في أكثر فئاتهم وطبقاتهم ، لأن الوقت من مال ، والمال هو كل شيء في الحياة ، وبدونه لا تقوم معاني الأشياء . ومراتب الناس والعلماء تتكشّف للمتحدّث بالمبالغ التي يقبضها ، والأرباح التي يجنيها ، فما من ساعٍ إلاّ وهو ينال المال ، وما من كاتبٍ إلاّ وهو يقبض أجر ما كتب ، وثمن ما ألّف .

وحسب صديقي أن هذا من عيوب الحضارة وزيف المدينة ومن مرض العصر ، عند الأمريكيين ، فنزل إلى الجنوب ولقي النازحين العرب ، وظنّ أنّه ملاق عند المهجريين صفاء ونقاء ، وحباً للروح ، واستخفافاً بالمادة ، فدخل أحد النوادي مدعواً ، ورئيسه شرقي عربي الحدر أهله من أصل يوناني ، وأقرباؤه ما يزالون في البلاد العربية ، فاستقبل صديقي من هؤلاء المهجريين الأسئلة المحرجة في دهشة ، وأجاب على بعضها في حرج ، فقد كان هؤلاء يظنون أنّنا نذبح في الشوارع من يعادينا ، وأنّنا نقتل من يخالفنا في المذهب والعرق ، وأنّنا نعيش كلّنا في بيوت من طين ، وأن طبقات البناء لا تعلو على الواحدة . وأن السيارات القديمة التي ترسل إلى مقابر السيارات عندهم ، نشتريها ونستعملها لأن المغرضين صوّرونا بهذه الأشكال فدخلت عن سبيل التلفزيون إلى كل بيت ، وأقنعت حتى العرب النازحين عن أهلهم منذ خمسين سنة أو أربعين .

وأحب صديقي أن يشرح الحال في بلاده وأن يصوّر التقدّم ، وأن يرسم الحضارة ، وأن يذكر لإخوانه العرب بأنهم أول من اخترع ، وأول من يتقبل النهضة والرقي ، ولكنّه نظر إلى حذاء رئيس النادي مرفوعاً أمام وجهه فخذله لسانه . وآب إلى غرفته في الفندق يندب هؤلاء الموتى الأحياء

من قومه ، وقد انقطعوا عن الوطن ، وعجز العرب عن تعريف بلادنا لهؤلاء النازحين فخسرنا جيلاً من العرب ، وخسر النازحون صلات الجوار والدم والتاريخ.

وأنحى صديقي باللائمة في ذلك على سفاراتنا في واشنطن ، فلمّا بلغها آخر تطوافه ، عرف ما لم يكن يعرف من قصص ، وفهم أنّنا نتغرّب غالباً في الربح الشخصي وفي الراحة الذاتية ، لنعيش سنين في رخاء على حساب المكلّف المسكين من قومنا ، وقد نترك السفارات لأمناء السر وأميناته من البلاد الغربية ، يتصرّفون بالتقارير والرسائل ، والأجوبة وتعريف الأمريكيين بالعرب كما يحلو لهم وكما يزين لهم الشيطان .

ودعاه صديقه إلى شهود مجلس الأمن ، وحادث « قبية » يملأ الصحف ، فرأى الخصوم قد حشدوا وفداً كبيراً في كل مكان من المجلس ، بين الصحافيين الذين يرسلون النكات ويزيّفون الموقف ، ويرجفون بالأكاذيب ، والتراجمة يعبثون بالكلام ، ويحرّفونه عن مواضعه ، متطوعين يكادون ينفردون بالترجمة ، لأنّها واسطة التفاهم بين الأعضاء ، وقد نبّههم سفير كبير آنذاك غير مرة ، وهو العليم باللغات ، إلى كذب الترجمة وتحريفها ، فما نفع فيهم تقريع ولا خفّف من حدّة الكذب توعّد السفير واحتجاجه . وأدرك صديقي كيف يؤلب الخصوم في المجامع الدولية آراء الأمم ضدّنا ، ويتقنون اللّغات للحرب علينا ، وكثير منّا يتقن اللّغات غالباً لمحاورة سيّدة تلفت النظر ، أو الدخول في مهاترات لا تنفع ، فأين المثقفون الذين يستغلون اللغات ، ولماذا لا يتطوعون في الدفاع كتابة وخطابة ، وتأليفاً ، ولماذا لا نرسل النشرات في الدفاع عن قضايانا ؟ .

فلمّا انقضت الجلسة سارع صديقي مع رفيقه لتهنئة السفير الكبير وتحيّته ، وشكره باسم الشعب العربي على ما فعل ، وتلفت فرأى وراءه السفير العربي وقد مد يده شاكراً للرجل الذي أنقذ موقفه وموقف بلاده في

الخطر الكبير .

وفكر صديقي في هذه الراحة التي يتثاءب فيها بعض العرب ، ويمضون مع ذلك في التفاؤل ، ويؤثرون العافية حتى في المسائل الخطيرة الدقيقة ، وكره منذ ذلك الحين أن يستسلم المفكرون إلى الراحة من غير عناء ، وإلى الخيال من غير سعي وجهاد ، وإلى الماضي من غير عناية بالحاضر ، وإلى التاريخ القديم وأمجاده ، من غير دراسة للتاريخ الحديث ودسائسه ، فالعالم يصنع التاريخ الآن والشعوب متحفّزة إلى المشاركة في بناء هذا التاريخ وفي رسم خريطة العالم . والذين ينامون اليوم يستيقظون بعد قليل ، وقد عفّى ذكرهم في الدنيا وضاعت من الخريطة معالم وجودهم .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

في مدينة الانوار

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

في حمى الصبية العجوز

دخل صديقي الولايات المتحدة مذعوراً منقبض الصدر للإجراءات التي واجهها في المطار ، فقد نزل الأمريكيون أولاً ، ولبث مع الغرباء يواجه الأسئلة العجيبة عن أمه وأبيه ، وأهله وذويه ومن أصيب بمرض ومن عوفي من علّة ، فأجاب على ذلك كما أرادت شاعريته الخفيّة وراء الألفاظ وشبابه المختفي وراء حجاب من السنين . ولكنّه حين سئل عن حزبيته ومذهبه السياسي ، اضطرب وتلعثم ، لأنّه لم يدخل حزباً في حياته ، وقد احتكّ برجال الأحزاب جميعاً ، وراودته نفسه غير مرة في أن يتسلق أكتافها إلى بعض ما يريد كما فعل كثير ، ولكنها كانت كالأمواج العاتية تخيفه ، ويخشى أن يضيع في طيّاتها ، فآثر العافية . ولم يعرف الشجاعة السياسيّة مرّة في حياته ، لأنها كانت توأم القلق والأرق ، وصديقي يحب الصّفاء والسلامة ، ويتمنّى أن يستسلم للعمل والكتابة والتأليف ، وبعض السياسة يشغل عن كثير من جهده في الورق والتحبير .

لذلك لم يستطع أن يجيب رجال الأمن الأمريكي عن أسئلة كثيرة ظلّت غفلاً من غير جواب ، لأنها في السياسة ، ولكنّ نفسه انقبضت على كل حال ، لأن هؤلاء السائلين لم يصدّقوا أن رجلاً زار البلاد الألمانية ، ولبث في فرنسة سنين ، وأقام في تركية ، وتردّد إلى بلاد كثيرة ، وبقي مع ذلك بعيداً عن السياسة والحزبية السياسية ، وصرّح بأنّه لا يفقه شيئاً من أساليبها ، فإذا سيق إليها أو الحديث فيها ، كان بعيداً عن النجاح في فهمها ومعالجتها .

كان ذلك حين دخل الولايات المتحدة ، فأحسّ بأنّه أمام امتحان جديد

طال بعض الساعة ، وهو يكره الامتحان سائلاً ومسؤولاً ، لأن الامتحان لا يبين عن شيء ولا يفصح عن أمر ، وإنّما يحرج غالباً ويبعث على الارتباك . فلمّا خرج عن الولايات المتحدة ، سافرت محافظه إلى الطائرة وفيها أشياء وأشياء . ودخل الطائرة الكبيرة من غير سؤال أو جواب ، وعلم أنّ دخول البلاد أصعب من الخروج ، وعزم على مغادرة « الدنيا الجديدة » ، متوجهاً إلى أوربة ، وأول محطاتها « باريس » .

وبلغ المطار الفرنسي في وضح النهار ، فما رأى نوراً يبهر ، ولا شمساً تملأ نفسه ، وإنّما لاحظ اشتعال المطار بالأنوار ليدلّ على أنها « مدينة الأنوار » . . ومع ذلك شعر بأنّه يهبط قرية كبيرة ، فقد ألف الضخامة والكبر ، وخلف عمارات سامقة ، وميادين واسعة ، وشوارع عريضة ، وشعباً كثيراً كبيراً ، وقطارات كبيرة ، وطيارات عالية في طابقين ، فلمّا نزل بالمطار حسب أن الشعب قصير القامة كلّه ، أسمر في الغالب ، وعجب لشعوره الجديد الذي يشبه الشعور عند كلّ قادم من الولايات المتحدة .

ومضى في شوارع باريس بعد مطار « أورلي » لتصافح عيناه جدراناً سوداء ، وشوارع ضيقة ، وسيارات صغيرة في قاماتها وأبعادها ، وهدوءاً يشبه القرى الأمريكية وأريافها ، فلمّا تغلغلت السيارة في قلب المدينة مرّ بالمقاهي وقد احتلّت الأرصفة ، فعجب كيف يجلس الناس في قلب الشوارع ، ويتحدّثون في همس وفي حرية ، عن أسرار كثيرة ، منها حوادث القلب ، وخواطر العقل ، كأنّه ما جلس إليها ثلث أيام شبابه ، يتفرّج على الناس متسلّياً ، وكأنّه ما عاش فيها يأكل ويشرب ويضحك لا يبالي بمن حوله كأنّه وحده في الدنيا وفي ذلك المكان ، لا يحسّ بالناس ولا يحسّ به أحد ، فقد كانت باريس أيام حداثته لعوباً ضاحكة ، صبية لا تعرف غير الحياة الضاجّة العابثة اللاهية ، تشرب من شباب الوافدين إليها ، ويشربون من

شبابها ، كؤوساً دهاقاً . . .

مرَّ بهذه الشوارع التي ضاقت أرصفتها لكثرة مَنْ عمرها من شاربين قبيل الظهيرة ، كأنَّ الفم فيها كل شيء يبتلع ويشرب قبل الأكل وبعد الأكل ، وقبل النوم وبعد الصحو ، في الحر وفي البرد ، في الضجر القاتل وفي السرور العارم ، يطوف الغلام على الجالسين فما يقف ، ويختلف إلى المناضد الصغيرة كأنّها مائدة مختصرة تقوم على أرجل دقيقة كذه الأرجل النسائية التي تمر في الشوارع دقيقة ، فيتّسع المقهى الصغير لناس كثيرين ، وما يحس الناس ضيقاً بالوافد ، وما يشعرون بما يدور حولهم من أحداث جسام في حياة السكّان ، فربّما كان الشّراب باعثاً لصلات ، وربّما كان آخر كأس لوداع هذه الصلات . ولكن هؤلاء الشاربين يعبّون الكأس حتى ثمالتها في الحزن والفرح ، وما يدوم في باريس حزن وما يدوم فرح ، إلاّ لتختلف الألوان والظروف ، كلّ دقيقة في شأن .

طافت السيارة بصديقي « قوس النصر » فلم يرَ اللّهب الدائم الذي يرمز إلى بطولة الفداء في كل ميدان وفي كل مخلوق ، ونزل « شارع الشانزليزة » كأنّه يمرّ بأثر تاريخيّ قديم من « الأكربول » أو « بصرى الشام » أو « جرش الأردن » ، يتحرّك التاريخ في عقله ، وتنسكب الذكريات في رأسه ، كأنّها شلاّل ينصبّ بالماء لا ينقطع أو شريط سينمائي لا ينتهي ، فقد ركز عند كلّ شجرة كلمة وعند كلّ نافورة جملة ، ووراء كل تمثال حديثاً ، وربما امتدت الكلمات ساعات ، وتمطّت الجمل حتى بلغت صفحات ، وطال الحديث حتى قارب الكتاب والمسرحية والرواية . وذلك كلّه لو جمع لكان سفر حياة ، لم يكتب صديقي منه على الورق شيئاً ، لأنّه حسبه عادياً مألوفاً لا يستحقّ التسجيل والتحبير . فلقد مرت بالأمكنة نفسها أشباح كثيرة ، وطافت بها ألسنة عديدة ، وقامت حوادث مختلفة خلال قرون وقرون ، تفرّق

أصحابها في الزمان الواسع والمكان الرحب ، فملأوا الدنيا ، ساسة ومغفّلين ، وعلماء وجهلاء ، ومحظوظين وتعساء ، والشوارع لم تتبدّل على رغم تجدّدها ، والأماكن لم تتغيّر على رغم تنقّلها من يد إلى يد ، لأنّها تشكّل في مجموعها هذه المدينة التي تعرف كيف تبتسم خلال الظّروف كلّها ، ابتسامة تختصر حياة « باريس » .

ومضت السيارة مسرعة من « الشانزليزه » حيث شهدَ مراراً أعياد الحرية في الرابع عشر من تموز . وسمع خلال تلك الأعياد أحاديث لو سطّرها لدلّت على جهل الشعوب بما يحاك لها في الخفاء ، ولو كتبها لأعلنت بساطة هذا الشعب ، وانصرافه إلى الحرية في مفاهيم لا يتقنها غيره ، ولا يدركها على طريقته إلاّ الذين سبروا غور الفلسفة ، وتعمّقوا في حياة الكتاب ومضوا يبتلعون صحائف التاريخ القديم والحديث .

وانعطفت السيارة بعد ذلك في « ميدان الكونكورد » والتماثيل الحجرية تلفظ الماء الذي يرسل إلى أفواهها أبداً ، لم تتغيّر على الزمان ، تنظر إلى مجلس النواب ، وخلفها وزارة المالية . فأمّا مجلس النواب فقد استمع فيه إلى خطباء جدّدوا عهود آبائهم ، في الكلام الفصيح ، الذي كان يسرّ صديقي ، ولكنه يعصره فلا يقبض منه شيئاً ، فيخرج كأنّه « قبض الريح » . ولمجلس النواب في نفس صديقي ذكرى بعيدة فقد كان على مقربة منه في مظاهرة وقعت قبل عشرين سنة ، خرج فيها طلاب « السوربون » ناقمين على الساسة ، فتيات وفتياناً ، وما كان يفهم السياسة ولا يعرف سبباً لدخوله في المظاهرة ، وإنّما ساقه زميل وزميلة ، فأحبَّ أن يعيش يوماً في أحداث الطلاب وأن يفهم كيف يتظاهرون ، فلمّا أطلق الرصاص فجاءة ، تدحرج مع زملائه على الأرض ، إلى أقرب مدخل « للمترو » وركب القطار حتى وصل الحيّ اللاتيني ، يتلمّس جسده إن كان قد أصيب بشيء . ولكن قلبه انفطر حين

عرف عدد الضحايا في اليوم الثاني ، وأدرك أنّه قام بتجربة خطيرة طائشة ، ولكنّه الشباب الذي يريد أن يتعلّم كلّ شيء ، وأن يجرب الأمر مرّة ، فإذا أعجبه عاد إليه . ولكنّ صديقي ، منذ ذلك الحين كره السياسة والعمل للأحزاب ، وآثر العزلة والاستقلال ، وفضّل الورق والكتاب يبثهما ما يحسّ من غير خجل ولا وجل ، فالحياة دروب ، والدرب الذي سلكه يختلف عن درب غيره من زملاء كانوا معه في هذه المظاهرة فدخلوا في الأحزاب وظل بعيداً يكتب ويؤلف .

وبلغت السيارة « جسر الإسكندر » وتحته نهر السين ، فسبح خياله في هذا النهر ، فقد طاف به ماشياً ليلاً ونهاراً ، على حافتيه ، في الظّلام القليل ، على أنوار ضعيفة ، يسمع تصاعد الأنفاس ، والفقراء قد اتخذوا ضفتيه فراشاً وملجأ ، والسكارى قد استسلموا إلى النوم مع زجاجة النبيذ ، يقتلون بها آلام الفشل والخيبة في الحياة . والقوارب تمر به لا تكاد تقف ، لا ينظر إليها ، ولا يرى من عليها من زوار وسُياح يطوفون باريس خلال الليل ، وهم يظنّون أن هذا كل باريس . ولكن خداع السياحة كبير ، وباريس الليل هي غير هذا ، بل هي فوق هذا كلّه . ولكم خطر بباله أن يكشف عن سقوف هذه المدينة « الصبية العجوز » ، لينظر إليها من أعلى السماء ، ويرى فيها العالم الكبير يبحث عن أزياء لويس السّادس عشر وعصره ، ومآكل عصر النهضة ، واجتماع الثوار قبل الثورة ، أو ليحصي أنفاس « بودلير » مع صحبه وصواحبه ، أو ليرسم « رابليه » في مؤلفاته . وإلى جانب هذا العالم وفي جواره « مدرسة للرقص » يختلف إليها الشباب ليتعلّموا الخطوات الأولى في مصاحبة الموسيقى ، يتخاصرون وبعضهم لا يعرف بعضاً ، ولكنّه العلم والمدرسة . وعلى مقربة من المعلم والمدرسة قام مقهى ليليّ ضجّت فيه الموسيقى الصاخبة حتى بلغت أسماع السماء . وهناك المخبر القريب يكتشف الجراثيم

والأمراض الجسديّة الدقيقة ليجد دواء لهؤلاء المصابين ، ويخفّف الآلام عن أجسادهم . وبقربه مخبر آخر يبحث جراثيم المجتمع وأمراض الناس العميقة لعلّه يجد دواء لها كذلك في كتبه وآثاره .

وحول هذه الأبنية في الشوارع العريضة والضيّقة ، سار الناس إلى غايات مختلفة ، وفي الرؤوس مشاريع شتّى ، فيها غنى للإنسانية ، وذخر للعقل المتوثّب ، وفخر للثقافة ، ملأ الرفوف في المكتبات ، وعَمَرها ، وكادت تنفرد وحدها بذلك خلال فترة غير قليلة ، يعترف لها المثقفون بذلك مهما كانت نحلهم ومذاهبهم ووجهاتهم السياسة .

والصبية العجوز هي التي تحمل فخر هذا كلّه ، لأنّها العاصمة المتجدّدة بين عواصم كثيرة ، قد تكون أجمل منها جسوراً وعمارات ، وأفخم منها متاحف وأعرض منها شوارع ، وأبهى منها مسارح ودور لهو ، ولكنها تبقى « المدينة » التي تسخر فتحسن السخرية حتى من نفسها وأبنائها ووزرائها ورؤسائها ، وتنقد نفسها وغيرها نقداً خالصاً ، يصبح في كثير من الأحيان مثالياً مستحسناً ، وتنتج للفكر بين مصانع الفكر ما يحلو وما يحفظ وما يذكر على الزمان .

ودخلت السيارة أخيراً « نفق الأنفاليد » على مقربة من القبور التي تحوي رمماً كثيرة قامت بدور كبير في تاريخ هذه « الصبية العجوز » ، فأحالت حياتها إلى كتاب جدير بالنظر والتفكير .

وفي « نفق الأنفاليد » ، فاحت عطور باريس ، وخرج صديقي إلى الشوارع التي سلكها منذ سنين ، وحوّل نظره إلى « الحي اللاتيني » حيث قام زملاؤه الطلاب بدراسات موفقة ، وخرجوا على الدنيا بآراء جديدة ، وسدّوا الفراغ في نواح كثيرة . وأراد أن يعود من جديد إلى عهد الدراسة والحداثة ، ليذكر ما كان في هذا العهد من خير ومن شر ، وما تقلّب عليه خلاله من

ضرّ ومن نفع ، لأن حياته صورة لحياة كثيرين من الوافدين الذين تأثروا بهذه الحاضرة ، وأرادوا أن يرفعوا لقومهم في سبل الثقافة بعض البنيان ، فهل كان منهم توفيق ونصر كما تمنوا واشتهوا ، أم جرت الريح بما لا تشتهي السفن ؟ .

في الحي اللاتيني

منذ خرج صديقي من « نفق الأنفاليد » توجّه إلى « الحي اللاتيني » ، ليصطاد بقايا شبابه في كلّ ركن وفي كلّ زاوية من شوارع هذا الحي . وليسترجع رسمه القديم على الجدران التي كان يمرّ بها صباحاً ومساء منذ عشرين سنة ، والشّعْر أشعث ، واللباس في ألوان عجيبة زاهية ، وقميصه مفتوح للريح والهواء ، وظلّه يرقص على واجهات المحلات ، يثب وثباً من واجهة إلى أخرى ، وقد أغراه ترتيبها الأنيق : هنا مكتبة تحوي أحدث ما خرج في باريس ، وما يخرج في باريس يعلم به الله وحده ، في كلّ الأنواع والألوان ؛ عن النفس البشرية وآلامها وجروحها ، عن الحيوان والطبيعة ، عن الموسيقى والفنون . وكان يعيش أمام هذه الواجهة ساعات يحلم بقراءة هذا كلّه ، واستيعاب ما يخرج ، وجمعه بين يديه ، يقلّبه حياته كلّها حتى يطفيء الموت سراجه ، وهو يقلّب هذه الرياض كما قال الجاحظ ، أو يتقلّب في هذه الرياض كما يرى هو . فالعيش بين نفثات الأقلام أجمل ما يحلم به صديقي . وصداقة الكتاب أجمل صداقة ، لا تنمّ عن حسد ، ولا تبعث الدسائس ولا تغيظ السعيد . والكتاب كاتم للسرّ تعرف أين تقف منه وأين تقرأ ، ولا يفشي سرَّ حبك وتعلّقك ، لأنّه لا ينطق إلاّ حين تنطق أنت . . .

وهناك واجهة للقمصان وربطات العنق ، كان يتلمّظ غير قليل وهو ينظر إليها ، لا يصدّق أن أحداً يلبسها ، لأن الحيّ يعج بالشباب والصبايا وما في هؤلاء من يلبس لبسة كاملة صحيحة ، إلاّ في ليلة واحدة خلال السنة يستأجر فيها اللباس ، ثم يتعرّى منه إلى سنة قادمة . وكل هؤلاء الشباب

يختلفون إلى المقاهي والمطاعم والحدائق ولباسهم أقرب إلى الزي المهلهل البسيط . لا يبالون بما يلبسون ، لأن الذي يسكن الحيّ يتجمّل بالعقل والقلب والذكاء ، وهو الذي ينصره في معركة الحي . ومعارك الحي تتجدّد في كل دقيقة ، إنّها معارك القلب والعقل ، واللّسان . يفرغ الطلاب من الجامعة ومن المدارس الثانوية ، التي تلتف حول الجامعة وفي طريقها ، ومن المكتبات ، وينصرفون إلى المقاهي على الأرصفة ، يغنّون وينشدون ، ويضجّون ، والغلام — غلام المقهى — ما يكاد يعمل إلاّ قليلاً ، لأن هؤلاء يشربون حين يملكون . وما ملكوا أكثر من فنجان قهوة ، إلاّ إذا استدان صديق من صديقه بغير كلفة . والفتاة في الحيّ كالفتيان ، رفيقة وزميلة ليس غير ، لا تكاد تأخذ الأمور مأخذ الجدّ في الحب والهوى ، لأنّ الحيّ يحتمل أعمق مزاح ، وأعقم نتيجة .

وتقابل المكتبة في طريقه ، واجهة المآكل والخضر ، وقد رتّبت كما رتبت المكتبة في نظافة ونظام ، لا تمدّ يدكَ إلى شيء ، وإنّما تطلب إلى الآنسة أو السيّدة فتعطيك، ولا تحسّ بالوقت لأن هذه المحلاّت مدرسة سيارة يتعلّم فيها الطالب الغريب ، كيف يشتري الناس كل شيء في كل يوم ، فهم يعيشون هنا يوماً بعد يوم ، لا يختزنون القمح كما كان صديقي يرى في بيته ، ولا يختزنون السّمن كما كان يرى في قبوه ، ولا يصنعون الخبز كما كانت أيام زمان قبل أن يفد إلى باريس ، والأمور ميسّرة هنا على قدر ، لا تشبه أمريكا وإنّما تشبه بلاد البحر المتوسط ، يحمل الشاري خبزه الطويل في « عصيّ » — كما يسمونها هناك — يأكل منه طوال الطريق إذا جاع ، ولا يخجل منه ، لأن الخبز في أهل الحي كالحلوى في أحياء باريس الفخمة . ويحمل الشاري الزبدة والجبن والفواكه ويسير إلى حيث يريد ، حتى ليأكل على الأرض في الحدائق . والحيّ يغصّ بالحدائق ، لأنّها الرئة التي يتنفّس بها الطلاب ، وهي المقاهي التي لا يدفع فيها أجراً ، وهي المطاعم التي لا تقفل ،

يتحلّق الطلاب فيها على المقاعد المجانية تحت الأشجار ، يغنّون ويهزجون ، ويتحدّثون ، ولا تسل عن « مسرحيات الحياة » . تقليد للأساتذة ، وتمثيل للحب ، وعبث بالسياسيين والرؤساء والوزراء ، وتنطلق ضحكات ذات مغزى وأخرى لا رائحة لها ، وقلوب تخفق بصلات جديدة ، وقلوب تكتئب بموت صلات قديمة . والصلات القديمة هنا لا تبعد أكثر من شهر ، لأن التجديد رمز الشباب وقوام وجوده .

وكان صديقي يختلف إلى هذه الحدائق ، ويركن إلى الغابات والجنائن ، مع إخوانه وزملائه في كثير من أيام الأسبوع ، فيستمع إلى الآمال التي تعج في صدور إخوانه ، من وزارة قادمة ، وزعامة مقبلة ، وأمجاد منتظرة ، فيضحك ملء رئتيه لأنّه لم يحلم بهذا كلّه ، فقد كان ينظر إلى أمجاد الحياة على طريقة أخرى : حدائق تزيّن بلده ، وبلده يغمره الجفاف واليبوسة . وبحيرات كهذه البحيرة الواسعة يعبث فيها الأطفال ، بقوارب الورق والخشب ، و مرضعاتهم وخادماتهم أو أمهاتهم يرقبن البَسمات على وجه الأطفال ، ويحصين ساعات الشمس المشرقة على أجساد هؤلاء الأولاد ، لأن الفيتامينات آنذاك كانت تصل إلى الأطفال عن طريق الشمس والهواء . وكان صديقي يحلم بهذه الأمجاد فحسب . طرقات واسعة لا يرتطم فيها الماشي بالماشي ، ولا يختلط فيها الحيوان بالإنسان ، ولا يعلو الصياح في التنبيه لكلّ مار ، لئلا يمس الرأس ولئلا يطيح بشيء ممّا يحمل الناس في الزحام .

كان صديقي وهو ينظر إلى واجهة المآكل والخضر قد طار خياله إلى حديقة « اللوكسمبورغ » وقد غدا على مقربة منها ، فمال إليها ليرى ، بعد سنين ، كيف تحوّل الشجر واختلف الماء وتبدّلت المقاعد ، وتغيّر الناس ، ودخل من الباب الضيّق عند ينبوع « آل مديشي » قبالة قصر الشيوخ « اللكسمبورغ » . وهمس الشجر في أذنيه بالأصوات التي سمعها منذ عشرين

سنة ، وعاد من جديد يؤمن بامرىء القيس ، ويستذكر المواقف والمراحل ، ولكنّه لم يبك كما بكى الشاعر المهاجر إلى « بزنطية » أواخر عمره ، ليموت بين سحر الماء وضحك الصخر عند « القسطنطينية » . وإنّما ضحك للأيام كيف تتبدّل والصخر باق ، والماء خالد والناس يعبرون ، والحبّ يخيّم تحت الشجر من جديد في قلوب شابة من فتيات وفتيان ربّما كان يعرف لهم ولهن آباء وأمهات ، وصلته بهم وبهن أواصر الحياة .

أحبّ صديقي أن يكون فضولياً ، فاستسلم إلى مقعد ليتفرّج على مسرح الحياة ، وبقربه فتى وفتاة . فسرق سمعُه جملاً وحواراً وألفاظاً عرَفها من قديم ، فهي لم تتبدّل على الدهر ، لأنّها « كلاسيكية » دائمة تختلف في طريقة التعبير والتصوير ، ولكن العقول والقلوب والظروف هي هي ، والجوّ الذي يسيطر هو نفسه . وربّما كان الهواء الذي حفظ الجمل القديمة منذ مئات السنين هو الذي يبثّ في الآذان من جديد هذه الجمل ، ويعيدها على مسامع الجيل الجديد ، فغاب صديقي طويلاً ، يسبح في الماضي ، ويضحك مِنْ لسانه كيف قال ، ويهزأ بقلبه كيف صدّق آنذاك ، ومن عقله كيف ارتضى هذا كلّه ، قبل عشرين سنة .

ومن غير أن يدري ، انسحب يجري تحت الأشجار القديمة التي شهدت عروقها ونسوغها الماضي ، ماضي هذه الأجيال التي مرت في « الحي اللاتيني » ، وافدة من أطراف الأرض ، على لباس بسيط ، وعقل مبتدىء ، ثم توزعت بعد ذلك في أطراف الأرض ، على لباس متباين ، وعقل مختلف ، فأصبحت سعيدة أو شقية ، ولكنها خلّفت شيئاً من ذكرياتها تحت هذه الأشجار ، لو تجمعت لأحاطت الشجر بسياج من أوراق تتحدّث إلى أبد الدهر ، فلا تسكت عن روايات تصلح للمسرح الضاحك أو الباكي أو الموسيقى الراقصة أو الحزينة .

انسحب صديقي يجري وراء صور شبابه ليتذكر كيف كان يحلم بالمستقبل الذي يبنيه ، على أدب مسرحي ، أو تأليف أدبي ، أو شعر جديد ، أو ثورة فكرية ، فلمّا عاد إلى بلده ، خلال الحرب الثانية ، أوكل إليه في « مدرسة الصنائع » تدريس العربية وتعليم الدروس الدينية ، على فئة من الشباب لم تكن أقلّ منه سناً ، تعيش في المدرسة نهارها وتنفلت عن الجدران ليلها ، فإذا تظاهرت ضد الإدارة يوماً ، عبث طلابها بكل شيء حتى الأكل ، فداسته بأرجلها وخرجت إلى الشارع ، وخرج صديقي مع زملائه المدرسين إلى الشارع من غير راتب ومن غير غد .

جرى صديقي تحت الشجر الذي كان يظلّ أحلامه الأدبية الواسعة خلال شبابه ، ومضى وراء ذكرياته بعد أن عاد ، فرأى أنّه عيّن بعد « الصنائع » ، في مدرسة التجارة ، يدرّس العربية فيها ، على مستوى بعيد عن ذهنه ، في قراءة وكتابة ، حتى أغلقت هذه المدرسة كذلك لإضراب سياسي ، عاد معه إلى الشارع من جديد . ثم نقل إلى مدرسة متوسطة ، يعيش فيها نهاره ، فإذا أواه الليل انقلب إلى مشروعاته الأدبية من مسرح ورواية وقصة ، ثم أعياه التعب فأغفى لا يدري أين هو من دوامة الحياة . وأصبح زملاؤه في التدريس يأخذون عليه العزلة ، والبعد عن المجتمعات ، والإخلاد إلى « دواوين » الشعر ، والعمل لشعراء سيف الدولة ، وتصمه تقارير الموسوسين بالاستقلال ، لأنّه لا يعيش مع زملائه ، ولا يحضر جلسات المقهى في كلّ مساء للحديث من جديد عمّا بين المدرّسين والطلاب ، وعمّا يجري في المدينة . وكانت هذه الأقوال تلقى أذناً مصغية عند المسؤولين ، فيرقى زملاؤه جميعاً إلى ما يسمّونه « الترفيع » ويستثنى وحده من هذا الحظّ الوظيفي الذي يعيش له آنذاك أكثر حملة العلم والمثقفين أصحاب الرسالة . وبلغ به القرف من الوظيفة حدّاً صرفه إلى الورق والتأليف تماماً ، فراح يبث شكواه إلى القدماء ،

ويسير في ركابهم ، حتى خيّل إليه أن ثورته الأدبيّة قد ماتت ، وأن مشروعاته القصصيّة والمسرحيّة قد طُويت ، فتقدّم إليها ذات مساء ليحرقها ويحطّم هياكلها ، كما أراد أن يحطّم « ده فنشي » أثره الفني ، ولكنّه احتفظ بها في آخر دقيقة ، ليتغذّى من حطامها بقية حياته .

مضى صديقي تحت شجر « اللوكسمبورغ » ، يوازن بين الماضي الذي انقضت أحلامُه هنا ، والواقع الذي كاد يقتله في أكثر من مكان على منابر التدريس ، فأدرك حينئذٍ لماذا عاف مدينته الشمالية ، وانتقل إلى « العاصمة » ، كما فعل كثير ممّن عمل للتأليف والكتابة والانتاج بالعالم كلّه . وعرف لماذا صرفته نفسه إلى التحقيق والدّراسة ، هذه النفس التي تحسّ أنها شابة أبداً ، توّاقة إلى المعرفة والقراءة ، كلّها نهم إلى الورق تكاد تأكله ، وكلّها شوق إلى السطور تضمّها إذا أصبح ، وتغفي عليها إذا أمسى ، لا تكاد تهيم بالمناصب ، ولا تعشق المراتب إلاّ على جسر من الكرامة والإباء والحقّ والنفع . وهذا الجسر الذي سلكه صديقي كان شديد الخطر على حياته أكثر من مرّة ، تخيّله كأنّه سراط يوم القيامة ، لو مال به مرة لهوى إلى الجحيم ، ولكنّه توازن ليقع في حضن النعيم . ذلك أنّه طلّق الوظيفة ، وحبس نفسه للعلم في معهد كأنه معبد للعلم ورجال فيه كالرهبان الزهاد ، لعلّه ينصرف إلى التأليف والمحاضرة كل عمره .

وخرج صديقي من باب الحديقة ، وهو لا يشعر ، لاهثاً وراء ذكرياته ، حيث بلغت به قدماه مسرح « الأوديون » فتسلّق الدرج القصير ، ليلقى الكتب المعروضة دائماً لمكتبة Plon « بلون » وكانت من أبرع المكتبات في نشر المسرحية والقصّة والشعر ، فراح يستعرض رفوفها ، ويمضي في أروقتها حتى غدا وجهاً لوجه أمام باب « المسرح » ، فوقف ينظر والتمثال من ورائه إلى المسرح يكاد ينفتح أمامه في قلب الظهيرة ، فيدخله بعقله وخياله ، ليشهد

مع سنّ الشباب مسرحية « به رغونت » وفي جيبه ستة فرنكات ، أربعة منها للبطاقة ، في أعلى مراقي الصالة ممّا يسمّيه الفرنسيون موضع الدجاج « بولايّيه » والباقي « ساندويش » يتغذّى بالفرنكات جميعاً ليلته حتى يأذن الله بدفع راتبه صبيحة اليوم التالي . وعادت إليه نشوة الماضي كأنّه ملك متوّج ، يصعد الدرج الطويل ، ويجلس على قطعة خشب ، وحوله طلاب وطالبات مدّوا أعناقهم فوقه ليروا الصالة وليشهدوا الرؤوس على المسرح كأنها خوذ تبدو من غير أجسام ، وليسمعوا ما يصل إليهم من أصوات متقطعة خلال الصمت الرهيب ، تقديساً للفكر .

كان صديقي يحسّ أن مسرح « الأوديون » قطعة من الجامعة ، قد ركز في ذكاء على مقربة منها بينه وبينها « شارع راسين » Racine الذي كان يأكل فيه عند الظهيرة كلّ يوم ، يدفع أول الشهر مقدّماً ليضمن غداءه على الأقل ، ويأمن غائلة الجوع في كلّ دقيقة ، فإذا أكل استراح إلى غرفته المظلمة في الطابق الأخير قبل أن يبلغ إلى سماء الحي ، يحسّ بالأمطار وهي تعزف دائماً لا تقف ، ويستسلم لموسيقى الاسطوانات التي يشتريها من سوق المزاد العلني ، لا ينتقيها وإنّما يفرضها عليه ذوق بائعها المفلس ، يستمع إليها بحنان ويملأ فوهة الحاكي بالخرق البالية والقمصان القديمة ، لئلا يبلغ الصوت في الليل إلى جيرانه ، فهو يطيع قوانين العيش ، وهو إلى ذلك يكره صياح الأصوات مهما عذبت ورقّت . ويدلف إلى سريره في قلب الشتاء البارد لأن التدفئة لا تبلغ إلى غرفته إلاّ في النفس الأخير ، والحشرجة تكاد تقتلها .

وفي الليل ، يفتح النافذة أحياناً ليطرد بقايا الدخان المتراكم من لفائف أحرقها أو أُحرقت عنده ، وينظر إلى « الحي اللاتّيني » من أعلى البناء ، وقد سال بالأنوار الحمراء والبيضاء ، والطلاب والطالبات في الرمق الأخير من

دراسة وعبث يسيلون في الطرقات ، حتى يقرّ قرارهم في الإخلاد إلى وكر للنوم يتوجّهون إليه ، إذا عرفوا أين يتوجّهون مع خيوط الصباح ، ليستأنفوا ، مع الغد ، حياتهم البوهيمية التي لا تعرف موعداً للأكل وللدراسة .

فالجامعة مفتوحة أبداً ، بعض الليل وخلال النهار ، للأعمار كلّها ، يجاور الفتى في العشرين شيخاً في السبعين ، يستمعون جميعاً إلى المحاضرين الذين يودّون أن يفرغوا ما في عقولهم وقلوبهم أمام هؤلاء المستمعين في هوى عميق ، وفي سبيل تكوين أجيال للإنسانية تأخذ عنهم مجاناً ما تعبوا في جمعه خلال عمر دائب ، على تعب وافر . فالتعليم الجامعيّ رسالة ، تحفر في قلب أصحابها أخاديد تسيل أبداً بالعلم والمعرفة والقول . والحيّ اللاتيني منبر حر ، ومدرسة دائمة ومكتبة مفتوحة في الشوارع ، والمقاهي ، والمعاهد المنتثرة في كل زاوية . واللّغات تفوح على كلّ فم وتنطلق في كل أُذن ، والحيّ معرض لأجناس العالم ، ومتحف لألوان البشر الأصفر والأسود والأبيض ، وسوق دائمة للحركة على صورها المختلفة ، والحيّ لا يقف ولا يسكن ولا يهدأ ، كأنّه « خلية النحل » ، ولكن الداخل إليه كالخارج منه ، لا يزيد ولا ينقص . فوارحمتاه للذين صنع نحل الحي شهد شبابهم ، ويا لذكرى « السوربون » الذي يعرف صديقي مداخله وغرفه وصالاته كما يعرف بيتاً سكنه سنين وسنين .

في أروقة « السوربون »

تابع صديقي سبيله في الحيّ إلى مقهى « الدوبون » فمرّ به عجلاً ، ليجوز الشارع الضيّق الطويل ، شارع « السوربون » ، وعلى طرفيه مطاعم ومقاه قديمة ، وليدخل إليه كما دخل أول مرّة من الساحة التي تحمل اسم « السوربون » وفي قلبها التمثال الحجريّ ، وعلى يسارها مدخل الإدارة .

لقد دخله منذ خمس وعشرين سنة ، وكان أشدّ ما يكون شوقاً إلى التعرّف إليه ، لشدّة ما تقلّب اسمه على سمعه ، فقد كان خلال حقبة طويلة وحده مرادَ الطلاب السوريين . وكان حلمه حقاً ، وكان منية النفس أيام الصبا ، يحب أن يجوز إليه وأن يدخله ليرى البناء الذي كان يتصوّره ، فإذا هو أمام بناء قديم ، بناه « روبرده سوربون » سنة ١٢٧٥ للميلاد منذ سبعة قرون ، ليكون معهداً للفقه الديني آنذاك ، ثم تحوّل إلى قاعات عامة ، وغرف الإدارة . وقد صبغه السواد من كل أطرافه شأنه في ذلك شأن أبنية باريس القديمة كلّها . حجرها غليظ وأنيق معاً ، وأبوابها عريضة ، وباحاتها مكشوفة للسماء ، كما كانت أبنية العالم كلّها ، قبل أن يخترع المهندسون المعماريون طبقات العمارات والعيش تحت السقوف المتعدّدة .

دخل من الباب نفسه ، ولم يشعر بمن كان يمسك له الباب أو من يتسلّم منه الباب على عادة القوم ، لأنّه طار إلى الماضي في سرعة مذهلة ، ووقف به طائر الذكرى عند الساعة الأولى للتسجيل لأنّه لم ينسها أبداً ، فقد وقف يومئذ وراء « الصفّ الطويل » من طالبات وطلاب ، ولبث ينتظر دوره ، وهو يحمل عدداً من الأوراق كتب عليها اسمه ، واسم أبيه ، وبلده ،

فلمّا بلغ إلى الولادة ، وضع تاريخاً تحمله « بطاقة الهوية » فرسم السنة المذكورة، ونسي الشهر واليوم ، لأنّه لم يُعن بهما في حياته ، وقد جاوز العشرين . فلمّا بلغ إليه الدور وصل إلى كوة ضيقة ، وراءها أمينة السر ، وكانت في وجه يفتن الشاب الجديد ، فأسلم الورقة ، ولكنّ الأمينة سألته أن يسجّل اليوم والشهر ، فزادته ارتباكاً وخجل ممّن وراءه ، وخشي أن يضحك منه الصفّ الطويل من الطلاب إذا قال إنّه يجهل يوم ولادته، فلم تكن بلاده تحفل بذكرى الولادة ، ولم يكن ثمة ضبط لسنة الولادة وشهر الولادة . لقد سمع والديه يختصمان في ذلك غير مرّة ، ولا ينتهيان إلى تحديد إلاّ كما يحدّد العرب القدماء تواريخهم بأيام العرب المشهورة ، فقد حفظ عن أبويه أنّه ولد بعد سنة « الثلج الكبير » بسنوات ، وقد دهم بلده ، فسدّ منافذ الطريق ، وحبس الناس في بيوتهم ، فغلت الأسعار ، ونفدت الأقوات ، وعجزت المواصلات الضعيفة آنذاك عن استجلاب الأغذية ، فظلّت ذكرى السنة في الأذهان ، يؤرخ بها الآباء وتسجل عندها الزيجات ، وفي هذه السنة الكريمة تكرمت عليه الحياة بالوجود ، فذكراها عالقة بالأذهان على كره من والديه .

ولم يكن صديقي إذن على ثقة من سنة ولادته ، فكيف يكون على معرفة بالشهر واليوم ، ولكن الأمر لا يحتمل الإبطاء ، فارتجل يوماً من « آذار » ، ووضعه على ورقة التسجيل ، فلمّا عاد بعد شهور ليسجل النصف الثاني ، من السنة ، ارتجل يوماً من شهر لا يذكره ، على ورقة جديدة لموادّ جديدة . ووصل إليه بعد أيام كتاب من « أمينة السر » يدعوه إلى المثول أمام الكوّة ، وكان حساب لا ينساه ، ولن ينساه ، لأن الفتاة حسبت أن الطالب الشرقي يعبث ويمزح ، فتولّته على جمال طلعتها بكلام لم يفتنه ، ورجته أن يؤكد وأن يختار أحد التاريخين ، لأن الأيام في تلك البلاد محسوبة موقوتة ، لها قيمتها وأهميتها ،

والعبث بها خطير . فأحال صديقي الأمر على السنين الهجرية ، وأنّه سجّل عليها ، وأنّ تحويلها إلى الميلادية ، قد يجلب هذا الاضطراب ، فما وثقت أمينة السر ولا اقتنعت ، ولكنّها هدأت . واختارت ليوم ولادته ١٤ آذار ومنذ ذلك الحين اتخذ هذا اليوم مولداً له حددته أمينة السرّ في السوربون .

وانصرف صديقي عن هذا الموقف خجلاً يتمنّى أن ينسى الأمر وأن لا يعود لمثله ، وأدرك أن القوم يهتمون بالساعات ، والأيام ، في حياتهم ، وأن الساعة إلى الساعة تستنفد العمر ، وأنّها هامة في عيش المرء يجب أن لا يستهين بها المسافر في قطار الحياة . ولذلك كان الطلاب يتمسّكون بالدقائق في الدّخول إلى المحاضرة ، فإذا تخلّفوا أقفل الأستاذ الباب دونهم ، وحرموا من ساعة المحاضرة ، لأنّها ساعة حقاً ، أعدّ لها الأستاذ خلال أيام ، وجمع لها المصادر ، وحملها في حقيبة كبيرة ، وفرشَها على المنضدة ، يقلّبها ليشير إلى المرجع بنصّه ، فيصدقه الطلاب والطالبات ويؤمنون بأنّه باحث عالم . ويعدّ لها الطالب قلبه ونفسه وسمعه ، فلا يهمس في أذن زميلة أو زميل ولا ينبس بكلمة . وإذا فعل قدم إليه « الحارس الجامعي » أو الشرطة الجامعية فمزقت بطاقته ، وحرمته من البقاء ذلك الفصل في جامعة باريس ، واضطرته إلى الانتقال عنها ليسجّل نفسه في جامعة جديدة .

وكان صديقي يشهد هؤلاء الحراس الجامعيين في كل أمر ، عند الباب ، وفي قاعات الامتحان بالليسانس والدكتوراه ، والشهادات العليا ، فهم الذين يراقبون الامتحانات دون الأساتذة ، وهم غالباً من طبقة العمال ، قد شوّهت الحرب بعضاً من جسدهم ، فاستخدمتهم الجامعة لأنّهم قاموا بواجبهم الوطني دفاعاً عن شرف الوطن ، وفي سبيله أوذوا . وهؤلاء الحراس هم الذين يفتحون باب المدرّج ، وهم الذين يغلقون .

يدخل الأستاذ الجامعي في السوربون من الباب الخاص به ، ويدخل الطلاب

من باب آخر ، لأن للمدرّج بابين على الطريقة القديمة ، حتى ليظنّ الظان أن الأستاذ منفصل عن طلابه ، يلقاهم خلال ساعة المحاضرة فحسب . ولكنّ الأمر على غير ذلك ، لأن الأستاذ يطلق لأبنائه مواعيد مختلفة في بيته ومكتبه ، يدربهم ويهديهم ، ويتلقّى النقد والنقاش بصدر رحب ، بعد المحاضرة ، لأنّه يعيش بالأجيال التي يتّصل بها ، فيؤدي رسالته على خير سبيل .

ولقد طاف صديقي بهذه القاعات التي كان يختلف إليها أيام الحداثة والدراسة ، فرأى جيلاً جديداً لا يعرف منه أحداً ، ذكوره والإناث ، فتخيّل أيام الماضي ، وحسب أن في هذا الجيل شبهاً لذلك الجيل ، وأنّه لو سأل إحداهن عن نسبها لوقع على من كان يعرف في القديم من أهلها ، وتصوّر هذه البساطة القديمة بين الطالبة والطالب ، والزميل والزميلة في تبادل الكتب والمعلومات ؛ وتذكّر مواقع اللّقاء في الأروقة ، أو في المكتبات .

والمكتبات كانت مفتوحة أبداً خارج الجامعة إلى ساعة متأخّرة من اللّيل ، يلوذ بها الطلاب والطالبات ، والصمت يخيّم على القاعة ، والأماكن متوفرة في برد الشتاء وحرّ الصيف ، يلجأ إليها الفقير والغني ، لأنّها تجمع الطلاب من الكلّيات المختلفة الموزعة على أطراف الحي . فكلّية الحقوق في مكان مختلف ، لكنّه قريب ، كان صديقي يلجأ إليها ليشهد حرية في بعض القاعات لم يكن يشهدها من قبل ، فهي تحوي غالباً الطبقة المترفة من الطلاب والطالبات لأيامه ، وما يزال يذكر في كلية الحقوق ما كان يقع بين الأستاذ « جيفار » وبين طلابه ، حتى ليشتد النزق أيام العبث السياسي بالأستاذ فيخرج من القاعة غاضباً ، ويسترضيه نفر منهم ، فيعود ليبدأ من جديد .

وكلية الطب في مكان آخر بقلب الحي ، لم تصله بأصحابها صلة ، على سعتها ، فهو ينكر لعهده أشد الإنكار هذه الأرقام المتّصلة ، والمخابر المجهّزة ، وإنّما كان صديقي يلجأ إلى أصحاب « علم النفس » فيجد عندهم ضالّته ،

لأنّه كان يعجب بالتحليل النفسي والسبيل الذي يسلكه العلم إلى مقاييس الذكاء ، وإلى دروب المعرفة بالنفس . وكان يريد أن يجمع بين محاضرات المدرسين في الأدب الصرف والتاريخ الواسع ، وبين محاضرات هؤلاء الذين يعنون بالناس على اختلاف أسنانهم ، ليبلغ إلى معرفة ما كان يتوق إليه دائماً من سبر الغور ، وإدراك النفسيات في دراساته . إنّه يريد أن يتطور درس الأدب عند الناقد ، فيلمّ بكل النواحي العلمية التي تكتنفه . وكان يجد ذلك في المعاهد العلمية العالية المتخصّصة ، وقد زرعت في أطراف السوربون يحج إليها المختصون من الأساتذة والطلاب ، ولا يجتمع منهم إلاّ القليل حول مائدة التدريس ، وأخصّ هذه المعاهد « الكوليج ده فرانس » !

لقد كان صديقي يستمع فيها خلال عام إلى محاضرات مختلفة ، « لبول فاليري » حول الظلال والألوان في الأدب الفرنسي ، وكان يضيع في زحمة الأفكار والصور ، ويغيب عن الفهم ، فيتّهم عقله ولغته لبعده عن إدراك الأسرار العميقة في التعبير والتصوير . ولكنّه فرح مرّة فرحاً لا يعادله فرح ، إذ رأى وزير المعارف « جان زاي » يستمع في الصفّ الأول لفاليري ، كما يستمع الطلاب والمختصّون ، ورآه بعينيه يُغفي خلال المحاضرة دقائق كانت موضع النكتة في صحف فرنسة كلّها . وكان انتقام صديقي للشكّ في نفسه انتقاماً دفع عنه كثيراً من عقد النقص ، وكانت النظرية سائدة في أيامه .

وعقد النقص هذه دفعت صديقي إلى الانزواء والهرب من زملائه ، يطوف كالنحلة وراء كل زهرة ، ويسعى وراء كل محاضرة ، فيجري من قاعة إلى قاعة في هذه المعاهد المزروعة بالحي اللاتيني حول « السوربون » وفي السوربون نفسه . وكان يزحف إلى الاحتفالات العامة ، وقد شهد الاحتفال مرة بوفاة أستاذ جامعي ، وعجب أشدّ العجب لحال السير والنظام ، فالسوربون

فوق كلّ مقام ، ومن مصنعه جاء الحكام والمفكرون ، وما يزال يصنع الأجيال منذ القرن الثالث عشر للميلاد حتى الساعة . ولو وصل بين المتخرّجين في خط طويل لبلغ آلاف الكيلومترات ، بعضهم دخل في السياسة فتدرّج على المنابر ، واشتهر على ألسنة الصحف ، وبعضهم ملأ المكتبات في الحي ، فاحتلّ رقاعاً واسعة من رفوف الشوارع ، وبلغ حتى أطراف نهر السين . وأطراف نهر السين تغص بالصناديق الحديدية تقفل في الليل ، وتفتح خلال النهار ، فتعرض على المارة أصنافاً في الفنون جميعاً ، على أسعار تحيّر العقل . وقد يصطاد المرء فيها ما لا يجده في المكتبات من نوادر ، ربما ضنّ الزمان بمثلها سنين وسنين . وهي تكمل المكتبات العامة ، وتخدم طلاّب المعرفة ، وربما أنشأت على الأيام كتّاباً ومؤلفين ، و « أناتول فرانس » استطاع أن يجد عندها زادَه ، وأن يبلغ من ورائها إلى نبوغ وشهرة ، وتأليف كبير .

وتعب صديقي من الطواف وراء الذكريات يصعد الأدراج وينزل ، حتى بلغ إلى بلدية الحي ، فوقف عندها وهي في نظره تتمة لبنايات السوربون ، فكانت تضمّ مرّة في كلّ عام سهرة عامرة ليليّة تجمع الطلاب في الحيّ ، حتى الصباح ، تتّصل فيها قلوب وتنفصل فيها قلوب ، بألبسة محلية تمثل مختلف الأزياء لكليات الفنون ، والعلوم ، والطب ، والحقوق ، والآداب ، والصيدلة . والمرح يسود ، والسعادة تغمر الوجوه . وصديقي وقف غير بعيد عن البناء ، وركن إلى مقهى مواجه قريب من « البانتيون » مقبرة العظماء وهو « الكابولاد » ، يشهد الجيل الجامعي الجديد ، فرأى نفسه قد عادت إليه ، ونسيَ كرَّ الأعوام ، وغاب عن الذكريات القديمة في غمرة الذكريات الجديدة والأحاديث الجامعية تتكرّر ، ويقف طالب شاب ليقلّد أستاذه في الجامعة ، وقد سقط الرداء عن كتفيه ، فيصيح به زملاؤه : « أصلح رداءك » ، فيعمد إلى إصلاحه في عبث يضحك

المقهى ، ويضج له غلمان المقهى . لقد شهد هذا منذ سنين ، ويشهده هذه السنة ، ويذكره كلّ يوم ، ويضحك منه كما كان يضحك لأول مرّة ، لأنّه جديد طريف في كل مرّة ، والعبث سبيل العيش في الحي ، ومتنفس الطالب السجين بين الأوراق والأروقة ، يعود إلى غرفته مع المساء ، وقد ابتلع قليلاً من الأكل اليومي ، ليمسك به الرمق في الجهاد وراء دروسه ومحاضراته ، لعله ينجو في امتحاناته ، ويسافر إلى عمل ، أو يهجر إلى بلده ، وفي رأسه آلاف الذكريات تملأ أيامه كلّما ذكر السوربون ، وعاد إلى الوراء مع الماضي . والماضي جميل ، لأنّه قطعة من الحياة . والذكريات صدى السنين ، كما قال شاعر العرب المعاصر أحمد شوقي .

رحم الله أيام السوربون .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس

في العالم الحديث

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

في عاصمة السوفيات

كان صديقي يقبل على السينما في صباه ، فيرى فيها فائدة ومتعة تشبه فائدة الكتاب ومتعته، ولذلك كانت شديدة التأثير في نفسه، وخاصة تلك الصالات التي كانت تعرض أشرطة هادئة عميقة . وكان يتردّد مرّة كل أسبوع إلى هذه الروايات الشهيرة التي ألفها كتّاب عالميّون ، يقرأ عنها قبل أن يراها ويلخّص منها ما يراه بعد خروجه من صالة العرض مباشرة في كراسة ، اتخذها لنفسه ، وما يزال يرجع إلى هذه الكراسة ، فيرى فيها مادّة دسمة ، قلّما يقع عليها إلاّ في الكتب . والسينما عنده شريكة للكتاب ، يقرؤها مجسّمة متحركة ، والكتاب يقرؤه فيجسّم خياله ما في السطور .

وكان من أعمق ما بقي في ذهنه أسماء هؤلاء الكتّاب الروسيين الذين خلفوا للسينما والرواية آثاراً خالدة ، فلن ينسى روايات : الأميرة ماشا ، وميشيل ستروغوف ، وآنا كارنين ، والحاج مراد ، وراسبوتين ، والقيصر ، وغيرها من روايات درجت في جملتها على تصوير ذلك الوسط الروسي في بيوته ، تظهر فيه زاحفات الثلج ، والفرو الأبيض ، ورقص القوزاق ، وشراب الفودكا ، وما تزال كلّها تعيش بين سمعه وبصره ، لأن مشاهد الصبا تعلق بالذاكرة ، فتخدّد فيها خطوطاً لا تمحى ، كما يخطط الإزميل في التمثال .

فلمّا قصد إلى باريس تعرف إلى بعض الروس البيض ، ودخل مطاعمهم المتواضعة والرفيعة ، وأكل حساء « البورش » والسلطة الروسية ، والمآكل الروسية القديمة ، وتعرف إلى فتيات روسيات ، وطلاب من روسيا .

ثم أتيح له أن يقضي صيفاً كاملاً مع الشباب الروسي في فرنسة ، تحت

الخيام وعلى الشواطىء . وعرف بعدها زميلاً في دمشق خلال خمسة عشر عاماً انحدر من الروس النازحين كذلك ، فاشتدت معرفته بروسيا القديمة ورجالاتها .

فلمّا دعي أعضاء « المجمع العلمي العربي بدمشق » إلى زيارة الاتحاد السوفياتي ، اختاره رئيس المجمع عضواً في الوفد[1] . فسافر إلى استوكهولم ، أولاً ، ثم دخل مع الداخلين إلى موسكو ، فلم يعبأ بالبرودة التي اشتدّت آنذاك حتى بلغت العشرين تحت الصفر ، لأن حرارة الشوق إلى الاطلاع والرحلة كانت أقوى من كل طقس أو ظرف . ولأن وسائل الحضارة تردع البرد وتردّه ، ففي زجاج الفندق المزدوج ما يطمئن ، وفي حرارة الغرف ما يُرضي ، وفي السيّارة تدفئة تكفيه . وأمّا الثلج الذي كان يملأ الشوارع ويعلو قامة أو تزيد فلم يكن شيئاً يبدّل منهاج الزيارة ، لأن المنهاج غاصّ بكل طريف يغري بمشاهدة جوانب الحياة في الاتحاد السوفياتي .

ولقد كان في جملة هذه الجوانب زيارة « الكرملين » ، قبته وأبهائه وأسواره وقاعاته ، فرأى مدفعه العتيق ، وأعجب بالكنيسة القديمة فيه وكنوزها النادرة ، وكان في المنهاج كذلك زيارة الجامعة ، وهي على بناء من أضخم ما شهد في بناء جامعات الشرق والغرب ، وزينتها من أغنى ما رأى وما سمع .

وطاف به الدليل هذه الشوارع العريضة ، وفي كل ساحة تمثال لواحد من العظماء ؛ وحول التمثال تاريخ يذكّر بالماضي ويتّصل بالحاضر ، فعاش مع الآثار الباقية والقصور ، فتخيّل أنّه ما يزال يرى نابليون يرتد أمام أسوار موسكو وهي تحترق ، والبرد يعطب كل محارب ، وبؤس الحرب ينافس اليأس من احتلال هذه البقاع . وتخيّل كذلك « راسبوتين » وعهده ، وما

---

١ كان الوفد يتألف من الدكتور حسني سبح والأمير جعفر الحسني والشيخ محمد بهجة البيطار ، وصديقي .

قرأ عنه ، وما شهد من مسرحيات تمثله ، وأشرطة تصوّره . ونظر إلى من حوله من نساء ، قد صورهنّ « تورغنييف » وغيره من أدباء الروس .

وطاف به الدليل كذلك مزارع جماعية ، وتجارب زراعية ، فرأى الانتاج في مؤسسات « الكولخوز » ، و « السوفخوز » ، وشهد همّة القوم في معالجة الشجر والثمر والزهر ، والحيوان ، والماء . وسجّل الأرقام كأنّه يريد أن يتفهّم النظام ، وأن يدرك تجربته البعيدة .

وتمتّع خلال زيارته بالريف الروسي الهادىء ، والأرض يغطّيها الثلج ، ويخفي معالم كثيرة تحته ، فكأنّه كساء مخيط على قدر هذه المساحات الواسعة ، ولا يبدو من هذه المعالم إلاّ الطريق وحده الذي تسلكه هذه السيارة الجديدة المدفأة الفخمة « ZIM » ، وهي تطوف به هذه الأرجاء البيضاء المتماسكة كأنّها قطعة واحدة ، أو صفحة واحدة ، يكتب عليها القدر سطوراً لا يدركها إلاّ القوم هنا ، فهم يعرفون أنّ الثلج يردّ عادية الغزاة ، ويدفع المغيرين عن هذه الأرض ، في مرّ العصور .

وانقلب الدليل إلى المتاحف يرودها ، ليعرض تاريخ القياصرة ، وحياتهم ، وحياة هذا الشعب ومراحل نضاله ، فانتقل من معهد « لينين » إلى الإذاعة ، ومن الإذاعة إلى المتاحف المختلفة ، ثم راح يتفرج على « المترو » ومحطّاته ، وكل منها تنافس الأخرى ، كأن العمال شاءوا أن يكون لكلّ طائفة منهم محطة يتفاخرون بها في المهارة والتخطيط ، وقد انتصروا على دهشة المتفرج ، وحازوا الإعجاب .

وانتهى صديقي إلى أن « موسكو » تباهي الحواضر بجلال البناء وضخامته ، وعظمة كل شيء فيها وسرعة ما يقوم فيها ، فالسوفيات يعملون ليل نهار ، وينقلون الأبنية من أماكنها فيما نقل إلينا ، وقد أجروا تجربة لمستشفى تقوم فيه العمليات ، نقل من مكانه إلى موضع آخر ، من غير أن

يخلّ ذلك بالعمليات الجارية .

وفي غمرة هذه الزيارات ، أحبّ صديقي أن يزور الكاتب الكبير « إيليا اهرنبورغ » فقد عمل الرجل بقلمه ما تعمله الجيوش كاملة ضد الدكتاتورية ، وقامت كتبه ، وقصصه ، ورواياته ، مقام الدبابات والطائرات والقنابل ، في تهديم معنويات الأعداء الذين غزوا رقاعاً واسعة من روسيا ، وعمل سلاح الرجل في ردّهم على أعقابهم منهزمين . وتذكّر صديقي لقاء مع هذا الكاتب السوفياتي سنة ١٩٤٩ إثر محاضرة ألقاها الكاتب في باريس ، تحدّث فيها عن الإنسان الجديد ، وقد دارت بين الكاتب وأعضاء المجمع أحاديث لا تخلو من طرافة .

وقضى الصحب في موسكو أياماً طويلة ولياليَ عامرة ، شهدوا فيها كثيراً خلال الأيام ، وأما الليالي فكانت لإمتاع العين والأذن ممّا لا يراه إلاّ في تلك الحاضرة المثقّفة . ولكن المنهاج يسوق إلى « لننغراد » وهي حاضرة قديمة ، لعهد سطّر في التاريخ صفحات ، وكتبت من أجله مجلدات ؛ ففيه رتع القدماء في الترف ، وسكنت بقربهم أشباح المخطوطات من بلاده .

وكان في شوق إلى هذه المدينة ، يرنو إلى لقاء هذه الأشباح القديمة فيها ، والمخطوطات التي تعمر خزانتها . فلمّا ركب القطار إلى لننغراد راح يمنّي نفسه بكسب جديد ، وصيد جديد ، فهو لا يعرف هويّة هذه الأشباح ، لأن المخطوطات كلّها لم تفهرس ، وفي ظنّه أن الذي وصف منها هو (١٧٠ نسخة لا غير) . وبقي سائرها مجهولاً حتى الساعة .

لذلك فرح صديقي بأن يسير إلى هذه المخطوطات ، وأن يقلّبها واحدة بعد واحدة ، وأن يسجّل في كراريسه أوصافها ، كما كان يفعل في خزائن استانبول خلال شهور ، وهو يصف نوادرها ، وكما فعل قبله أحمد تيمور وأحمد زكي ، وغيرهما ، ممّن زار هذه المتاحف الخطية .

فلمّا أقبل على هذه « النوادر » ، راح يقلّب أوراقها في شغف ، وينظر إلى المداد في حبّ ، ويعجب لجلودها الثمينة ، وكتاباتها المطرّزة المذهبة ، فالتصوير لا يستطيع أن يظهر كل ما فيها من إبداع ، لأنّه جامد ولأنها تتحلّى بالحركة الفنية الرائعة . ولبث أيامه الثلاثة في لننغراد ، يصحب هذه النسخ يقرؤها صباحاً ومساء بل يمكث معها يومه كلّه ، من غير أن ينصرف إلى غداء أو مطعم أو دعوة ، فعندها طعامه وغداؤه . وقد عجب الذين يشرفون على هذه المخطوطات العربية لهذا المطالع النهم ، وطلبوا إليه أن يوقّع اسمه ، وأن يكتب لهم رأيه ، وأن يعينهم على تفهّم ما غمض عليهم . وأوقفوه على تواريخ بعض المخطوطات وحكاية استجلابها ، وأيقنوا أنّه لا بد أن يكتب يوماً في قصص هذه النسخ كما كتب قبله صديقه المستشرق « أغناطيوس كرتشكوفسكي » كتابه المشهور « أربعون عاماً مع المخطوطات العربية : بين الكتب والناس » .

لقد عاش المستشرق الروسي في هذا المكان نفسه ، وفاجأته هذه المخطوطات تفد إلى الخزانة ، طائفة بعد طائفة ، يقلّبها ، ويأنس بها ، ثم يتعرف إلى ما فيها من تواريخ عجيبة ودواوين نادرة ، راح يتحدّث عن محتوياتها وعن أصحابها ، حديث القصصيّ البارع ، حتى طبع كتابه هذا بالروسية عدّة طبعات ، وترجم لطرافته إلى عدّة لغات ، وشارك صديقي في ترجمته عن الفرنسية إلى العربية منذ زمن غير بعيد ، وقد سجّلت دار النشر في موسكو اسمه بين المترجمين ، وما يزال يرجو أن يدفع الترجمة الحرفية إلى النشر في يوم قريب .

وعندما تظهر هذه الترجمة الكاملة يفهم الشرقيون أيّ عشق أصاب المستشرق الروسي في حبّ المخطوطات ، وأيّ عناء كابد في لقائها ، وأية أسفار قام بها في مغازلة هذه النفائس العربية .

فقد أقبل هذا الروسي مرّة إلى بيروت ، بُعَيد الحرب العالمية الأولى مباشرة ، يحمل تحت ابطه مخطوطتين لديوان شاعر دمشقي عاش في الغوطة فلاحاً عمره كلّه ، ولكنّه دخل في الشعراء الذين وفدوا على سيف الدولة ، ومدحوه ، واشتهروا به واشتهر بهم ، وتحدثت كتب الأدب عن مختارات شعره ، ولكن ديوانه لم يكن قد ظهر على النور ، فاتخذه هذا الشاب الروسي رسالة للماجستير ، وقصد بيروت فتعرف إلى أعلام الآباء اليسوعيين : لامنس وشيخو والصالحاني فأعانوه ، ثم سافر إلى مصر لموازنة مخطوطتيه بنسخ القاهرة .

وعاد هذا الشاب إلى بلده ، فترجم شعر هذا الشاعر الفلاّح إلى الروسية ، وقدّم بين يديه دراسة واسعة ، تعدّ نموذجاً في الدراسات الأدبية كلّها ، ولقد اشتهرت بين المستشرقين ، فتناولها صديقي منذ عشر سنوات بالعناية ، وكلّف من يترجمها له إلى العربية ، وقام ثانية بتحقيق الديوان نفسه ، وأرسل إلى المستشرق ينبئه بلقاء المخطوطة المخطوبة المتمنّعة في العراق ، فلقي الترحيب والثناء . وطابت نفس المستشرق الروسي لهذه الرعاية يقوم بها لهذا الشاعر مواطن يحب الشعر والشاعر والغوطة . وتوالت المراسلات بالعربية والفرنسية بين صديقي وبين المستشرق حتى أصبحا صديقين على البعد من غير لقاء أبداً .

لذلك كان واجب صديقي حين بلغ إلى لننغراد ، أن يتولّى إلى بيت المستشرق الكبير ، يقدّم التحيّة إلى زوجه العالمة الفاضلة ، وأن يتوجّه معها في ركب من أصدقائه إلى زيارة الضريح ، ذكرى للصداقة القديمة ، وإكباراً لأيادي الرجل على العربية ، وسعيه وراء مخطوطاتها ، ورعايتها وتحقيقها . وشكرت السيدة العالمة هذا الوفاء العربي ، وانحنت من جديد أمام ضريح زوجها الراحل ، تشهد على اعتراف العرب بمن يخلص في حبهم ، فقد سمعت كثيراً عن الصديق العربي ولكنّها تراه أول مرّة في بلادها قد غرّب ، كما شرّق زوجها . ووقفت أمام الضريح المرمري تسجّل صورة للزيارة ،

لتحتفظ بها فيما تحفظه من رسائل العرب وصورهم ، مع الوثائق التي خلّفها زوجها في دراسة العرب وخدمة أدبهم .

وعاد صديقي إلى الخزانة ، في صبيحة اليوم التالي ، يعكف على تقليب هذه النوادر ، وفحصها ، وقياسها ، وتسجيل أوصافها ، ومفتتح النسخ فيها والختام ، فوقع على صيد كان يعدّ له الشباك ، ومخطوطة يرقب أن يراها منذ أعوام ، فقلبها بين يديه ، وهو مغتبط فرح ، ونسي نفسَه ، وهو يلتهم السطور ، حتى نبّهه الحارس إلى موعد إقفال الخزانة ، فودّعها بنظرة أسى ، ومنّى نفسه أن يعود إليها مع الغد ، فهو يحب أن يرى ما فيها من كنوز وأن يلمسها بيديه ، فيحقّق حلماً كان يراوده منذ سنين ، كما يحقّق العاشق أحلامه بلقاء حسنائه .

بين تلال الثلوج

عجبتُ لصديقي يقلّب هذه الصور الخطيّة مراراً بين يديه ويعيدها مراراً ثم يطيل النظر إلى بعضها طويلاً ، فلا أفهم لماذا تقف عيناه عند هذه الخطوط العربية حتى تجسّمها ، فتصبح ذات أطوال وأبعاد ، وتكتسي بالحياة ، حتى لكأنّه يحيا فيها ثانية ، حياة لذيذة ينسى فيها نفسه ، وينسى أنني معه منذ ساعات . ويتمتمُ أحياناً بشفتيْه ، هاتين الشفتين اللّتين تلتصقان بالصور ، فيخيّل إليّ أنّه ينحني عليها كأنّه يقبّلها ، ولكنّه لم يفعل . ولعل ذلك لأنها ذكريات عزيزة تعلّقت بقلبه ، ونفسه ، وروحه ، وما كنت أدري أن ورقات بسيطة تبعث في النفس زفرات ، وتوحي إلى الإنسان بالكلمات ، كما توحي إلى صديقي ، فكأنّه شاعر من شعراء العاطفة ، قد عشق الطبيعة وأضاف إليها عشقه للورق المخطوط القديم ، فقد جعل من هذه كلّها مخلوقات تحدثه ويحدّثها ساعات ، تفهم عنه الحنين والشّوق ، ويفهم عنها الوفاء والصدق ، ولعلّه يلقى مع الغد هذه المخطوطات إذا أصبح ، ويلقاها إذا أمسى ، فهو يعيش مع الماضي أكثر ممّا يعيش للحاضر والمستقبل . وإنّي لأعرف أنّه لا يملك حاضراً ولا مستقبلاً . لذلك تعلّق بالأشباح الماضية ، شأنه شأن غنيّ ملك الأرض ، والزرع والبناء الشامخ ، وعاش فيها جميعاً ، فلمّا فقدها أصبح قلبه إلى الأبد عالقاً بها ، وعيناه ترودان أماكنها ، وأذناه كأنّهما تسمعان أغانيها ، ونفسه كأنّها تتغذّى بالأشباح !

ولعلّي لو أنشأت صفحات طويلة ما بلغتُ إلى الوفاء بعشق صديقي لهذه الصور ، صور المخطوطات ، ففي الخطوط يجد تاريخاً يقف عنده ، وفي

السطور يقرأ أياماً قضاها في سبيل اقتناص هذه الصور . ولقد وقف منذ قليل عند صفحة مكتوبة ، لم أعرف كيف يحرص المرء على مثلها ، فهي بخطّ جميل قد سفح عليه دمع كثير ، فطمس معالمه طمساً ، وغابت كلمات ، ولكنّه كان يقرأ مواقع الدّمع ، كما يقرأ القدماء سطور العشق في مواقع الدّمن بعد براح الأحبة . كان يقرأ فأحسبُ أنّه يضحك مني أو يغرّر بي ، ولكنّه وقف قليلاً ليشرح لي تاريخ الصورة .

إنّها صورة خطيّة لتاريخ كتبه مؤرخ قديم تحدّث فيه عن سورية وما تقلّب عليها من أحداث خلال ستة قرون . وهذا التاريخ ثمين نقله رجل من رجال العلم في سورية إلى الكردينال ريشيليو الذي دوّخ فرنسة ، وطمع في السيطرة على الشرق ، فاستجلب التواريخ ليترجمها له أبناء البلاد نفسها ، وكان فيها هذا التاريخ الذي عاش قروناً بعد نكبة سورية بالتتر ، وحمل إلى مصر ، ومن مصر حمله هذا العالم إلى خزانة ريشيليو .

وتحولت خزانة الملوك ووزرائهم إلى خزانة وطنية للشعب بعد « الثورة الفرنسية » ، فيما تحوّل من قصور إلى خدمة الشعب . وتولّى العرق والرطوبة إتلاف السطور . وأمسك صديقي بها كعاشق يتعلّق بثياب المعشوق لا يريد أن يفارقه أبداً . وقرأها وطبعها ، وقدّر مواقع الطّمس فيها ، واخترع جملاً تحلّ محلّها . فلمّا وقع بالأمس على النسخة في خزانة لننغراد بات ليله وهو يحلم بموازنتها بأختها نسخة باريس . وحين أقبل الصباح ركض إليها وهو يعلم أنها تشبه نسخة ريشيليو تماماً كأنّها أختها ، فماذا وجد ؟

كانت عينا هذه الروسيّة، قيّمة المكتبة، تتبعانه في شغف ، وتعجبان لهذا الدارس الشرقي ، يقبل على الورق إقباله على أمتع ما في الدنيا ، ويلتهم السطور ، ويفتش عن الثغرات التي كانت في كتابه ، فإذا به يعود اليوم أشد فرحاً وغبطة، فقد وجد أن العبارات التي اقترحها لسدّ الثغرات هي العبارات نفسها

التي أوردها كلام المؤلف نفسه ، ما عدا حروف العطف أو الجر . لذلك طلب صورة أو شريطاً لهذه النسخة ، فكان كرم الضيافة ينافس كل شيء ، وما ارتد إليه طرفه حتى خرج وابن العديم في جيبه على نسخة ثانية كاملة لا طمس فيها ولا بلل ، وجلست الروسية غير بعيد تفتش وتقلّب جزازات الخزانة وبطاقاتها ، قليلاً ، ثم عادت تناجيه بعينين لا تفهمان غير الروسية ، وبين يديها بطاقة تحمل اسمه في المكتبة عندها ، ومعها كتب قد عراها بعض القدم ألفها ونشرها صديقي بدمشق ، فعرف أنها تريد أن تقول : لقد عرفتك وهذه آثارك عندنا . وانتصب فخوراً بالمرأة الغربية تسعى مزهوة إلى المعرفة لتقيم الصلة والود ، وحوله كثير في بلده ، لا يسعون إلى السؤال عن كتاب في تاريخ بلادهم وعن الذين عملوا له .

* * *

وأمسك بصورة أخرى يقلبها وهي صورة لننغراد ، والقمر يشرق على نهر « النيڤيا » والأنوار تشع ضعيفة كأنّها بريق عيون غارقة بالدمع ، والتماثيل الصخرية الضخمة تزيّن ساحات المدينة القديمة ، إنّها تماثيل ملوك وأباطرة ، أحب أن يقف عندها . ولو أنها كانت في عهد سحيق أذاق الشعب مرارة تحولت إلى ثورة ، والثورة انقلبت إلى نظام ، ورجال المجمع في هذا النظام قد دعوه فيمن دعوا من زملائه إلى زيارة البلاد ، وأكرموا وفادته كرماً شرقياً عجيباً ، يطلب ما يشتهي ويرى ما يريد أن يرى ، ويطيع رغباته ترجمان وترجمانة ، يطوفان به مع زملائه طول البلاد وعرضها ، يسهر كل ليلة مع ألحان الأوبرا . والأوبرا مدرسة عالية للذوق الموسيقي تعلو بالإنسان وتسمو ، فيعرج معها في كل ثانية إلى سماء ، ومن سماء إلى سماء ، كان صديقي يصعد ، وعيناه عالقتان بهذه الحركات الموسيقية ، تذهبان مع المسرح يمنة ويسرة ، فما رقصت محاجره في حياته كما رقصت خلال ليالي الاتحاد السوفياتي ،

لا تقاس بها ألف ليلة وليلة .

وكان يشهد في كل ليلة « قصة موسيقية » تعزف فيها هذه الأرجل الناعمة البيضاء عزيف الجن في الغابة المسحورة ، كأنّها أصابع « بيانة » ترقص تحت أنامل بارعة ، فيسمع بكلّ جارحة ، ويرى ، فيتمنّى أن تكون له ألف عين ، ليدرك كلّ زوايا المسرح ، البجعُ يخترق النهرَ أمامه على المسرح ، والشجر قد مَلأ الغابة ، والبجع كأساطير القدماء نصفُه بشر ونصفه حيوان ، يتراقص ليحكي الأسطورة ، فما تابع قصة في حياته كما تابع قصص الأوبرا ، تعزفها الأرجل وتواكبها ألحان العباقرة ، وهو مطلّ بجسمه كلّه فوق المسرح ، كأنّه في قلب الدنيا السحرية ، لا يوقظه إلاّ وقوف الجمهور يصفّق طويلاً للفصل الذي انتهى ، بين سمعه وبصره ، وقلبه عالق بما رأى وما سمع ، فكأنّه مسحور بالأنوار وقد سلّطت على الثياب البيضاء التي كانت ثياب هؤلاء الجنّ الراقصين ، بل أستغفر الله ، العازفين بأجسادهم وأعضائهم جميعاً ، يميسون ويميدون ، فيتمايل مع النساء والرجال ، إن كان من سبيل للتفريق بين الرجال والنساء ، فهو في جنّة ، أو في مشهد من جنّة قد فتحت كوّة منها ليرى كيف يعشق النغمُ أجسادَ السابحين في فضاء المسرح ، وكيف تتجاوب الموسيقى مع الحركات تجاوباً موسيقياً لا ترسمه ريشة ، ولا يستوعبه بصر .

كان ذلك في موسكو وفي لننغراد ، خلال ليال سعيدة ، فلمّا حان الفراق إلى بلدان أخرى ، وأراد القوم أن يمتّعوا ضيوفهم الأربعة بصور من حياة الناس في الولايات السوفياتية ركب الطائرة إلى « أوزبكستان » ، وكانت الطائرة من طراز قديم ، ذات محركين ، لا يضحك مظهرها بالألوان ، ولا يطول جناحاها وذيلها ، فظن أن النعيم قد فارقه ، وأنّه لن يجد في هذه البلاد طائرة ذات طابقين كما رأى في رحلته إلى الولايات المتحدة قبل شهور ،

فصعد مع زملائه ، وأُغلق الباب وراءهم بمزلاج حديدي طويل ، كأنّه يحول بين دنيا السماء ودنيا الأرض ، وراح يفكّر بالهزّات ، والجوّ ممتع رائع كما قيل له ، والطقس عظيم ، فدرجة الحرارة في تشرين الثاني آنذاك ، كانت تحت الصفر بأكثر من عشرين درجة . وذلك بالنسبة لبلاد الثلج المتراكم حسن جميل .

ودخلت الطائرةَ سيّدةٌ طيّبة المظهر ، لا تفهم عنه ولا يفهم عنها ، فلمّا أقفلت دونها الباب عرف أنّها المضيفة ، ونظر إلى الخلف ، فما وجد غرفة ولا أثاثاً ولا أزراراً كهربائية .

وأحسّ بالأفكار تدور في رأسه دوران الدوامة ، وتشغله عن محرّك الطائرة ، فلمّا نظر أمامه عرف أنها قد أقلعت في السّماء ، وعرف علوّها عن الأرض بالأمتار ، فهاله العلو ، واستطاع أن ينظر إلى « موسكو » تحته ، فلم يتبين « الكرملين » والنهر والمصانع ، وإنّما كان الضباب ، ضباب السماء والأفكار ، قد حال بينه وبين الأرض . ونهض في شجاعة لينظر حوله ، ويتبين ما في الطائرة ، فلا أحزمة تربط المسافر بالكرسي ، ولا أنوار تأمر بالقعود والنهوض ، فازداد جزعه ، ولكلّ امرىء من سفره ما تعود . وطمأن نفسَه بعد قليل ، فهو لم يشعر بهزة أو حركة ، كأنّ الطائرة على الأرض أو كأنّها مربوطة بحبال من حديد فلا تتحرّك . وأحب أن يشغل باله بأمر آخر ، فطلب شيئاً يشربه ، وكيف السبيل ! ؟ رأى المضيفةَ تقول في عربية مبينة « شاي » ، وخيل إليه أنّها من سيدات الشمال في سورية ، ولكنّه عرف أن « الشاي » شايٌ ، في بلده ، وفي هذا البلد .

وأفرغ الشايَ بعد الشاي ، وفي خلال ساعات وجدَ نفسه مع زملائه على الأرض ، فحسب أنّه وصل . فلمّا نزل بين جدارين من الثلج ، سار مع صحبه إلى غرفة كبيرة ، وبين الطائرة وغرفة الانتظار أحسّ بأن الزمهرير

قد فُتح على المنطقة ، وعلم بعد ذلك أن الطائرة اضطرت إلى المبيت في هذه القرية الصغيرة ، حتى تهدأ عاصفة الثلج ، والثلج يصل بين الأرض والسماء في كثافة ، لم يرها خلال الصور التي شهدها والسينما التي دخلها مراراً .

ولم يكن يدوي في غرفة الانتظار غير لغة الوفد الصيني ، والوفد السوري ، وليس فيهما من يفهم عن الآخر إلاّ التراجمة ، فذكر قول المتنبي : « فما يفهم الحدّاث إلاّ التراجم » .

وكان منظر الثلج وفكرة المبيت يخيفانه أشدّ الخوف ، وكان يتخيّل الشيطان يحوم حوله فيحدّثه بأحاديث عجيبة ، حتى أظلم الليل ، وهبّ مع زملائه الثلاثة إلى غرفة النوم . وغرفة النوم أشبه بالغرف التي يعيش عليها أهل الشمال في قلب الجمد والثلج ، فيها تدفئة مركزية ، والتدفئة المركزية تعني هنا برميلاً كبيراً قد امتلأ بالوقود وهو عريض جداً لا تحيط به الأيدي قد ركز في قلب الغرفة وهذه النار الملتهبة وحرارتها تستطيع أن تدفىء ساحة كبيرة مفتوحة على الريح ، ولكنّها مع ذلك لم تكن تدفىء جسمه ، لا للوهم الذي ركبه ، أو الخوف الذي غلب عليه ، ولكنّ زملاءه كانوا مثله في هذا يحوقلون ولا يجدون سبيلاً لإظهار الجزع ، وجاءت ساعة النوم ، فالتف أعضاء « المجمع » حول جدران الموقد ، بثيابهم كاملة ، وألصق بعضُهم بطنَه بالنار حتى يحسّ الدفء الذي يمهّد للنوم ، وما خاف أحدٌ أن يحترق بهذه النار المخيفة ، وآثر الجميع أن يناموا ليلتهم في انتظار الصباح .

وعادت إليه أفكار قديمة تلف رأسه وتهجم عليه في قلب الليل الهادىء الصامت ، يفكر في الإنسان الذي يصنع كل شيء في الدنيا القديمة والجديدة ، يذيب الحديد ، ويقتل الحيوان بالآلاف ، ويسخّر كثيراً من الأمور لخدمته ، كيف يقف عاجزاً أمام هذه الطبيعة العنيفة القاسية . وتساءل صديقي عن الجيوش المحاربة في الشتاء ، كيف حملت السلاح وكيف سارت دباباتها ،

وطارت طائراتها ، ومشت جنودها في سبيل النصر ، للقتل أيّ قتل ، وللذبح في كل جبهة وبكلّ طقس ، للانتصار في سبيل الغايات التي يحملون والسياسة التي بها يدينون ، وعرف أن أخبار الحرب الثانية لم تكن كاذبة ، وأن الذين طارت أنوفهم من جنود هتلر ، وسقطت آذانهم ، وجمدت أعضاؤهم بالصقيع ، قد واجهوا ميتة غريبة ، في هذا الزمهرير ، تصفّر الريح في لغة يفهمها كل إنسان عن الطبيعة ، وينهمر الثلج في حجم القنابل الصغيرة ، فتقتل من غير مدافع ، وتزحف الكتل الثلجية من أعلى الجبال فلا مردّ من الموت ، ولا حاجة إلى حفر ينزلونها ، وشواهد يضعونها ليدلّوا على أسماء الموتى ، فالموت الجماعي كالقتل الجماعي ، كالعدوان الجماعي ، ومصير الإنسان في هذه الغابة عجيب غريب يبعث على الأسى والتفكير العميق .

فكر صديقي في هذه الأرض الشاسعة الواسعة ، والقفار الممتلئة بالجمد والصقيع والثلج ، يسكنها المواطنون ، ويعيشون فيها ، ويدافعون عنها ، وينسلون فيها أولاداً ، يحيون في هذه المنطقة خلال شهور لا تشبه الشهور التي يقضيها قومه خلال الشتاء ، فربما نزل المطر الخفيف فألجأهم إلى الجدران يحتمون من رذاذه ، وربما هبطت درجة الحرارة ، فركنوا إلى المدافىء يدفئون الكسل في داخلها ، ويغذّونه بعقولهم ، ويحافظون عليه ما حافظوا على حياتهم .

تخيّل صديقي أنّه يسمع أصواتَ الموتى منذ القديم وحسب أن الثلج قد طمرهم ، والصقيع قد فرّق في كل مكان أجزاءهم ، واختلطت الجيوش الغازية العادية وتلاقت بقايا وبقايا ، لأنّه ليس هناك من رماد ولا تراب يغطّي الأجساد ، وإنّما الثلج يغسل خطايا البشر ، والأرض منذ القديم محتاجة للطوفان ، كما قال المعرّي :

والأرض للطوفان محتاجة لعلّها مِن درن تغسل

وعاد صديقي يقلب الذكريات بعد الحديث الحزين الذي ساق إليّ ، ثم ختم قائلاً : لقد سهرتُ الليل أفكر في هذه الرحلة ، وأتمنى أن أرسم من روسية ما رسمه الرحالة ابن فضلان قبلي بعشرة قرون ، وتقلبت بعد ذلك في الأفكار المختلفة ، حتى استسلمت للنوم ، وما أيقظني من الأحلام إلاّ صوت زميلي في الوفد ، علاّمة الشام ، ورأس فضلائها الشيخ محمد بهجة البيطار يصلّي الصبح هنا كما فعل ابن فضلان قبله ، فسمعت البقاع مرّة أخرى بعد ألف سنة في المكان القريب يدوّي صوت :

الله أكبر ، اللهُ أكبر . . .

حروب وغزوات

وانطلقت الطائرة من جديد إلى « ستالنغراد » في جو عاصف بارد ، وبلغت المدينة الباسلة المجاهدة ، فالقوم فيها يعتزون بالنضال ، وقد ضربوا أمثلة رائعة في الدفاع عن الأرض ، حاربوا من بيت إلى بيت ، فخلّفوا وراء كل جدار ضحيّة ، وفي كل قبو قتلى ، وسالت دماء وأزهقت أرواح ، وتناثرت أشلاء من كلّ فريق ، وكتب المحارب النازي في هذه البقاع تاريخ الحروب الوحشية ، مهاجماً ، وغازياً ، وقاتلاً ، وسفّاحاً .

ومنذ دخل صديقي ستالنغراد كان يستمع إلى قصص هذه الحروب والمعارك ، ويتبع الدليل إلى الأماكن والبيوت ، من غير أن يفتح فمه بكلمة لهول ما يسمع وبشاعة ما يرى ، فالبيوت أنقاض ، وأشباح الموتى تكاد تطل من ورائها ، ورائحة المنية تزكم الأنوف . والشريط الذي عرضه القوم لهذه المعارك أكمل الصورة وأتم البشاعة . لذلك تولاّه اليأس من الإنسان ، وكفر بالحضارة المادية ، وزهد بالمدنية الآلية .

رأى الحروب التي دارت بين الألمان والروس رأي العين حيّة واقعية ، كما يستطيع المصوّر أن يخرج من قذف المدافع وأزيز الطائرات وزحف الدبابات بصور قريبة من الواقع المرعب ، ولقد رأى كلاًّ من الفريقين المتحاربين في حمّى المعركة ، والدمار يخيّم على البيوت ويجثم على الصدور . ولا يستطيع المرء أن يملك أعصابه في مشاهدة هذه الوحشية وهذه البشاعة وهو هادىء ساكن ، ولا تتقزّز نفسُهُ ، ولا يقرف من إنسانيّته .

ولقد كان صديقي يشيح بنظره عن أكثر مشاهد هذا الشريط ، لأنّه

فوق أن تتحمّله العينان ، ولأن الإنسان لا يملك أن يرضى بانحطاط الإنسانية في القرن العشرين إلى هذا الدرك من تهشيم الرؤوس وتشويه الأجساد ، وقتل الأطفال والنساء ، وفرض العطش والجوع حتى الموت . لكأن الإنسان نسي أن أخاه في الجانب الآخر إنسان كلّ ذنبه أنّه ولد وراء تلك الحدود مصادفة ، فقتله وإبادته شرف ونصر وظفر ، وأوسمة ، ومفاخر .

تخلّص صديقي من الشريط ، فلم يقبل على غدائه بعد الذي رأى ، وتولّى إلى مشاهدة « الفولغا » لينسى مع جمال الطبيعة فظاعة الإنسان ، فطار ذهنه إلى نهر « المسيسبي » وقد رآه في أمريكا قبل قليل ، وعقد الموازنة بينه وبين هذا النهر ، وبين السكان والسكان ، وأنساه جمال النهر ما كان فيه من ضيق النفس وانقباض الصدر ، وعرف أنّ الدواء دائماً كان في مشاهدة الطبيعة . وتساءل عن الأسباب العميقة التي تدفع الإنسان إلى الحروب الوحشية وبشاعتها ، فلا يتأثّر بالجمال حوله ، ولا يستفيد من جلال المشاهد ، ويتخذ من سحرها رقّة في نفسه ، وإشفاقاً على أخيه الإنسان .

وبعد أن سار على شطئان الفولغا طويلاً ، حمله القوم إلى السدود الهائلة بين « الدون والفولغا » فرأى صلة النهر بالنهر ، وشهد البواخر تعبر السدود ، وآمن بأن الإنسان جبّار حين يتّصل بالعلم من أجل خدمة الإنسانية ، وهو عاقل حين ينصرف إلى ذلك فحسب ، وبغيره يهدّم ما تبني الأجيال في دقائق ، ومدينة ستالنغراد يتطلّب بناؤها من جديد زمناً غير قليل ، فهي أطول مدينة رآها في حياته ، قطعها من أولها إلى آخرها ، وهو يتصور المعارك التي بدأت بأول بيت فيها ، ولم تنته بآخر بيت .

واكتفى الوفد من ستالنغراد بهذا القدر ، وشبع من مآسي الغرب وحروبه المعاصرة ، فسافر بعدها إلى « أوزبكستان » ، ليذكر مآسي الشرق وحروبه الماضية ، ولكن الذكريات هنا تتصل بقومه وأمته . وتاريخها جزء

من تاريخ هذه المنطقة كلها ، وهي اليوم من الولايات السوفياتية .

وفي « طاشقند » رأى الثمار التي لا يتصوّر مثلها في مكان ، والحدائق تكتنف المدينة ، وتحيط بها ، وتحوّلها إلى جنّة وارفة الظلال ، على الوجوه من أبنائها ملامح آسية ، وفي التقاليد والعادات ملامح شربت من الإسلام ، وتأثرت بالتركية تأثراً بعيداً في كل شيء . فلقد شهد صديقي مع إخوانه مسرحية « مجنون ليلى » كما يتصوّرها الأتراك ، في غناء وطرب ، ولباس شرقي ، فأحسّ بأنّه عاد فجاءة إلى الشرق ، واهتزّ لتقارب الثقافة ، وعادت إليه شرقيته ، وحنّ إلى تلك الثياب ، وفهم لماذا يحب الغربيون هذه الألوان الصارخة ، ويجدون فيها إغراء للقلب والعين .

ومع الصباح الباكر ، هبّ صديقي إلى عالم المخطوطات بالمدينة من جديد ، فهو يعرف أن العلماء المسلمين عمروا هذه الربوع زمناً طويلاً ، وأن مدينة « بخارى » على مقربة من « طاشقند » أخرجت للحديث النبوي أكبر عالم فحل وهو الإمام البخاري ، وما يزال عمله على الأجيال موضع الإكبار والثناء .

وفي خزانة « طاشقند » نوادر لا تحصى ، وجواهر أقبل عليها صديقي ، يقلّبها بين يديه ، فقد اقترب من تركيا ، وسمع لهجات تركمانية ، يدركها من له إلمام باللّغة التركية أو اللّهجات الشرقية . ولم يقع بين هذه المخطوطات كما وقع له في تركيا ، لأن فهرس هذه الخزانة مطبوع على أحدث طراز باللّغة الروسية ، والعناوين بالعربية طبعاً .

وأعجبته عناية القوم بالتراث القديم ، على بعد المعاصرين أشدّ البعد عن فهم ذلك التراث ، فقد زار مع صحبه جماعة من العلماء « الأوزبكيين » في البلد ، ولم يستطع أن يتفاهم معهم في الكلام ، وإنّما كان بعض زملائه يتفاهم بالآيات القرآنية ، صلة للتعارف والوداع . ولم يطل الوفد مقامه في طاشقند ، وإنّما سافر إلى « سمرقند » يرى في هذه المدينة التاريخية ما بقي

من آثار مذهلة .

وأقبل إلى هذه الآثار في « سمرقند » ، يذكر أصحابها وملوكها وما فعلوا ، وما قاموا به في ديار العرب ، فقد دمّروا ، وأهلكوا ، وخربوا ، وسلكوا سبيل غيرهم من الأقوام في الوحشية والثأر ، والحقد ، كأن الإنسان من آسية شبيه بالإنسان في أوربة ، يحب الحضارة الرفيعة ، والثقافة العميقة ، كما يحب الأذى والدم ، ويختلف إليه الهدوء والرقة ، كما يختلف إليه القتال والنضال ، وما يدري أن نهايته إلى فناء ، وأن ذكره بعد الموت يتوقّف على ما قدمت يداه ، من خير ، ومن إيناس ، ومن حب . وهذه القبور في « سمرقند » على ضخامتها في البناء ، وزينتها في النقوش ، وأحجارها الفاخرة في الألوان ، تتلاشى كلّها أمام التاريخ ، فقد سجّلها بين الغزاة المحاربين السفّاحين ، وما ينفع في تخليدها بناء أخضر متسامق وأقواس جميلة بارعة ، ودروب طويلة مشيّدة ، وحمامات ، وغرف ، ومصاطب ، فإنّها أحجار تزول ، وأبنية تتهدّم ، ويأتي الزلزال عليها ، وتتقلّب عليها الأحداث ، فلا يبقى منها إلاّ ما تركته من أريج الحب ، وعطر الشفقة ، وبخور الحنان . أما المذابح والقتل الجماعي والحروب والغزوات فهي عار يلصق بالبناء مهما علا ، وبصمات سوداء تعلق بالقبب الزاهية ، فما يغطي الحجر المشيّد ذكرى الوحشية ، وما تطغى القبب والتماثيل والمآذن على أعمال الفتك والانتقام والحقد . وإنّما تزيد النار ضراماً ، وتسعّر الأحقاد ، ويتذكّر الإنسان بعدها ما كان لهؤلاء من أثر في الهدم والقتل والتخريب ، كما يتذكر أحياناً ما كان لبعض هؤلاء من أثر في جمع الحديث ، وخدمة الدين ، ورفعة الحضارة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس

في الفردوس وبقية الأندلس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

في ظلال الفردوس المفقود

بين أكوام الذكريات أصبح صديقي يقضي ساعات فراغه ، وهو لا يحس فراغاً لأنّه لا يجده ، فمشاريعه الكثيرة أشبه بهذه الذكريات ، تشدّه ذكرى إلى بلد فيقف عنده ليكتب فيه ، وما يقلب أخرى حتى يذهب في أعقابها مع الخيال ، ويتمنى أن يقول ما رأى وما سمع ، ولذلك لم يقدّر له أن يقول في رحلاته حتى أغريته وأثرته ، فأصبح أقرب إلى أن يسبح في غمرتها ، وأن يغرق في لجّها ، من أن يقف عند الساحل ناجياً ينظر ويرقب .

أثرته هذه المرة فما سكت عن حديث طليّ ، أشهد أنّه اندفع فيه وتحمّس، فكأنّ جوارحه كانت تتكلّم، وكأنّ دقات قلبه كانت تتحدّث، وظننتُ أن لقلبه أثراً في هذا الذي يقول ، لعلّه اكتوى ، أو تأثر ، أو تقلّب على جمر ، فقد كان يتحدّث في عمق وفي حب ، ويردّد كلمات ما كنت أرى لها صلة بالحديث عن الصور التي بين يديه . ففي الصور ثيران تعارك ، وفي الصور مياه تتراقص ، وتلال وجبال ، وأعمدة كثيرة ، وكتابات ونقوش ، يجمعها دفتر واحد ، قد عُني به صديقي على غير عادته ، ورتّبه وأحسنَ عَرضه . فلا بدّ من أن تكون قصته عالقةً بقلبه ، يكشف عنها ويفضح أسرارَها ، وقد كتمني مراراً قصة قلبه ، وعلاقات حياته ، وأسلمني أوراقاً يتحدّث فيها عن ماء في أمريكا ، وثلج في روسيا ، ونار في ديترويت ، ومصنع في غيرها ، ولكنّه هذه المرة في الفردوس المفقود .

لقد هبط غرناطة أول مرة فكأنّه دخل بلاده ، وغشي دمشق ، فكأن البلد ملك العرب ما يزال ، في بيوته وباحاته ، وحاراته ، وملاعبه ، ووجوه

أبنائه ، فما مر في شارع منها إلاّ لمح صديقاً عربياً قد استحالت جنسيته إلى هوية إسبانية ، يبسم لمن يرى ، كأنّه يمر بأصحاب قدماء غابوا مع العصور وعادوا ، يبسمون له ، فهو شبيه بهم وهم يشبهون قومه ، في سمرة قليلة ، وملامح عربية ، وبساطة لا تشبه تكلّف الغربي ، وكأن الزمان ما فعل أمراً هنا . ولعلّ خياله كان الذي يدفع إلى هذا الظن . ولكنّه ضحك غير مرّة حين بادره الإسبان بالإسبانية ، وعجبوا لسكوته عن الجواب بلغتهم ، فلمّا عرفوه صدقوا التاريخ ، وكذبوا ما سمعوا من الغرب ، فأهل غرناطة كأهل دمشق ، وإشارات أيديهم ، وأصواتهم في الحديث وترحيبهم ، ودعواتهم للولائم ، وساحات الدور الواسعة ، والنافورة تغنّي الأناشيد العربية في لغة لا يفهمها إلاّ العربي ، كلّها شواهد على أنّ العرب ما يزالون هناك .

وكان صديقي يقفز في البلد ولا يمشي ، فما يحس تعباً ولا يشعر بملل ، يدخل البيوت من غير تكلّف ، ويغشى الساحات ، والميادين والأحياء ، فهنا « حي البيازين » رجال الصيد بالبازي ، ما يزال قائماً يرحب بالقادم ، ويقري الضيف ، وما احتاج دليله الأستاذ « سيكوده لوسانا » أن يقدمه إلى أهل بلده ، لأنّهم يلتفون حول الضيف في حرارة كأنّهم يعرفونه منذ عصور ، فقد التقى أجدادهم بأجداده ، وسكنوا هذا الحي معاً في حمى الحمراء .

والحمراء قلعة قديمة ، ركزت على تل عالٍ يشرف على السفوح الخضراء ، وقد بنى عندها العرب قصر المليك والمليكة ، والقصر عامر يتحدّث إلى الألوف التي تدخله كل يوم ، وتجبي منه الحكومة أموالاً وافرة فهو مورد السياحة ، يتفرّج فيه الناس على الصَّبر والترف ، الصَّبر الذي تحدَّى السنين ، فبنى أروع عمارة في أكبر ترف ، فالأعمدة المرمرية تتوازى وتصطف كالجنود أمام القائد ، وبينها الجدران والنقوش كلوحات المتاحف قد رسمت

بالإزميل العربي الصابر الذي كان يخط في كل مكان « لا غالب إلا الله » ويرصف القيشاني بألوانه الضاحكة ، كالفجر الضاحك في قلب العاشق الذي ينتظر بزوغه للقاء من يحب . والمياه ما أروع المياه تسقط في العالم كلّه من أعلى إلى أسفل ، وهي هنا تصعد من أسفل إلى أعلى في « جنان العريف » ، كأنّ العرب أصعدوا في صعودهم كل شيء ، حتى الماء صعد إلى أعالي التلال والجبال ، في خطة هندسية مدهشة ، ليدهش من إعجازها أبناء هوليود وقد اصطفوا على الرابية يمتعون النفس بالسحر كما يتمتع أبناء بردى سواء بسواء .

فقد لقي صديقي هنا الممثل السينمائي « فان جونسون » وقد تعرف إليه في هوليود منذ شهور ، وكان الرجل يقف هنا مع ممثلات هوليود على شرفة القصر ، يمتع النفس كذلك بالهواء الصافي لا تكدّره سيارات ، ولا تحجبه جدران كثيفة لناطحات السحاب ، وضحك وجه الممثل ثانية للقاء العربي في « جنّة العريف » واشتركا في المرور تحت فوارات الماء المصطفّة على طرفي الممشى ، تتلاقى كالسيوف العسكرية يستلّها الضباط في عرس زميل يمرّ تحتها ليلة عرسه ، ووقفا معاً عند البرك الواسعة في القصر تعكس مياهها على صفحتها الصافية صورة الأعمدة المرمرية النظيفة اللماعة .

وكان صديقي يطوف القصر صباحاً مع بزوغ الشمس ، ويطوفه مع غروب هذه الشمس ، ويؤلمه أن يستذكر الكارثة الكبرى في تاريخ العرب ، وقد وقعت خلال القرن التاسع للهجرة ، وأن يستمع إلى هذه الأرواح البريئة التي قتلت حول الحمراء ، حين دخلها الإسبان ، وأن يعتبر بما كان في هذا « الفردوس الضائع » من ذخر أضاعه أحد الملوك حين استسلم إلى اللّذات وركن إلى الراحة فأفسد الأجناد ، وأسند الأمر إلى أحد وزرائه ، واحتجب عن الناس ، وأفاض في المظالم وضاع بين زوجتيه « ثريا » الإسبانية و « عائشة »

العربية فقسم غرناطة كلّها إلى شطرين ، شطر مع ابنه من الأولى وشطر مع ابنه من الثانية ، وكان للنساء في الحكم وفي القضاء عليه وعلى العرب الفأس الأكبر والمعول الأخير .

وكم وقف أمام جناح « الحريم » وذكر أم عبد الله قبل البراح من الفردوس ، وهي تقول فيما روى الرواة ما عناه الشاعر في نظيمه :

إبك مثل النّساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وكم طار به الخيال إلى الموازنة بين خاتمة العباسيين وخاتمة الأندلسيين ، ودخول النساء في سياسة الحكم ، حتى قال أبو فراس قولة تلك الأم قبل قرون يصف أمر العباسيين :

« والأمر تملكه النسوان والخدم » . وكم سمع من وراء القرون في المقاصير همسَ النساء وضحكَ الرجال من بني قومه ، وهم يستمتعون بهذا الفردوس، ولا يبالون بالأعداء يرقبونهم عن كثب ، ولا يسألون عن تخاصم الحكام والأمراء من العرب ، والعدوّ صفّ واحد لاقتلاعهم وطردهم . حتى كان صباح أحد الأيام فدخل الإسبان مدينة « الحمّة » بالأندلس ، وأعملوا السيفَ في أهلها ، وأطاحوا بالرقاب ، رقاب النساء والأطفال والرجال . ثم دخلوا « غرناطة » هذه ، فحاصروها ، واشتد الجوع على أهلها ، وانعدم الطعام ، فاستسلم القوم . ودخل الجيشُ الإسباني قصورَ الحمراء ، وبكى الصخر لأول مرّة ، واستذلّت السباع ، فخفضت رؤوسها المرمرية ، وانقطع الماء الخيّر الذي كان يتدفّق من أفواهها حتى الساعة ، فما يمرّ عربي ببركة السباع إلاّ استشعر بؤس المكان يشارك نكبة السكان .

وكان صديقي يستمع إلى الدليل الإسباني يشرح الأعمال الباهرة في القصر والبناء المعجب ، فيشيد بالمعجزات التي أتى بها العرب في بناء الحمراء وجنان العريف ، واختيار الفسيفساء واصطناع المرمر في كل مكان ، حتى

لكأنّ الجدران والأرض والأعمدة تتشابه في البراعة والإتقان ، لئلا يشذّ شبر منها في الجمال عن شبر ، فهي كدمية كبيرة ركزها العرب فوق القمة وخلفوها وحيدة بعد أن رحلوا يعبث بها الدهر ، ويتعظ بها من يعظه العمر .

وخلّف صديقي « جنان العريف » الفاتنة ، وهمس الأشباح وحفيف الورق، وغناء المياه، وتمايل الزهر، وسافر إلى قرطبة وهي قريبة وكأنّه يزحف خلف التاريخ ويمضي وراء العرب في كل مكان ، فدخل في الأسواق الضيقة ، والبيوت المتقابلة ، والحارات المتلوية ، ليسمع حديث الجيران عن أعمال فلانة وفلان . ومضى إلى أحياء هذه المدينة ، وهو يمشي عامة يومه فلا يكلّ ، كأنّ شبحاً يسوقه ، أو كأن خيالاً يمضي أمامه في هذه البيوت والمساكن ، فكأنّه رآها قبل ذلك اليوم ، أو كأنّه طاف بها مرات ، فهي كأحياء حلب الداخلية وحمص وحماة ودمشق ، متقاربة ، بل إنّها في أسواق وحارات لا تنتهي ، تقفل أبوابها في الماضي ، بأقفال الحديد ، وفي وسط أبواب الحديد طاقة مفتوحة تطل على ساحة البيت ، وفي الساحة بركة ، وحول البركة ورد وزهر ، والبيوت من حجر خالص ، فأين سكن الأجداد ، وكيف تنقلوا بين البيوت ، وتزاوجوا وتصاهروا ، فنشأ العلماء والقضاة والأعلام ؟ أين هؤلاء الذين يترجم لهم المؤرخون فيملأون بذكرهم المجلدات حديثاً عن صلاح وعلم وتقى وأدب ، لا ينتهي ولا يكاد يقف ؟

أين يجد هؤلاء مجتمعين في مكان واحد يقرؤون معاً ، ويدرسون معاً ، ويستمعون معاً ، ويتناقشون ! ومرت به خاطرة سريعة ، لماذا لا يزحف إليهم فهم في الجامع الكبير ، جامع قرطبة العظيم ، لعلّه يبلغ إليهم فالنهار يتقدم وصلاة الظهر قريبة .

ومضى مسرعاً يسأل عن مسجد قرطبة ، فشهد جموعاً من الأجانب والغرباء يدخلون بغير استئذان ، وأمامهم الدليل يتكلم الإسبانية ، ويمضي

صديقي من الباب ليستمع في اعتزاز أن هذا الجامع أكبر ما بنى المسلمون في حياتهم وأقطارهم ، بل إنّه أعظم بناء خلفوه في الأندلس . ويتلفت الدليل إلى القوم ويقول في سماحة الرجل المعجب إنّ هذه الكنيسة الصغيرة التي بناها الملوك بعد رحيل العرب في قلب الجامع تكاد تكون كحجيرة صغيرة في قلب هذا البناء الكبير ، تزري بنفسها ، لأنّها تمثل صغر البناء وضآلته ، بالنسبة إلى ما خلف العرب .

لقد أعجب حقاً بسواري المسجد ، وقد اصطفت بشكل مدهش مذهل ، فكأنّها غابة قد زرعت بأعمدة من المرمر ، وأضيئت بمصابيح ما زيّن بمثلها مسجد في المشرق ، صنعت من النحاس والمعادن النفيسة ، في حجم كبير يناسب هذا الرواق الكبير الممتد إلى مسافات بعيدة ، تاه فيها صديقي ، وضلّ فكره في غابة المرمر العظيمة ، وشرد خياله ، وطار إلى العهد الذهبي حيث كانت العيون يوم الجمعة عالقة بالمنبر الهائل ، تستمع إلى الإمام وهو يتلو خطبته التقليدية في وحدة القوم وفي قوتهم وعظمتهم ونضالهم ضدّ الأعداء . وخيل إليه أنّه يسمع تلاوة القرآن على الطريقة المغربية ، في صوت حنون جميل ، والأصوات تنطلق معاً بالمئات في الأنين وفي التأمين على قول الله عزّ وجل . فتردّد السواري والجدران أصداء الأصوات ، والبخور يرتفع من كل مكان ، وعطر الآي يمتزج بالآهات والحسرات خوفاً من عذاب يوم القيامة ، وأملاً بنيل الجنّة وحسن الختام .

وتذكّر صديقي أن العرب من بني لخم ، هم الذين عمروا قرطبة وعمّموا فيها العدل ، وساقوا إليها العلم ، ونشأُوا فيها الأبطال ، ورفعوا لقومهم منارة في كل طرف من أطراف الأندلس ، وعمّموا هاماتهم بالنصر ، وعمروا قلوبهم بالإيمان ، فوقفوا أمام الإسبان ثمانية قرون بالوحدة والقوة والحب والتآخي والصفاء ، فلمّا زايلتهم صفات العربي ، وأخلاق الأباة الشم الصيد

من لخم وغيرهم زالت عنهم عزّة الملك ، وأبهة الاستقلال ، ومضوا في سمع الدهر صيتاً يذكر ، وشهرة تروى ، وتاريخاً يحكى وعبرة لمن اعتبر .

وخرج صديقي من المسجد يتلمس الجدران المنقوشة خارجه في أجمل زينة وأروع نقش ، تصافح عيناه مجداً كان لأهله ومفاخر كانت لأجداده ، يعتز بها على الدهر ما عاش ، ويرويها قصة لأبنائه وذويه وطلابه .

في ملتقى البحرين

ذكريات الحداثة تطارد صديقي حتى في باريس ، فقد كان يغشى فيها المقاهي العربية ، ويسمع فيها لهجات تونس والمغرب والجزائر ، فيطير خياله إلى أيام صباه ، ويذكر ما كان من مدرّسه المغربي بالعربية في لهجة الالقاء والحديث ! . . ويوازن بين ما كان يعرف منذ سنين وما يسمع منذ أيام ، وقد قاده إخوانه إلى مطاعم مغربية وملاهٍ مغربية ، كانت تعمر الحيّ اللاتيني ، وكان يبهره هذا اللّباس المغربيّ ويغريه هذا المأكل المغربي ، ويُثيره هذا وهذا إلى زيارة المغرب والتعرّف إلى أهله .

فلمّا استقلّ المغرب سنة ١٩٥٦ ، كان في رحلة علمية بغرناطة ، وأغرته نفسه أن يدخل تلك البلاد المغربية ، وأن يلقى فيها صديقه الزعيم علال الفاسي بالتهنئة ، وأن يشهد الاستقلال ، وأن يكحّل عينيه بمخطوطات المغرب . فأبرق إلى صديقه ، وركب الطائرة ، وكان مع المغاربة بعد قليل ، لأنهم على أبواب أوربة ، و « طنجة » قبالة المضيق الذي يلتقي عنده البحران ، وبقربها انطلق الفتح ، وحيالها وقف جنود طارق ، وعلى تلالها كتب المجد ، وسطوره ما تزال في سمع العرب .

دخل « طنجة » كما يدخل المسحور ، فلم تصدّق عيناه ما يرى ، فالبحر يلفّ هذه الحاضرة كالسّوار ، وهي تشرف من تلالها في دلال وزهو ، وطرقها صاعدة هابطة كأنّها « سان فرنسيسكو » حين تختصر الدنيا ، والأمواج تقبل على شواطئها ثم تعود لتروي قصة الفتح ، وأمجاده ، في حديث حلو لا ينتهي !

كان صديقي يقف بين عالمين ، وفي ملتقى البحرين ، مزهواً بلؤلؤة البحر المتوسط ، فيشهد الشمس في مساربها ، حين تركض وتخلّف الظلال والألوان ، تعابث المياه وتعابثها ، ويرشقها البحر فما يصيب إلاّ قدميها ، لأنّ القامة الفارعة لطنجة قد استعلت على الماء ، وشمخت بأنفها في السماء ، لما تملك من لوحات ساحرة ، رسمها الله بقدرته ، فتفرّدت بالجمال .

وكم كان صديقي يضيع بين هذه اللوحات ، ويحب أن تختزن عيناه صورة يرسمها بقلمه فلا يستطيع ، ذلك لأن الخط الفاصل بين البحرين ، ما يكاد يبين ، فأين البحر الصغير ، وأين المحيط الكبير ، وأين كان الفتح ؟

لقد قام الفتح العربي قرب هذا الجبل العالي ، من هذه الصخور الصماء التي قدها سيف الزمان ، فأصبحت جداراً عالياً مخيفاً . وكأنّه صفحة مستقيمة كتب عليها الدهر معجزة قومه العرب ، هؤلاء الذين وفدوا من دمشق الأموية على خيول مطهمة ، فاجتازوا ممالك وممالك من مكة ومصر والشام حتى بلغوا هذا الجبل الأشم . ونزلت بقربه سفنهم إلى الماء ، لتبلغ الجبل الإسباني المقابل ، وبينهما مسافة ترى بالعين المجرّدة ، ولكن ركوب البحر على هؤلاء القوم وفي تلك الظروف كان من المعجزات .

وكان صديقي يخترق الضباب المتراكم ليتبين المسافة بالمنظار المكبّر ، فيبلغه الخوف والوجل وهو في مكانه ، فتاه فكره وشرد خياله ، وعاد القهقرى يتصوّر همة الفاتحين وبطولتهم ، فقد كتبوا لقومهم سطور المجد ، وحفروها في الصخر ؛ ورفعوا منارة بين الأمم لهذه الأيام المجيدة . وظل صديقي أياماً في طنجة يغشى الشوارع المتناظرة ، ويطوف حدائقها الباسمة ، ويرتفع كلّما سنحت له الفرصة إلى تلال طنجة ، فيشهد البحر والشاطىء والجبل ، فرحاً بهذه المدينة ، فهي مفتاح الفردوس المفقود ، وهي بهجة الشيخوخة لكل عربي يحب أن يعتزل الضوضاء ، والصخب ومتاعب الحياة .

وانصرف عنها في الركب إلى « فاس » وهي عاصمة القرويّين وحاضرة العلم في هذه البلاد ، تشبه في قديمها حلب ودمشق ، بل تبزّ حواضر المشرق في حفاظها على القديم ، فحاراتها وشوارعها وأبوابها وبساتينها ونقوشها كلّها يذكّر بربوع سورية ، وكم هتف الكتّاب عندها في حنين الشجر إلى الشجر في المشرق ، وتشابه الحجر والحجر .

ولقد خلّف القدماء في الأسواق والبيوت وهندسة البناء هنا ما يدعو إلى العجب والدهشة ، في فسيفساء فاتنة ، ونوافير يتراقص منها الماء ، وبرك تعكس صور السكان ، فتتباهى غواني فاس ، ويتغنّى شعراء الربوع ، ويحسب المشرقي أنّه ما غادر الأندلس .

ولكن صديقي هرع منذ الصباح إلى « القرويين » فاختلف إلى سواري المسجد القديم ، واعتراه شعور غريب بأنّه في الأزهر من جديد، يستمع إلى الشيوخ حوله ، وتخيّل الطلاب هنا يتعلّمون كتب المشرق والمغرب ، فيتّصل علم وعلم ، وتضيع المسافات ، ويتلى « المبرّد » هنا ، كما يتلى « ابن خلدون » ولسان الدين ابن الخطيب في الأزهر بالقاهرة المعزّية !

وعلى مقربة من هذه السّواري تجمّعت مخطوطات قديمة انحدرت إلى هنا من دمشق وقرطبة ومدريد وبغداد وتكدّست في خزانة القرويين ، على خطوط موسيقية الزخرف كأنّها ترانيم مرسومة في حروفها المتعاقبة المتشابكة، تتّصل الأواخر بالأوائل مثل الكلام المغربي نفسه .

وفي هذه الخطوط غاص صديقي ، فما يكاد يمسك بكتاب إلاّ استبدّ به جاره ، كأنّه في عرس مزدحم من حسان الدهر ، يحب أن تصافح عيناه كلّ حسناء ، وتلمس يداه كلّ يد . ولم يصدمه قدم الأوراق ، وتهالك الصفحات ، وتساقط الأجزاء ، فقد كان منذ القديم يشفق على العليل من الكتب ، ولكن من الذي قال إنّها كانت عليلة متهالكة ، لقد نال منها الغبار

وأخذت منها الأرضة ، وأصابتها الرطوبة ، فحسب ، ولكنها فذّة وحيدة في الدّهر ، لا تكاد تقع عليها إلاّ في القرويين وإلاّ في هذه « المدرسة » التي خلفتها امرأة عربية ، يحسدها الرجال على ما نعمت به من دعوات ، وصلوات ، وتحيات ، تصلها من كل حدب وصوب .

وفي هذه الخزانة مخطوطات ابن خلدون في أجزائه وكتبه ، وأبو فراس في ديوانه ، والمتنبي في شروحه ، والتواريخ ترتع وتتربّع ، وكلّها متعة وراحة ونفع . وصديقي يتمنى أن يعيش بينها في هذا الجامع ، كما عاش في ألمانية بالدير ، يقرأ ويقرأ حتى ما يصيبه بعدها ظمأ ! . .

وعلى هذه النسخ قرأ صديقي كتابات العلماء وإجازاتهم القديمة وعاش أياماً بينها ، فما شبع وما ارتوى، ولم يشبع قبله علماء « فاس » وصلحاؤها ، وطلابهم يعمرون أرجاء المغرب ، ولم يرتوِ شباب هذه الحاضرة منها كما يحبّون أن يرتووا ، لأن البلاد آذنت بالاستقلال ، ومهامّ هذا العهد تدعو الشباب إلى الإدارة والسياسة ، فانصرف عنها أكثر أبنائها ، وكان صديقي يراهم في كل منصب كبير ، ويجدهم عند كل منعطف خطير . فالمغرب شابّ وأبناؤه شباب ، ولعلّهم أملنا المقبل إذا ما استيقظ المغرب على التعريب الكامل ، والتأليف الدائم ، والمشاركة الفعالة في الإنتاج والابتكار ، فنحلّق من جديد معاً ، وما ينهض الطائر إلاّ بجناحيه !

في بقية الاندلس

كنت أقلّب هذه الصور في إعجاب ، وأسأل صديقي أين تقع من ربوع الأندلس ، فهذه البيوت الجميلة العالية ، والصحن الفسيح الواسع ، والنافورة كأنّها لسان ينطلق إلى أعلى الصّورة ، والجدران ذات الألوان الزاهية والقيشاني ، كلّها رأيتها في غرناطة ، وأعجبت بها ، وبالأشجار تظلّل الدّار . ولكنّني لم أذكر أين كانت هذه الدار ، وفي أي مكان من فردوس العرب شهدتها !؟ . .

ضحك صديقي طويلاً وأنشأ يحدّثني عن هذه الدار ، التي نزل فيها عند صاحبها « أحمد بن مكوار » ، بفاس ، فقد تلقّفه أصدقاء علال الفاسي يحمله كلّ إلى داره فخوراً ، معتزاً بإكرام هذا المشرقي ، فهو يبيت عند صديق ، ويمسي عند آخر ، تسبقه محافظه من غير استئذان ، كأن ذلك من تقاليد القوم في الأندلس ، ورثها هؤلاء الفاسيّون عنهم .

وكان صديقي مفتوناً في الديار المغربية ، فالبيت هناك نفحة من جمال البناء ، نافورة تتغنّى نهارها وليلها ، فلا تكلّ على عشرة قرون ، ولسانها يهدر أبداً فما يفهم عنه إلاّ مؤرخ شاعر ، كأنّها تتحدث عن ساكنيها ، بعد أن هجروا الأندلس لائذين بالرباط ، وسلا ، وفاس ، وغيرها من مدن ، فنقلوا ما كانوا يملكون من نعيم مقيم إلى هذه الجنّة الجديدة . وأما الجدران فتكاد تنطق ، وتخرج عن الصّمت الشعري ، لتذكر صديقي بجنان العريف وقصور الأندلس ، وتصوّر الدروس والعبر من النكبة . فلما بلغ إلى تذوّق الولائم المغربية ، رأى أن القوم يلتفون حول موائد مدوّرة كبيرة ، يتجاورون

على حشيات متزاحمة ، والمناكب تصدم المناكب ، فتهبط الألوان متعاقبة ، لحم ، وطيور ودجاج ، وحلوى باللحم ، وزيتون ، وخضار ، ويختلط النعاج بالعجل ، ويتنافس الرز والطحين المفتول (الكسكس) وترتفع الأيدي ، وتنزل الأيدي ، والصحون الكبيرة تحطّ ، وتطير ، وما يدري الضيف أياً يفضّل وأياً يهمل ، حتى يرى القوم قد انسحب بعضهم من الميدان ، وتولى إلى (الطست) يغسل يديه ، ليلحق بالأتاي (الشاي) . ويختم معركة الضيافة ، فكأنّه بعد قليل ما بالغ ولا أسرف ، وكأن هذه الأصناف ، والأبازير ، والأفاويه ، ما اختلفت إلى جسمه ، وكأنّه ينتظر المساء ليستأنف معركة أشدّ وأدهى . ذلك أن الشاي الأخضر هو شراب الخير والنعيم والراحة .

وأشد ما أذهل صديقي هذه الموسيقى حول المائدة ، فهناك قوم يعزفون ، ويغنون ، وراءه وأمامه ، وحوله ، في جوقة أندلسية كاملة ، وموشحات ما يدري كيف اختارها القوم من « الأغاني » و « نفح الطيب » . وصاحب الدعوة في تطوان « عبد الخالق الطرّيس » رئيس الوزارة ووجيه قومه يشرف على « أوركسترا » الأكل والنغم ، فهما في نظر المغربي متعة المعدة والقلب ، والعقل والذّوق . ولا يكمل الكرم إلاّ إذا كانا على طريقة الخلفاء ، وأمراء الخلفاء من ربوع الفردوس المفقود .

ولم يكن صديقي يقف بي عند حديث الولائم وإنّما كان يعرض عليّ صور الحدائق النضرة والأشجار المثمرة ، والأرز المتطاول ، والكروم الممتدة ، ويحدثني عن جهد المغربي في الزرع ، والرحلة والنضال والكفاح ، فالسيارات الكبيرة والقطارات ، ووسائل النقل ، كلّها ، متوفّرة لديه ، بحيث يُفطر المغربي في الرباط ، ويتغدّى في فاس ويتعشّى في مكناس . والطرقات واسعة ، والجسور عالية ، والأنهار متدفقة ، والشواطىء عامرة ، والعمارات مرتفعة ، فكيف استطاع المغربي أن يقف لحياة الغرب عامة يومه ، فإذا خلا إلى بيته

فهو عربي أندلسي !

إنّه كذلك لأنّه يعيش مع التاريخ وأمجاده فإذا عاد إلى حاضره يطيل ولا يثرثر ، ولا ينطق عن مشاكل جاره ولا يبوح بأمر نفسه ، وقليلاً ما يتحدّث عن همومه إلاّ إذا كانت قد انفرجت ، ونادراً ما يخوض في السياسة ، وما يدري بعد هذا ، أيصدّق ما سمع عنها ، أم يتولى إلى الريبة والشك !

لذلك كان صديقي يتحمّس لاستقلال المغرب ، وتعريب المغرب ، منذ عهد بعيد ، بل كان يؤثر أن يعيش في المغرب طويلاً ، لأنّه كان يرى فيه الشرق الجميل بمآكله ولباسه وعاداته ، والغرب النشيط في أعماله وصبره ودؤوبه .

في بلد النخيل

وهذه الصور العجيبة ؛ ما شأنها ، كأنّها أسواق قديمة أو حجيج كبير ، فكلها عمائم بيضاء ، وثياب بيضاء ، لا يبين منها إلاّ ملامح الوجه وبقيّة الأعضاء . كأنّها صورة حقل واسع قد زُرع بالقطن ، وتفتّح ، واتّسع حتى ملأ العينَ وأدهش النظر .

إنّها صور هؤلاء « البربر » الذين صعد إليهم صديقي في ديارهم ، بجبال الأطلس الشامخة ، يزورهم في الركب الذي سار مع الزعيم « علال » بعد طول السجن والاعتقال ، وبزوغ نجم الاستقلال . وفي الركب كان العالم الكبير محمد العربي العلوي ، شيخ الإسلام ، كبير علماء القرويين ، وزير العدل ، ووزير البلاط ، يحدّث صديقي في أمر الحنابلة ، كأنّه في شغل شاغل عمّا حوله من جموع ، وفي صمم عن هذه الرصاصات التي تنطلق من أفواه البنادق ترحيباً وفرحاً . وعن يساره في السيّارة الزعيم المغربي « علاّل » ، يشارك في ردّ التحيات ، ويغرق في القبل التي تنصبّ عليه ، والأيدي التي تمتد إليه ، فهي آلاف ، وما لفرد أن يردّ هذا السيل من شوق وهيام ، وشكر ! .

وكان صديقي في حلم طويل ، كأنّه لا يصدّق ما يرى ، لأنّ البحر من الناس حوله ، والأصوات والأهازيج والثياب البيضاء ، والبنادق والرصاص ، كلّ ذلك جديد عليه ، لم يشهد مثله في الشرق حين استقلّت بلاده ، وحين استقبل مع شباب البلاد وفتيانها رجال الوفد السوري الذي فاوض في باريس ، وعاد بالاستقلال . وكان يبعد في ذكرياته فيستحضر

صوره أول الشّباب وهو يشارك في عزّة قومه ، ويعود بخياله إلى الحاضر من جديد ، ليرى كيف استقلّ العرب في أمصارهم ، وعادوا أمة حرّة بعد طول النكبات . فهو في المغرب بعد عشر سنوات يشارك في عزّة بقايا الأندلسيين . فكانت الفرحة تغمره وتنسيه كل شيء . ولم يستيقظ على الرصاص حوله لأنّه ألفه منذ قليل ، ونظر إلى الزعيم عن يساره فرآه يحوقل ، وحارسا السيّارة أمامه كأنهما يتهيّئان لأمر جَلَل ، فلم يفهم شيئاً ممّا دار حوله . وإنّما عرف بعد قليل أنّه اجتاز خطراً قاتلاً ، فقد كان الرصاص ينصب على « علال » والسيارة التي توهّم السفاكون أنّه فيها ، وكتب الله النجاة للركب ، وتحطّمت السيارة وتعطلت !

ذلك أن « الحزب » كان يتحسّب للمؤامرة ، فدبّر لكل طارىء . والرحلات الجميلة البعيدة تكلّف في كثير من الأحيان ! ولم يشعر صديقي بالخطر المحيط حتى نزل من السيارة ، وعرف ما جرى ، وكان في شغل شاغل بالعلم والحنابلة ، وهو في قلب المعركة والمؤامرة ، يتخطّى « درب الشوك » إلى القدر المحتوم .

ونسي الخطر والهول ، في سرعة ، وعاد قلبه من جديد يتفتّح للخطباء المغاربة يقولون في عقلية مختلفة عمّا عَهِد ، وتُتَرجم هذه الأقوال إلى البربرية ، فأكثر البربر لا يفهمون العربية ، ولكنّهم يشاركون في عزّة الديار واستقلالها ، لأنّها ديارُهم المشتركة وماضيهم المشترك . ومن الخير أن يُعِدّوا لمُسْتقبل مشترك ! . .

وما يستطيع صديقي ، وهو يصف هذه الاحتفالات ، أن يقف عن التاريخ ، فهو يستشهد به أبداً ، ويعود إلى الماضي ليتذكر كيف كانت هذه الجموع تفهم عن « طارق بن زياد » وهو بربريّ كذلك ، وكيف أصبح خطيب العرب البلغاء ، يعرفه اليوم صغار المشارقة والمغاربة ، ويردّدون عباراته

في كل مجال وبيان .

ولقد طاف صديقي وحده جبال الأطلس الشاهقة بعد ذلك ، وكحل عينيه بتلك الربوع الممرعة الخضراء ، ورأى النّاس على أنظف لباس وأجمل زيّ ، وطافت بمخيلته دولة « المرابطين » ، وما أسدت للأدب والتاريخ ، وما خلّفت في مجدنا العريض ، فكأنه شهد منابت العزّ ، ومصنع التاريخ ، وكأنّه كان يستعرض القرون العربية ، ويتفهّم خفاياها وأسرارها .

وسار مع هذه العصور ، في سياحة جميلة ، لا يبالي بالعصر الذي يعيش فيه ، حتى بلغ إلى مزارع النخيل ، وعرف أنّه على مقربة من مدينة « مراكش الحمراء » فدخلها مع الشمس ليشهد أمتع ما رأت عيناه من عمارات وأبنية ، تغلب عليها الحمرة كأنّها نضرة الشباب . وجاز « ساحة الفناء » في قلب المدينة فرأى الحواة والسحرة ، والملابس الزاهية ، والطرب على كل شفة ، والبسمة في كل عين ، فمراكش مدينة الطيب والأنس والدفء ، وخفّة الروح .

وسرّ صديقي بالقوم ، فَهُم في طرب أبداً ، تتراقص في أفيائهم أشعّة الشمس ، وتتلاعب بقلوبهم أنغام الحياة والخيال والموسيقى ، وعلى مقربة منهم جبال عالية ساحرة لا يغيب عن قممها الثلج صيفاً ولا شتاء .

وتمنّى أن يمكث طويلاً عند الجامع الجليل ، أو الساحة الواسعة أو في التلال المرتفعة ، أو تحت النخيل الجميل ، فهو يجد في مراكش كلّ ما تفرق من جمال في بلدان المغرب إلاّ البحر ، فإن كان يطمح إلى البحر حقاً ، فعند الدار البيضاء خبر الشطئان الواسعة ، والأمواج المتدافعة ، والعمارات العالية وما هو إلاّ أن يسير إليها ، فالمغرب ملتقى الجمال ، والجبال ، والبحار ، والرمال ، تشقّه الأنهار ، وتظلّه الأشجار ، وتغدق عليه السماء بسحاب مدرار ، وهذا ما كتب الله لهذه الربوع الساحرة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خاتمة المطاف

رأى صديقي ناطحات السحاب وشلالات نياغارا ، والجبال السحرية في أمريكا، وشهد مغاني هوليود ومسارحها وشطئان الهادي والأطلنتي ، وبحيرات الجليد ، ومهابط التزلج ، ووقف أمام قاعات الكرملين وساحات لننغراد ، وأبصر انعكاس القمر على « النيڤيا » وامتداد « الفولغا » ، وتتبّع خطى ستالنغراد البطولية ، وآثار سمرقند وطاشقند التاريخية ، وطوّف في مرابع باريس ، وفينة ، ولندن ، وبراغ ، وهولندة ، والدانمارك ، والنروج وأسوج ، وما وراء الراين ، وسواحل إيطالية ، وغيرها من أماكن ساحرة ، سعياً وراء المخطوطات ، ولكنه كان يظن أنّه يسير في « درب الشوك » لكثرة ما لاقى من عنت وإرهاق في سبيل هذه المخطوطات .

وكان يحسّ مع ذلك شعوراً غريباً كان يختم الرحلة والمطاف ، هو شعور المتنبي نفسه أنه في هذه البلاد « غريب الوجه واليد واللسان » . وما كان يبالي لأنّه في مهمّة سامية يريد أن يستعيد بعض الكتب القديمة إلى حوزة قومه من جديد ، ولو كانت على صور وأشرطة . وكان خلال هذه المهمّة يعجب لشعوب مختلفة ، وأعراق متباينة ، وألسنة متنافرة ، وأقوام في تواريخ شتّى متباعدة متناكرة ، كيف تتّحد في دولة ، وتنسجم في أمة ، وتعمل للحضارة والبناء ، والابتكار والاختراع ، فكأن ساستها من الجنّ تعبث بأيديها ، فتقلب الصحارى إلى جنائن ، والجبال الجرداء إلى مفاتن ، والأنهار المتباعدة إلى أقنية متلاقية ، فتخترق الأرض ، وتصل بين السماء والسماء ، وتركز في كل مكان عبقرية بناءة .

ولقد كان الألم يعصر قلب صديقي خلال رحلاته لأنّه لا يملك من هذه الربوع إلاّ متعة النظر ، ولا يشترك معها في فخر ، وليس له منها إلاّ ما يملك الناس جميعاً ، ثم يزول كل شيء ، فلا وشائج ولا أنساب ، ولا تاريخ ولا أماني عميقة ، ولا ذكريات مشتركة تصله بهذه الربوع إلاّ ذكريات الإنسان والإنسان .

وفي البلاد العربية وحدها كان يقول إنّه أحسّ أن الجبال تتنفس للقائه ، وأن الشجر يحنو عليه ، فكأنّ هذه الأماكن الجميلة روح من روحه ونَفس من نفسه ، يخفق قلبه للذكرى في كل زاوية وعند كل حجر ، فيتمسك بكل جدار وينتسب إلى كل أثر .

ذلك أنّه يحسّ أن أجداده مرّوا فيها منذ أحقاب ، فصنعوا التاريخ ، وسكبوا على جدران الآثار والأسوار من دمائهم ، وتركوا في خزائن المكتبات مدادَ عيونهم ، ونفحات عقولهم ، وعطّروا الأودية بأنفاس الشعراء والأدباء والكتّاب ، وأثاروا الرمل والتراب بحوافر خيولهم ، وخطّوا في مغرب الأرض أسفاراً تقف لما صنعوا في المشرق .

قام خالد للفتح في المشرق ، ونهض طارق للفتح في المغرب فدوّى نداء ونداء ، وتغنّت البطاح بأهازيج النصر في كلّ مكان ، وانتشى التاريخ طرباً ، وتناغت الذكريات فرحاً .

ولقد اشتد الألم في نفس صديقي حين رأى قومه حيارى في دنياهم ، كأنّهم في قوارب صغيرة تتقاذفها الأمواج وتعبث بها الرياح فلا تدري أين تسير وما تعرف أين المصير ! وليس من الخير عنده أن ينكر الإنسان جذور ماضيه ، وأن يكفر بتربته وأن يجهل التاريخ .

لذلك طوّف صديقي في الأرض يجمع هذا التاريخ ، وسار في « درب الشوك » من أجل قومه وخدمة أمته ، فكان من وراء ذلك هذا الجنى ، وهذا الخير الذي يرجوه .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الدرب

كلمة ٥

الفصل الأول – جنى النحل

أول الدرب ٩
رحلة الصيف ١٤
من خلال المؤتمر ١٨
فتيات هتلر ٢٢
دفن الموتى ٢٦
أحلام المستقبل ٣٠
رفاق الدرب ٣٧
أدباء القاهرة ٤٣
على شطئان النيل ٥١

الفصل الثاني – بعد اللهب

وراء الراين ٥٧
في الدير ٦١
مع المتنبي والرهبان ٦٧
سرير وثير ٧٣
في أحضان الزنبق ٧٨
في بلاد الرافدين ٨٣
على ضفاف البوسفور ٨٧

الفصل الثالث – في بلاد ناطحات السحاب

في العلب السامقة ٩٣
أحلام شاعر ١٠٠
في نهاية الأسبوع ١٠٨
إلى أين يسير الإنسان ١١٦
في أحضان الطبيعة ١٢٣
في مسرح الحياة ١٢٩
في ظلال الحضارة ١٣٧

الفصل الرابع – في مدينة الأنوار

في حمى الصبيّة العجوز ١٤٥
في الحيّ اللاتيني ١٥٢
في أروقة السوربون ١٦٠

الفصل الخامس – في العالم الحديث

في عاصمة السوفيات ١٦٩
بين تلال الثلوج ١٧٦
حروب وغزوات ١٨٤

الفصل السادس – في الفردوس وبقية الأندلس

في ظلال الفردوس المفقود ١٩١
في ملتقى البحرين ١٩٨
في بقية الأندلس ٢٠٢
في بلد النخيل ٢٠٥
خاتمة المطاف ٢٠٨

كتب الدكتور سامي الدهان

أ ـ تحقيق وتعليق :

ديوان أبي فراس الحمداني	ثلاثة أجزاء		٨٢٥ صفحة بيروت ١٩٤٤
كتاب في السياسة	للوزير المغربي		١٤٠ صفحة بيروت ١٩٤٨
ديوان الوأواء الدمشقي	المجمع العلمي العربي		٤١٧ صفحة دمشق ١٩٥٠
زبدة الحلب من تاريخ حلب	لابن العديم	ج ١	٤٤٤ صفحة بيروت ١٩٥١
طبقات الحنابلة	لابن رجب الدمشقي	ج ١	٣٣٣ صفحة بيروت ١٩٥٤
زبدة الحلب من تاريخ حلب	لابن العديم	ج ٢	٣٩٠ صفحة بيروت ١٩٥٤
الأعلاق الخطيرة (مدينة دمشق)	لابن شدّاد		٣٥٧ صفحة بيروت ١٩٥٦
التحف والهدايا	للخالديين		٣٧٦ صفحة القاهرة ١٩٥٦
شرح ديوان صريع الغواني	مسلم بن الوليد		٥٩٢ صفحة القاهرة ١٩٥٨
رسالة ابن فضلان	المجمع العلمي العربي		٢٠٠ صفحة دمشق ١٩٦٠
الأعلاق الخطيرة (فلسطين والأردن ولبنان)	لابن شداد		٣٤٧ صفحة بيروت ١٩٦٢
زبدة الحلب من تاريخ حلب	لابن العديم	ج ٣	٣٠٠ صفحة بيروت ١٩٦٨

ب ـ تأليف :

محمد كرد عليّ	حياته وآثاره	٧٠ صفحة دمشق ١٩٥٥
شاعر الشعب	حافظ إبراهيم	١٢٦ صفحة القاهرة ١٩٥٥
الغزل ١ ـ ٢	من فنون الأدب العربي	١٩٤ صفحة القاهرة ١٩٥٤
الوصف	من فنون الأدب العربي	١١٠ صفحات القاهرة ١٩٥٦
المديح	من فنون الأدب العربي	١١٤ صفحة القاهرة ١٩٥٧

الهجاء	من فنون الأدب العربي	٩١	صفحة القاهرة ١٩٥٨
عبد الرحمن الكواكبي	نوابغ الفكر العربي	١٢٠	صفحة القاهرة ١٩٥٨
شكيب أرسلان	معهد الدراسات العالية	١٩٦	صفحة القاهرة ١٩٥٨
جان جاك روسو	سلسلة اقرأ	١٣٤	صفحة القاهرة ١٩٥٩
الأمير شكيب أرسلان	حياته وآثاره	٣٨١	صفحة القاهرة ١٩٦٠
الشعر الحديث في الإقليم السوري	معهد الدراسات العالية	٣٢٣	صفحة القاهرة ١٩٦٠
الناصر صلاح الدين الأيوبي	سلسلة اقرأ	١٥١	صفحة القاهرة ١٩٦٠
قدماء ومعاصرون	تراجم وسير	٣٢٠	صفحة القاهرة ١٩٦١
المرجع في تدريس اللّغة العربية		٣٠٥	صفحات دمشق ١٩٦٣

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com